

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01229 3092

DT
97
E3
19



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

01-133659

SITY

الجا

کتابخانه

۱۲

۱۲ ۰

DT
07.5
B3
1934

البطل الفتح ابراهيم

وفتح الشياطين

۱۸۳۲

۱۹

م

م

۱۹

بقلم

داود برکات

عفی بنشره

برکات برکات



۲۰

المطبعة الرحمانية بمصر
بجوز نشره ۲۵ لایحه ۰۱۵۲۲

س

923-1
Ip3d

٨٠٦٩
ابراهيم. بر

اهداء الكتاب

إلى مصر العزيرة التي أحبها داود من صميم قلبه فضمته
هي في صميم قلبها

إلى أبطال مصر من عهد محيها محمد علي باشا إلى عهد حفيده
فؤاد الأول — أمد الله في عمره —

إلى أصدقاء داود وصحبه واخوانه

إلى روح داود التي أفرغ منها في كل سطر من هذا الكتاب نفثة

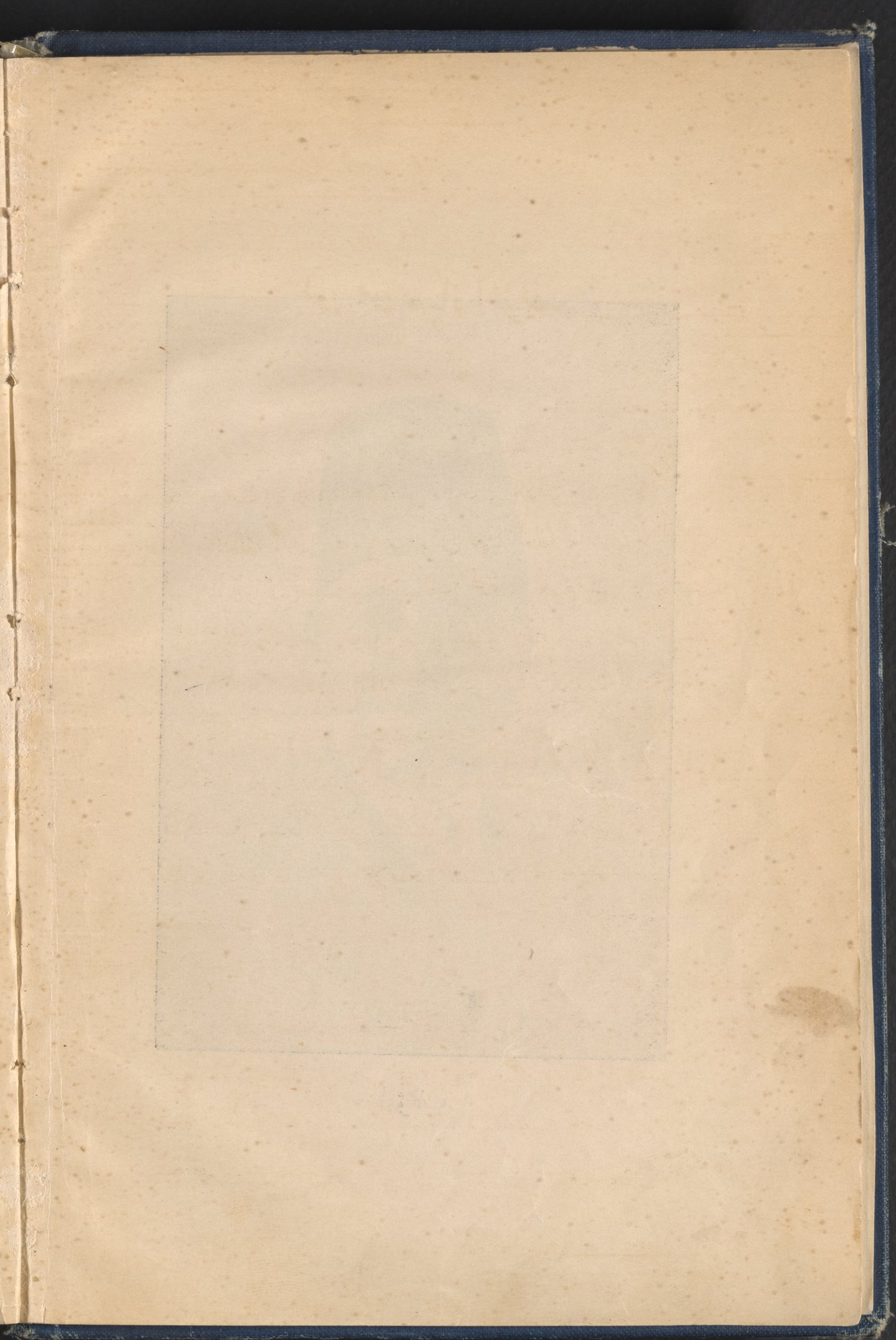
أهدى هذه الصفحة المجيدة من تاريخ البطولة المصرية

بركات بركات

17094



المؤلف



لمحة من حياة المؤلف

رحمه الله

في صباح اليوم الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٨٦٧ ولد
داود بركات في بلدة « يحشوش » إحدى القرى الكبيرة في فتوح
كسروان في لبنان . وتلقى وهو في عهد الطفولة مبادئ العربية
والسريانية والإيطالية واللاتينية على عمه المرحوم الخوري يوسف
بركات الذي كان من حاملي ألوية العلم والأدب ، ودخل بعد ذلك
مدرسة المحبة في بلدة عرامدن - وهي مدرسة قديمة كانت تتقن
تعليم اللغة العربية على الخصوص - ثم انتقل منها إلى مدرسة
الحكمة في بيروت - وهي المدرسة المشهورة بتخريج العلماء
والكتاب والشعراء حتى يكاد لا يخلو قطر في العالم من خريجها -
فكان داود من أنبغ تلامذة العلامة المشهور المرحوم
عبد الله البستاني

ولما أكمل دروسه - وهو لا يزال في سن المراهقة - تولى
التعليم في مدرسة « بير الهيت » من المدارس المحلية في لبنان ولكن
المحيط الأدبي كان في نظره ضيقاً فهاجر لبنان وجاء إلى مصر حيث
التحق بأحدى الوظائف الحكومية في مديرية الغربية وظل فيها
سنة تقريباً ثم انتقل بعدها إلى التدريس في مدينة زفتى

ولما كان يميل بطبعه إلى الكتابة فقد كان ينشر في الصحف
بين حين وحين بعض الكتابات في شتى الموضوعات إلى أن
حدثت فاجعة في زفنى فالتهمت النار منزل أحد الأعيان . عندئذ
أثرت الحادثة بنفسه فكتب عنها إلى جريدة المحروسة مقالا
أعجب به صاحبها وكان ذلك سببا لاشتراك الفقيد في تحريرها
من مدة الزمن .

ولم يطل عمله في المحروسة فأنشأ مع صديقه الشيخ يوسف
الخازن وابن عمه الأستاذ ابراهيم بركات جريدة الأخبار التي
راجت في ذاك العهد رواجاً كبيراً

وفي سنة ١٨٩٩ انتقلت الاهرام إلى القاهرة فتولى رئاسة
تحريرها وظل فيها إلى أن وافاه القدر المحتوم في ٤ نوفمبر سنة
١٩٣٣ في منتصف الساعة العاشرة صباحاً .

هذه لمحة موجزة لحياة الفقيد ولوحاولنا التبسيط في الكتابة
عنها من الوجهة الأدبية والخيرية والعلمية الخ لمأنا مجلداً بأكمله .
رحمات الله عليه

فهرست

دمعة وعمره
بقلم برط برط
مقدمة الكتاب
انطون الجميل بك

صفحة

نمبر

١

الفصل الأول

٨

عدد الجيش المصرى - الاسطول - حاميه عكا - الحصار

الفصل الثانى

١٦

فتح عكا بعد حصار ستة أشهر - قرار الباب العالى بخلع
محمد على باشا وتعيين حسين باشا حاكما على مصر - الجيش
المصرى فى سوريا - خريطة حصار عكا

الفصل الثالث

٤٠

بعد فتح الشام - الزحف على حلب

الفصل الرابع

٤٨

آخر معركة فى الاراضى السورية - وارتداد والترك الى الأناضول

الفصل الخامس

٥٥

ماذا فعل الاسطول المصرى

الفصل السادس

٦٣

آخر المعارك في ارض سوريا — الزحف على قونيا وفتحها،
على أبواب استمبول — تحرك السياسة الاوروبية ، تدخل
أوربا وفرضها الصلح — اتفاق كوتاهية

الفصل السابع

٨٦

الجيش المصرى على أبواب استامبول — المساعى لوقف
الزحف — ما يطلب ابراهيم باشا لمصر

الفصل الثامن

٩٣

موقف الدول مصر الفائزة — محمد على يرفض مطالبها ،
خوف انجلترا على طريق الهند

الفصل التاسع

١١٧

بعد اتفاق كوتاهية — أعمال ابراهيم باشا في البلدان التي فتحها

الفصل العاشر

١٢٣

الفتن والثورات في فلسطين وسوريا — أسبابها ونتائجها —
اتحاد انجلترا مع تركيا ضد محمد على والدولة المصرية

الفصل الثاني عشر

١٥٥

حرب جديدة بين الترك والمصريين — فوز ابراهيم باشا —
المصير الأخير

الفصل الثالث عشر

١٧٣

ثورة اللبنانيين وأسبابها - بين الدول وفرنسا

الفصل الرابع عشر

١٨٥

نص اتفاق الدول الأربع - الفصل الملحق - إنذار محمد
على بترك البلاد السورية - ضرب بيروت - انتهاء امارّة
الأمير بشير

الفصل الخامس عشر

١٩٦

موقف فرنسا - الأسطول الانجليزى يدك حصون عكا -
انسحاب المصريين

الفصل السادس عشر

٢١٥

الخاتمة

الوثائق السياسية

٢٢١

تعليقات

٢٢٥

مراجع الكتاب

٢٥٥

ملاحظة - سقط عنوان الفصل الحادى عشر عند تنمير الفصول دون
أن يكون هناك أى مساس بالمعنى والتاريخ . ولكنه خطأ
مطبعى . وطالما يريد الطابع ما لا يريد الكاتب

دمعة وعصر

ای داود ...

ظننتنی وأنا ابکیک حولاً كاملاً أن الدمع قد یطفی شیئاً من
حر قلبي ، ولكن الظن خاب وما كان من نار الحزن إلا أن
زادت سعيراً . والدمع یا أخی یجلب الدمع
هاهو العام یمضی ونحن نعيش بدونك .

نتلصک فی البيت صباحاً فاذا البيت کئيب یندبک . ونترقبک
فی العش لیلاً فاذا بالعش خال إلا من الزغاليل تصیء بعد فقد
عمیدها ، وتمیل إلى بعضها لیصعد کل منها مع الآخر زفرة تتصاعد
وتعلو ثم تعلو إلى أن تبلغ السماء حیث أنت ، ولكنها بعد ذلك
تضمحل وتختف وتبتدد فی اللانهاية وأنت سا من ساکت .
وما عودتنا من قبل صمتاً وإعراضاً .

أخی داود

ماغیبک الحدث ولا القبر طواک ، بل أنت ماثل أمام العین
وستظل ماثلاً مادام فی العین نور وفي القلب خفقة
وما أزال ولن أزال اترسم خطاک متخذاً طریق طریقک
ومقتفياً فی الباقی من حیاتی أثرك إلى أن یجمعنی الله بک
وكانت فی حیاتک لی عظام وأنت الیوم أوعظ منک حیا

ما نسيت قط يا اخي عندما كنت أخلو إليك في البيت أو
في الطريق أو المكتب أو أى مكان آخر ما كنت تطلعنى عليه
مما يجول في صدرك من شتى الموضوعات والرغبات ، وتحدثنى
عما ترتاح إليه نفسك في مختلف مناحى الحياة وما يضيئها ويزيد
في متاعها .

وإن أنسى لا أنسى رغبتك في أن يكون تاريخ « البطل الفاتح
ابراهيم » مجموعاً في سفر واحد بعد أن كنت قد نشرته فصولاً
في الأهرام

وها أنا الآن — وقد رييتنى كما رييتنى — أبر بوعدى لك
بتنفيذ رغبتك وأجمع — على قصورى — هذا التاريخ المجيد
فأجعله خيراً كليلاً أضعه على قبرك في مثل هذا اليوم الذى شاءت
العناية أن تحتطفك فيه منا — وياليت الناموس الطيبى كان قد
لها عن تدوينه في حياتنا وفي سنى العمر —

نعم ها أنا أسجل بنشر هذا التاريخ حبك لمصر وتفانيك
في خدمتها ، فلعلى بذلك أكون قد قمت بشيء من واجبى نحوك
وواجبك نحو وطنيك : لبنان ومصر خاصة والشرق عامة
فتقبل يا أخى داود مع الدمع الذى اذرفه على قبرك ما قد
فعلت تنفيذاً لرغبتك وارقد بسلام يا شقيقى الحبيب

وإلى الملتقى

صباح ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٤

بركات بركات

مقدمة الكتاب

روحان تأخيا في الحياة فلم يفصم
الموت تأخيهما : أنطون الجميل
وداود بركات
وها هو الأستاذ الكبير أنطون
الجميل بك يفرغ من عواطف نفسه
تحية إلى داود في تاريخ « البطل
الفتاح ابراهيم »
فهل هناك خير منها مقدمة للكتاب؟

داود بركات ...

حال الحول على وفاته ، ولا يزال اسمه ملء الأفواه
والأسماع ولا تزال الحسرة عليه ملء الجوانح والقلوب .
كلُّ يذكّره بحسنة من حسناته ، حسب الجانب الذي عرفه
من جوانب حياته :
فالكثيرون يذكرون فيه الصحفي اللبق والكاظم
الفياض القريحة
والكثيرون يذكرون فيه الصديق الأمين والخل الوفى .

والكثيرون يذكرون فيه رجل النجدة والمروءة والهمة
القعساء

أما أنا فأذكر فيه كل ذلك ، لأني عرفته من جميع هذه
النواحي مدة ربع قرن : فقد كان أول من قرأت من الصحفيين
الذين يعالجون الموضوعات القومية العامة . وقد كان لي طول
هذه السنين الصديق الودود ، بل الأخ العطوف . ولظالما خبرت
غيرته ومروءته واستعداده لتلبية من يستنجد به .

عرفت فيه ذلك ، كله فكان حزني عليه بقدر ما عرفت
وما خبرت ، وكان حزناً مضاعفاً لأنه اشترك فيه العقل والقلب .
وما كانت الحوادث في كل يوم من هذه السنة إلا لتجدد
ذكره وتشير عاملاً جديداً على الأسف عليه

وإذا كنت قد دُعيت اليوم لكتابة هذه السطور في صدر
هذا الكتاب فقد تلقيت هذه الدعوة بالشكر والحمد ، لأنها
أتاحت لي الفرصة لأقوم بواجب الذكرى وواجب الوفاء ،
فأظلل ذاكرًا وفيًا له بعد الممات ، كما كان لي وكنت له في الحياة .

هذا الكتاب حسنة من حسناته . أودعه شيئاً من حبه
لمصر ، وطنه المختار ، ومن إعظامه لبناء مجده ورجالاته ، كما

أودعه شيئاً من حبه للبنان وطنه الأول وتعلقه بتقاليده وعاداته .
فلقد طالما سعى وكتب لتوثيق عرى الوداد والولاء بين القطرين
الشقيقين . ولم يكن أحق من (ابراهيم الفاتح) في تمثيل القطرين
في شخصه . فقد كان سيفه صلة الوصل بينهما ، كما كانت أقلام
الكتاب فيما بعد موثقة لهذه الصلة . وإذا كان تمثاله قد قام في
قلب العاصمة المصرية يذكر بفتوحه وانتصاراته فإن له في قلوب
الناس في الديار الشامية تمثالا يذكر بعدله وإصلاحاته .

كان ابراهيم من أبرز الشخصيات في تاريخ الشرق العربي
الحديث ومن أبسل قواده . قاد الجيوش المصرية المظفرة في
حروب الوهابيين والمورة والشام . ولعل فتحه الشام كان من
أكثر أعماله توفيقاً وأبعدها أثراً . فقد سار فاتحاً ، والنصر معقود
بأعلامه ، من غزة إلى عكا إلى دمشق إلى حمص إلى حلب . وتخطى
تخوم سورية إلى آسية الصغرى من اطنه إلى طرسوس إلى ازمير
فقونيه ، وهو يهزم أو يأسر جيشاً بعد جيش حتى أصبح يهدد
الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية

هذا هو الفتح المجيد الذي رأى المؤلف ، رحمه الله ، أن
يدون حوادثه ووقائعه ونتائجه السياسية والاجتماعية في فصول
متتالية نشرها منذ ثلاث سنوات في « الاهرام » لمناسبة مرور
مائة عام على فتح الشام

كان الفقيد من أغزر الكتاب مادة وأجودهم قريحة وأخصهم اتجا . ولو قام من يجمع الفصول والمقالات الشائقة التي دمجتها يراعتة ، في مختلف الموضوعات ، في «الاهرام» وفي غيرها من الصحف مدة ثلث قرن ، لتوفر لديه مجلدات ضخمة في السياسة والعلم والأدب والاجتماع . ولكن فصوله هذه التي ضمها دفئا هذا الكتاب قد تكون خليقة بالنشر قبل سواها ، لعلاقتها الروحية الوثيقة بما وقف عليه حياته من خدمة القطرين اللذين جمع ابراهيم باشا بينهما بروابط سياسية تمكنت السياسة من فصمها بعد حين ، وبروابط أدبية ومعنوية لم يكن مرور قرن كامل ليضعفها .

ما حدثت الفقيد يوماً في وجوب جمع بعض آثاره العلمية الا ابتسم معرضاً . أما فصوله المجموعة في هذا الكتاب عن البطل الفاتح فقد كان يبتسم مرتاحاً الى نشرها ، وكان قد بدأ يأخذ العدة لذلك بنفسه عند ما عاجلته المنية

لذلك أحسن شقيقه الأبر ، الاستاذ بركات ، الاحسان كله في قيامه بهذا العمل وانصرافه الى تنسيق تلك الفصول ونشرها في هذا الكتاب ، تذكاراً لمن كان له أباً وأخاً : فكان كلاهما باراً باخيه شأن النفوس الزكية

ولا ريب في ان محي داود والمعجبين بداود يقدررون لأخيه
صنيعه ولعل القراء يمهّدون له السبيل لينشر تباعا بعض آثار
الفقيد كتاريخ الثورة العراقية ، وتاريخ المسألة المصرية ، وغير
ذلك من الفصول والمباحث

أما انا فاني فوق اجلالى لعمله أشكره لأنه مكّنى في ختام العام
من ان اضع زهرة الذكرى على ضريح هذا الفقيد العزيز
انطون الجميل

البطل الفتح ابراهيم

وفتح الشام

١٨٣٢

تمهيد

هل ندرى ونحن نمر أمام ذلك التمثال في ميدان الأوبرا أمام أية قوة من قوات البطولة نمر؟ وهل نعرف أن هذا التمثال سفر كبير لأجل صفحة من صفحات التاريخ؟ وهل نعرف أنه يجب علينا أن نقف أمامه ذاكرين وأن نعلم أولادنا من هو صاحب التمثال، فاذا علمناهم حبنا اليهم البطولة وعلمناهم تاريخ مصر الحديثة بل تاريخها المجيد؟

أندرى الى أى حد بلغ جهل العامة فقدموا ذكر الحصان على راحته فيضربون الموعد للقاء عند « الحصان » أو في القهوة أمام « الحصان » وتعلو الفلاحات الساذجات فوق الكافة فينظرن الى الفارس لا الى الفرس ويقلن اذا ما تحدثن عنه « المادد اصبعه » .

أندرى الى ما تشير تلك اليد الباطشة القوية؟؟ إنها تشير إلى الموره وكريد وبلاد اليونان وقد أعجز الباب العالى إخضاعها فندب لها ابراهيم على رأس ١٦ ألف جندي دوخوها ودكوا حصن موسوليفي الحصين الى أن أخذت أساطيل الدول أسطوله بنيرانها من كل جانب وهو راس في فرضة نافرين

فوقف ابراهيم البطل البطاش والفاتح العظيم ينظر الى ذلك الأسطول الذى كان الثالث فى أساطيل البحر المتوسط يحترق بلا انذار ولا وعيد فدمعت عيناه ولم يفه إلا بكلمة وجهها لأحد رفاقه من الضباط الفرنسيين « أتشترك فرنسا بتحطيم الأسطول الذى بناه مهندسوها » وكان الأسطول مؤلفاً من ٦٣ سفينة حربية و ١٠٠ مراكب لنقل الجنود ثم صدر الى ابراهيم أمر أبيه بالعودة برجاله فعاد ولم تستهل سنة ١٨٢٥ ووصلت اليونان بعد عودته الى استقلالها بتألب الدول فى سنة ١٨٢٦

أندرى أن هذا البطل هو الذى صعد فى السودان إلى النيل الأبيض فسمى فى ذاك الحين باسمه كما سمي النيل الأزرق باسم أخيه اسمعيل وكما سميت بحيرة الاوغندا « الاسمعية » باسم ابن ابراهيم

وهل ندرى انه هو الذى أخضع بلاد العرب كلها : نجد — بعد أن شنت شمل الوهابيين — والحجاز واليمن وأعاد مفاتيح الكعبة لتركيا ؟

أندرى ونحن ننظر إلى تمثال هذا البطل المغوار والفاتح العظيم أنه تولى حكم مصر السفلى ولم يزد عمره على ١٧ سنة ليتمكن والده من السفر الى الحجاز فى سنة ١٨١٣ ، فأظهر من الحنكة والدراية ما كان مضرب المثل

أندرى أنه وهو فتى الالهاب كان يعامله أبوه وهو يعامل أباه النابغة معاملة النظير للنظير حتى خيل للسذج من رجال الدولة الذين يجهلون تاريخه انه ليس ابن محمد على بل هو ابن زوجه تنباه محمد على بعد وفاة ابنه طوسون الذى قاد قبل ابراهيم حملة الوهابيين ومات فى برنبال بالطاعون ولكن مؤرخ محمد على « ادوار جوين » رد هذه الفرية ودفعها فقال ان محمد على تزوج من ثيب غنية لما أظهره فى بلده من البطولة فرزق منها خمسة أولاد ذكور منهم ابراهيم وطوسون واسمعيل وكان مولد ابراهيم فى سنة ١٧٨٩ وقد وصف الذين زعموا

ذلك الزعم بالقحة والسماجة والباطل
حمل ابراهيم علم مصر عالياً من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٤٠ فما نكس
بيده مرة واحدة بل رفر ف هذا العلم بيده والنصر معقود بأهدابه في الجزر اليونانية
و بلاد اليونان والصرب وفي افريقيا والأناضول و بلاد العرب وسوريا
و اذا كان ابراهيم قد اشتهر بصلابته في القتال فانه قد اشتهر أيضاً بصلابته
في العدل بين الناس حتى بات الى اليوم مضرب المثل بالعدل في بلاد الشام التي
حكمها ثمانى سنين فلم يكن الحاكم العسكري فقط بل كان العسكري المصلح
الذى بقيت آثاره هناك الى اليوم ولا يزال الناس يتغنون بعدله الى الآن
ويضربون على ذلك الأمثال

وهذا ما حمل بعض الأدباء في لبنان الى مكتبة أصدقائهم هنا بأن تؤلف
لجنة من المصريين والسوريين لإقامة عيد السنة المئة لاستيلاء ابراهيم على بلاد
الشام من حدود صحراء سيناء حتى جبال طوروس و ابراهيم هو الذى نظر مع والده
الى وحدة هذه البلاد فلما تألبت عليه الدول وقررت أن تكون حدود مصر سيناء ،
رأى ابراهيم ورأى والده أن تتلقى العلوم فى المدارس المصرية العالية مجاناً طائفة
من أبناء تلك البلاد وأن يكتب على شهادتهم التى ينالونها ما يشعر بذلك
لتكون دليلاً على عطف مصر وإخائها وظل الحال على هذا المنوال إلى أن
كان الاحتلال الانكليزى فقطع هذه الصلة الروحية بعد أن قطعت الدول
الصلة المادية بإقامة الحدود التى محهاها ابراهيم بسيفه

كثرت أساطير الناس وأقاويلهم عن ابراهيم فاذا لم تكن تلك الأساطير
والأقاويل صحيحة فانها تدل فقط على اعتقاد الناس بحكمته وعدله فقد رووا انه
لما عزم محمد على على استئناف النضال فى بلاد الوهابيين بعد وفاة ابنه طوسون
الذى عقد هدنة مع زعيم الوهابيين ، جمع قواده ورجال الحكم والسلطة وبسط

لهم إرادته وبعد ذلك أمر ببسط إحدى الطنafs الكبيرة في الدار ووضع
في وسطها تفاحة وقال ان الذي يتناول التفاحة بيده ويقدمها لى دون أن يمس
السجادة أوليه قيادة الحملة فأخذ الحاضرون يتناولون الى التفاحة بلا جدوى الى
أن جاء دور ابراهيم وكان قصير القامة فلم يزد على انه تناول طرف الطنفسه بيده
وطواها الى أن وصل الى التفاحة فتناولها وأعطاها لأبيه فولاه قيادة الجيش
لا شك في أنهم يقولون ذلك ويتدعون كما ابتدعوا حكاية البيضة
وكريستوف كولب اذ ازدرى حساده بعمله أمام الملك فطلب منهم أن يوقفوا
بيضة على رأسها فلما أعجزهم الأمر تناول البيضة وكسر أحد رأسها فوقفت
ويروى أهل الشام عن عدله أن عجوزاً شكت إليه جندياً أكل تينها
اغتنصاباً فأتى بالجندي وسأله فأنكر فقال للمرأة وقال للجندي انى سأمر بيقربطنه
فاذا وجدت فيه بزر التين أكون قد أنصفتك منه والا فانى ألحقك به فارتضت
ووجد بزر التين بأمعاء الجندي — أسطورة عندهم على عدله —

قبل أن نتكلم عن فتح الشام والأناضول نحتاج مع القارىء الى استعراض
الحالة السياسية في ذاك العصر لنعرف كيف اندفع محمد على الى الفتح والسبب
الذى دفعه وماذا كانت مهمة ابراهيم في بلاد اليونان وبلاد العرب ولماذا
وكيف دكت تلك الأمبراطورية التى ألفها ابراهيم بسيفه ومحمد على بحكمته وقد
وصف المؤرخ «جوبن» محمد على بقوله «سلك مسلك الشعب أحياناً ، ومسلك
الأسد دائماً ، فألقى بالعثمانيين بأيدي المماليك وبالمماليك بأيدي الالبانيين وبهؤلاء
بأيدي المصريين وهدم أربعة ولاة دون أن يخشى الجلوس على أريكة مرعزة
حتى قالوا ان صعوده الى تلك الأريكة كان عملاً عظيماً جداً ولكن بقاءه على
تلك الأريكة كان أعجوبة»

كانت تركيا مريضة تحتضر ولم يكن يمنع الدول عن اقتسامها سوى اختلافهم على ذلك الاقتسام . وكانت مصر مطمح أنظار الفرنسيين فبعد أن أخرج الانكليز جيش نابوليون منها وفسخوا معاهدة « أميين » التي كانت تقرر الاحتفاظ بمصر كما هي . تطلعوا الى بسط حمايتهم عليها بواسطة المماليك الذين كانوا يحكمونها . وكانوا فيها حلفاء الانكليز الذين كانوا قد قدموا للباب العالي اقتراحاً باثبات هذه الحماية فأرسل الفرنسيون قنصلهم دي ليسيس الى مصر ليجت عن الرجل الذي يستطيع مقاومة الانكليز اذا هم حاولوا الاستيلاء على مصر فوجد ضالته بمحمد علي فبذل له كل مساعدة ووجد محمد علي بالعلماء أصحاب السيطرة أكبر عون فاختروه والياً وطردهم الولاة الثلاثة الذين عينهم الباب العالي لأن البلاد كانت قد ضجرت وملت حكم المماليك وأراد الانكليز احتلال البلاد فتمكن محمد علي من طردهم بعد احتلال الاسكندرية ستة أشهر وكانت تابعة للباب العالي فضمها محمد علي الى حكم البلاد

وعرف ان الانكليز هم أعداؤه السياسيون فحاول الاتفاق معهم ولكن حكومتهم فضلت اتباع سياسة هدمه على سياسة محالفته وظلت هذه السياسة سياستهم حتى النهاية واحتكر محمد علي الغلال فاستطاع أن يؤلف جيشاً وبنى اسطولا وأن يضع أمام عينيه امتلاك بلاد العرب وسوريا والعراق وتأليف امبراطورية عربية

لم يفاجئ محمد علي حكومة استامبول برغبته في أن يتولى حكم سوريا بل طلب ذلك من صارم بك رسول السلطان اليه كما طلبه من نجيب افندي الرسول الثاني ولكنه قرن الطلب بأن يكون حكم مصر وسوريا وراثياً وكانت حكومة السلطان تجعل الحكم في البلاد اقطاعياً فلا يهتمها الا أن يدفع الوالى المال فاذا تقدم آخر بالزيادة ولته وخلعت الذي تقدمه أما الحكم بالتوارث فلم تكن

تسلم به وبلغ ما عرضه محمد على على الباب العالى مقابل حكم سوريا ٦٠ ألف
كيس فى السنة (الكيس ٥٠٠ قرش) فعرض الباب العالى عليه حكم الموره
وكريد وقبرس وهو يعلم بضياعها وحكم بلاد العرب وهو يعلم انها عبء ثقیل
على حاكمها ولكى ينفذ محمد على خطته أخذ منذ سنة ١٨٢٥ يعد الأنصار
والأصدقاء فى بلاد الشام فتوسط لدى الباب العالى بأن يعين عبد الله باشا
الخازنه جى والياً على عكا وعكا هى مفتاح سوريا وقد ثبتت فى وجه نابوليون
ولم يستطع فتحها فارتد عنها واستعان القائد الفرنساوى بأمير لبنان بشير الثانى
فلم يعنه واحتاج عبد الله باشا الى المال ليدفعه للباب العالى فأمده محمد على
ثم وجه نظره الى الأمير بشير فأحكم به صلاته ونزل الأمير بضيافته
فى مصر فى حاشية كبيرة مدة ثلاثة أشهر وكان اتفقا بما تاماً ثم أوفد اليه
الأمير ابنه الأمير أميناً فظل فى مصر سنة وشهراً ولم يرجع الى لبنان الا قبل
قيام حملة ابراهيم باشا بأيام قليلة وجاء مصر أحد أكابر البلاد الشيخ على العماد
للغرض ذاته . وكان حنا البحرى المحصى هو الصلة بين أمراء سوريا ومحمد على
حتى صارت شؤون تلك البلاد شطراً من شؤون مصر فى نظر محمد على يتدخل
بها تدخلا فعلياً حتى انه هدد والى دمشق بارسال عشرة آلاف مقاتل بقيادة ابنه
طوسون اذا لم يتحول عن اضطهاد اللبنانيين الذين يدخلون بلاده فيسجنهم الى
أن يدفع أميرهم الفدية

ولم ير الباب العالى من وسيلة لصمد محمد على عن غرضه الا أن يحرص
لمقاومته عبد الله باشا والى عكا ففتح عبد الله باشا ذراعيه لجميع المصريين الفارين
من بلدهم لسبب من الأسباب حتى بلغ عددهم ستة آلاف شخص فكتب
محمد على الى عبد الله باشا أن يعيدهم الى وطنهم فأجابه جواباً جافاً وقال فيه ان
اللاؤه ستة آلاف هم رعايا السلطان وشأنهم هنا كشأنهم بمصر فان شئت

فاحضر لأخذهم فأجابه محمد على انى سأحضر لأخذ ستة آلاف وواحداً فوقهم
وأراد بهذه الكلمة أخذ عبد الله باشا ذاته وكان كتاب عبد الله باشا انذاراً
وكان جواب محمد على ردّاً على ذاك الانذار ولما قيل ان الأمير بشيراً هو حليف
محمد على وسيكون فى صفه كتب قنصل النمسا يقول لدولته « ان وجود الأمير
بشير فى صف محمد على لهو عبارة عن وجود سوريا فى قبضة مصر »

وغادرت طلائع الجيش المصرى مصر الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١
واحتلت الحملة البحرية المصرية يافا فى ٨ نوفمبر ووصل ابراهيم باشا قائد الحملة الى
حيفا فى ١٣ نوفمبر وضرب الجيش المصرى نطاق الحصار حول عكا فى ٨ ديسمبر .
وهكذا بدأ فتح الشام والاناضول

ولم تلق طلائع الحملة المصرية من العريش الى عكا مقاومة تستحق الذكر
بل لقيت فى بعض الأماكن كل المساعدة والتسهيلات



الفصل الأول

عدد الجيش المصري ، الأسطول ، حامية عكا ، الحصار

كانت الحملة المصرية التي وجهت إلى عكا وسوريا مؤلفة من ستة آليات
من المشاة وأربعة من الفرسان وسلاحها أربعون مدفع ميدان وأكثر منها



ابراهيم باشا

من مدافع الحصار وكان هذا الجيش المصري أول جيش شرق سار على النظام
الحديث حتى ان ابراهيم باشا ذاته تعلم في المدرسة النظامات العسكرية كأحد

الجنود . وقد بلغ عدد الجيش المصرى الذى نظم يومئذ على الطراز الحديث نحو
مئة ألف مقاتل وكان مع هذا الجيش عدد كبير من الفرسان العرب ورجال
القبائل المصرية

أما الأسطول الذى جرده المهندس الفرنساوى «سيرزى» ونظمه «بيسون»
بعد احتراق الأسطول فى فرضة نافارين فقد ركبته ابراهيم باشا من الاسكندرية
إلى يافا وكان أركان حرب الحملة مؤلفاً من عباس باشا حفيد محمد على ومن
ابراهيم باشا ابن أخيه ومن سليمان بك (الكولونل سيف) ومن احمد بك المانكلى
وكان هذا الأسطول مؤلفاً من خمس سفن كبيرة تتبعها السفن الصغيرة فى
مدى أربعة أيام . فلما رسا الأسطول قبالة يافا نزل وجهاًؤها وعرضوا على ابراهيم
تسليم المدينة وكانت حاميتها ٢٥٠ جندياً فأنزل بلو كاستلامها وأبقى المتسلم
حاكماً عليها وجاءته حامية غزة مسلمة واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧
مدفعاً مع الذخائر وأخذ بعض رجال البحر من أهل يافا لارشاد الأسطول فى مياه
عكا ووصل إليه وهو فى يافا ان أهل الشام قتلوا رجال الحكم من الترك واختاروا
خمس منهم لادارة الأعمال إلى أن يصل إليهم ابراهيم «سر عسكر» الجيش
العربى كما كان يلقب نفسه ويوقع أوامره ورسائله إلى أهل تلك البلاد
ولما ضرب الجيش البرى النطاق حول عكا قام الأسطول بحصرها بجرأ
وقوامه خمس سفن كبيرة وعدة فرقاطات كانت صغيرة وكانت جملة الجيش
ومجموعه ٢٤ ألف مقاتل .

أما حامية عكا فكان عددها ستة آلاف مقاتل من الرجال الأشداء
يقودهم بعض الضباط المهندسين من الأوروبيين وكان سور المدينة منيعاً وسلاحها
من أقوى الأسلحة . وبعد أن أحكم ابراهيم باشا النطاق حول المدينة براً وبحراً
أخذ فى ١٠ و ٩ ديسمبر يرميها بالقنابل من كل جهة ولم تكن تلك القنابل يومئذ

سوى قنابل من كتل الحديد والفولاذ المستديرة لا تنفجر بل تدك وتهدم وكثير منها لا يزال موجوداً إلى الآن في ميادين القتال التي قاتل فيها ابراهيم باشا وقد استخدمه الأهالي لرص الطرقات واستمر ضرب المدينة براً وبحراً من الفجر إلى المساء فألقى عليها في يوم واحد عشرة آلاف كرة وثلاثة آلاف قنبلة وقد



سبرزي بك مؤسس البحرية المصرية

رووا ان فرقاطة واحدة مصرية ألقت ٣٧٠٠ قنبلة ، أما حامية عكافانها كانت تقتصد بالذخائر كل الاقتصاد لعلمها بأن المدد قد لا يصل إليها سريعاً من البر أو من البحر لا كما كان أمرها يوم حاصرها نابليون قبل حصار ابراهيم بنحو اثنين وثلاثين سنة لأن الانكليز كانوا يومئذ يمدونها بالذخائر من البحر

وأصيب بعض سفن الأسطول المصري فعاد إلى الاسكندرية لاصلاح ما حل به من التلف. وفي ١٩ ديسمبر نصب جيش ابراهيم مدافع الحصار وأخذ باطلاقها على المدينة التي ظلت على المقاومة حتى آخر يناير وحينئذ تبين لابراهيم باشا أن الحصار طويل فأرسل إلى الأمير بشير الثاني الشهابي الذي قلنا انه جاء مصر ونزل في ضيافة محمد علي ليوافيه إلى عكا فتأخر قليلاً لأن والي حلب - وكان وزيراً كبيراً - طلب منه مقاومة ابراهيم باشا ورده عن سوريا « فان لم يفعل يدك لبنان دكا ويبيد سكانه ». ولما تأخر الأمير بشير عن المجيء إلى عكا كتب ابراهيم إلى والده عن تأخره فكتب محمد علي إلى الأمير كتاباً يلومه فيه على تأخره ويهدده بأنه « إذا خالف عهده معه ووعدده له يخرب مساكنه ويزرع في أرضها تيناً »

وقبل وصول كتاب محمد علي إلى الأمير بشير كان هذا قد ركب من مركزه ببلبنان بمئة فارس إلى عكا وقبل أن يصل إليها التقى برسول محمد علي ومعه ذلك الكتاب فواصل سيره حتى وصل إلى سهل عكا فخرج ابراهيم باشا بأركان حربه و بشرذمة من جيشه لمقابلته وأمر باطلاق المدافع تحية له فدخل معسكر ابراهيم بموكب عظيم وكتب ابراهيم باشا إلى والده خبر وصول الأمير قبل أن يتلقى كتابه . فكتب إليه محمد علي يمتدح صدقه وإخلاصه . وحدث ابان ذلك ان عبد الله باشا رفع الأعلام البيضاء فوق أسوار عكا دلالة على التسليم فأرسل إليه ابراهيم باشا رسله وبينما كانوا يتفاوضون بشروط الصلح قطع عبد الله باشا المفاوضات وعاد إلى القتال لانه تلقى من السلطان كتاباً بأن المدد واصل إليه على جناح السرعة لأن الأوامر كانت قد صدرت إلى الولاية بجمع الجنود لقتال ابراهيم باشا ورده عن عكا . فعقد قطع المفاوضات عاد ابراهيم إلى ضرب القلعة وحينئذ أرسل الأمير بشير إلى ولده الأمير خليل بأن يحضر

إلى عكا فحضر وتلقى منه الأمر بجمع الرجال اللبنانيين وأرسل محمد علي إلى
ابراهيم بأن يعطى الأمير بشيراً أيلة صيدا وأن يجعل في يده تصريف أمور
المسلمين وأصحاب المقاطعات وأرسل ابراهيم باشا الأمير خليلاً بألف مقاتل لبناني
إلى طرابلس ليقطع الطريق على محمد علي باشا سر عسكر السلطان الذي كان قد



الأمير بشير الشهابي أمير لبنان

وصل إلى حمص وفي الوقت ذاته وصل القائد التركي عثمان باشا إلى اللاذقية
معيّناً على طرابلس ومعه خمسة آلاف مقاتل فقبض الأمير خليل على بعض
مراسلاته مع مشايخ البلاد وأرسلها إلى والده في عكا فأمر الأمير بشير ولده
أميناً بجمع الرجال وأرسل إلى « زحلة » الأمير قاسماً لجمع المؤن لجيش ابراهيم

باشا ومعه ألفا لبناني وفي أثناء ذلك أرسل ابراهيم باشا أربعة آلاف رجل إلى طرابلس مدداً للأمر خليل ولكن عثمان كان قد وصل من اللاذقية قبل وصول المدد فقاتله الأمير خليل حتى كسره وقبض على القاضي والمفتي اللذين كانا يرسلانه ليسلماه المدينة وقصد ابراهيم باشا ذاته إلى طرابلس فعند وصوله إلى البترون وهي على مسيرة ساعتين من طرابلس فرعثان باشا ومن معه إلى جهة حمص فصمم ابراهيم باشا على اقتفاء أثره إلى هناك ، والتقى جيشه برجال والى الدين ووالى قيسارية وعثمان باشا فدحرمهم وغنم مامعهم

أما عكا فلما ظلت ثابتة على المقاومة وأضر المطر والبرد بالجيش المصرى اضراراً شديداً ورأى ابراهيم باشا أن يكتفى بالحصار فاستدعى إليه من الاسكندرية الكولونل « رومى » الطليانى لأنه اشتهر فى حصار قلعة موسوليفى فى بلاد اليونان فوصل مع رفيقه كارتو وهو كورسيكى والبرتيني وهو إيطالى إلى معسكر عكا فى ٢ فبراير فغيروا شكل الحصار والضرب .

وفى ٣ مارس بدأوا بضرب القلاع على الطريقة الجديدة واستمروا على ذلك عشرة أيام كاملة إلى أن دكوا البرج الذى يحمى باب المدينة واندك معه جانب من السور فردم الخندق وهجم المصريون من تلك الفتحة التى فتحتها المدافع ولكنهم اصطدموا بجيش عبد الله باشا ولم تكن الفتحة تتسع لأكثر من ثلاثين رجلا وكان عبد الله باشا قد نصب فى تلك الفتحة ذاتها مدفعين فاستولى عليهما المصريون برؤوس الحراب

ولما دخل الجنود المصريون المدينة أخذ جنود عبد الله باشا يلهبون ألغام البارود المبعثرة فى الأرض وتتناولهم نيران البنادق من المنازل فخشى القواد سوء العاقبة فأمروا الجنود بالارتداد وهكذا حبط هجوم ٩ مارس ١٨٣٢

ولكن هذا الهجوم دل على أن المدينة باتت فى حالة الاحتضار لأن

الحامية نقصت ولم يبق منها للقتال سوى ٩٠٠ مقاتل ولأن الأمراض تفشت فيها وقلت اللحوم والبقول

أما الباب العالي فانه لم يفعل شيئاً لامداد عكالا أن رجاله كانوا منصرفين إلى التحاسد أكثر من انصرافهم إلى التعاون ولأن صدمتهم في طرابلس وحمص أوهنت قواهم وفرقت شملهم

ولما اجتمع قناصل الدول عند محمد على لتهنئته بعيد الفطر في ٤ مارس حدثهم وحدثوه بأمر الحملة على عكالا فقال لهم محمد على « أين هي جيوش جلالة السلطان ؟ وأين هم قواده العظام ؟ أهو باشا حلب الذي كان منذ عهد قريب باش قواص ؟ لا . . أنه يحسن بالباب العالي أن يعمل حسابه قبل أن يهجم على جيشي »

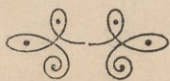
وكان من عادة الباب العالي أن يصدر في كل سنة يوم عيد الفطر التوجيهات أو جدول باشاوات السلطنة وأصحاب الرتب والولايات فصدرت التوجيهات في تلك السنة وليس فيها اسم محمد على وابنه ابراهيم فلم يدل ذلك لا على غضب السلطان فقط بل على عزمه على تأديبهما — كما كان يفهم دائماً من هذا العمل . . .

واليك ماجاء في مقدمة التوجيهات « رأينا ألا تقطع بتوجيه ولايات مصر وجده وكريد حتى يصل إلى بابنا العالي جواب محمد على باشا على ما أرسلنا اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التي سار عليها هو وإبراهيم ولده أوردجوعه إلى حد التأديب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله »

أما من الوجهة العسكرية فالذي يصح قوله أن إبراهيم أدرك عند ظهور عثمان باشا أمام طرابلس وظهور قواد آخرين بين حلب وحمص أن القواد الأتراك

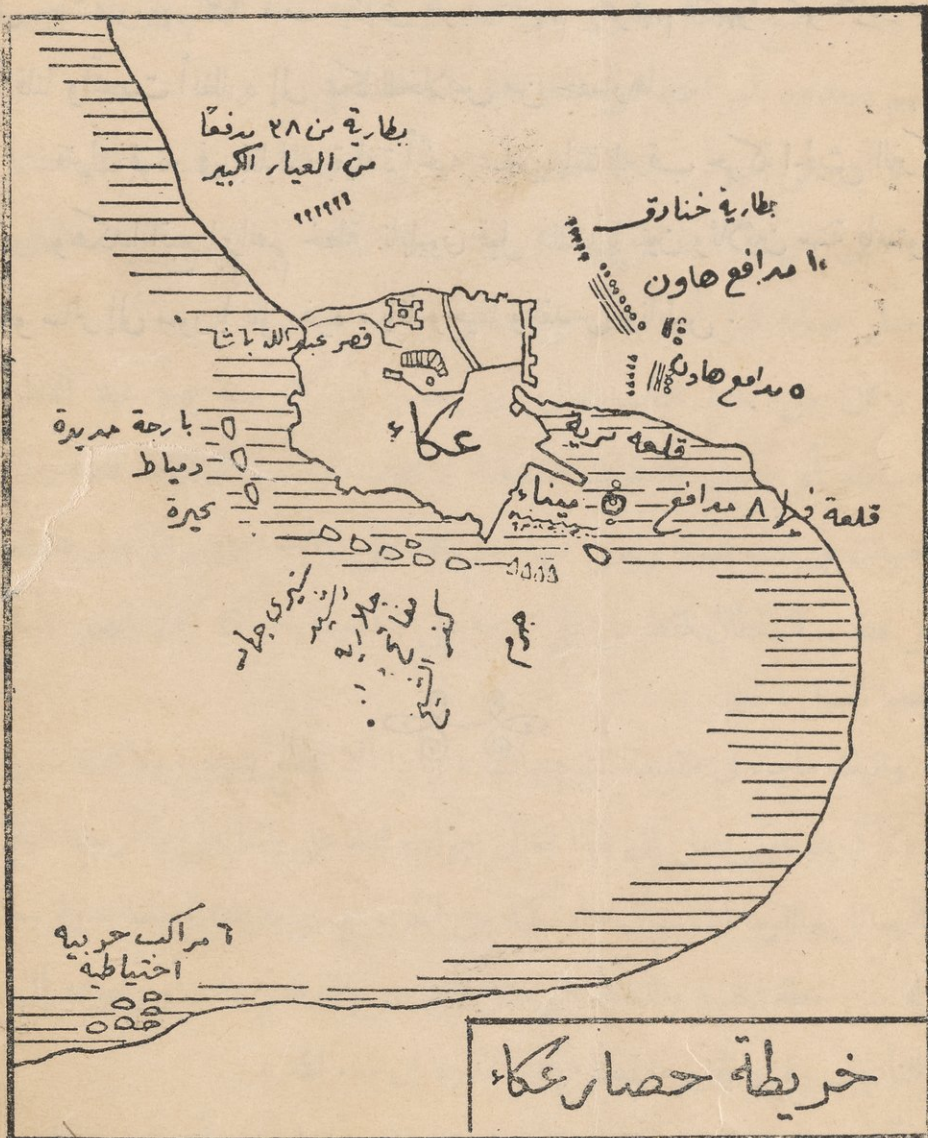
يجمعون قواتهم ليهاجموه وبدلاً من أن يكون حاصراً عدوه يصير محصوراً فأبقى
أمام عكا الألبان وصار بعشرة آلاف جندي لمقاتلة قواد السلطان و وكل إلى
الأمير بشير وابنه أمين حراسة خطوط المواصلات وجمع المؤن في رحلة و بعلمك
والرياق ولما وصل إبراهيم باشا إلى القصير خرج أعيان حمص لمقابلته وتهنئته
ثم عاد إبراهيم باشا إلى بعلمك وزحلة فظن عثمان باشا ورفاقه أنه تقهر فقصدوا
إلى جيشه ومعهم ١٢ ألف جندي فارتد عليهم وفرقهم فاتجهوا نحو حماه على
ما قلنا واتجهت أنظاره إلى عكا للخلاص من حصارها .

فترك قوته في بعلمك بقيادة أخيه عباس باشا ليرقب حركة الجيش التركي
وهكذا اتبع إبراهيم خطة نابليون قبل ذلك باثنين وثلاثين سنة فاستولى
وهو سائر إلى سوريا على غزه ويافا وحيفا والقدس ونابلس .



الفصل الثاني

فتح عكا بعد مصاد ستة أشهر ، فرار الباب العالي بخلع محمد علي باشا ،
تعيين حسين باشا ماكا علي مصر ، الجيش المصري في سوريا



خريطة تبين مواقع القوات البرية والبحرية أثناء حصار عكا

في ٢٧ مايو بدأ هجوم المصريين عند الفجر على قلعة عكا من ثلاث جهات وظل هذا الهجوم متوالياً حتى الظهر ثم أوقف خوفاً من الانهزام لأن أرض المدينة كانت ملغمة كما أنبا الأسرى وكان إبراهيم مصلاً سيفه في مقدمة جيشه فبعد الكر والفر والتقدم والتقهقر توصل إبراهيم بالآية لاحتلال أحد خانات المدينة وامتنع فيه وأخذت جنوده وما تلقته تلك الجنود من الامداد تتسرب إلى جوف المدينة من جهاتها الأربع وظهر العجز والملل على الحامية وظهر الضجر والسآمة والقنوط على السكان فأرسلوا إلى عبد الله باشا بأن أوان التسليم قد حل وأرسلوا إلى إبراهيم باشا وفداً يطلبون منه العفو فأجابهم إبراهيم باشا أنه لا يمس أحداً بسوء إذا ألقى عبد الله باشا والحامية والأهالي سلاحهم في الحال وخشى عبد الله باشا أن تفتك الحامية والأهالي به إذا حاول الفرار فمكث في داره حتى صباح اليوم التالي إلى أن أرسل إبراهيم باشا حرساً يحرسه في محيطه إليه فربط عبد الله باشا وربط الكرخيا منديلاً في عنقه دلالة على الاستسلام والخضوع ولما دخل عبد الله باشا على إبراهيم انحنى إلى الأرض فتناوله إبراهيم باشا في الحال بكلمات يدينه وقال له « أنا وأنت متساويان فذنبك إلى لا يغتفر ولكنك تجرأت على محمد علي وهو أكبر حلاًماً » فرد عبد الله باشا بقوله « هذا حكم القدر » وجامل إبراهيم خصمه كثيراً حتى أزال وحشته ، وبعد تناول العشاء معه هم عبد الله باشا بالانصراف إلى غرفة النوم التي أعدت له في منزل إبراهيم فقال إبراهيم « إنك يا عبد الله باشا ستنام الليلة مرتاحاً » فأجابه عبد الله « كراحتي في كل ليلة مضت » ثم التفت إلى إبراهيم وقال له « لاتعاملني يا باشا معاملة الحريم فان دفاعي يبرهن لك على الضد وكل خاطئي اني اعتمدت على الباب العالي الذي لا يزيد شرفه في نظري على شرف المومس ، ولو أني عرفت

ذلك لا اتخذت الحيلة ولما كنت اليوم ملقياً بين يديك «
وفي رسالة قنصل فرنسا بكريد إلى حكومته أن عبد الله قال له وهو مار
بتلك الجزيرة في شهر يناير بعد إطلاق سراحه « كان لدى للدفاع عن عكا جدرانها
وأسوارها والرجال والمال ولما استولى عليها إبراهيم باشا كانت أسوارها قد
تهدمت ورجالها قد بادت وقد قتل ٥٦٠٠ من ستة آلاف ولم يبق معي من
المال سوى بعض الحلى »



محمد بك الأرنؤوطي ناظر الجهادية وجه عزيز عزت باشا

وأحصى ما ألقته المدافع على عكا من القنابل الكروية والاسطوانية فاذ
هو ٥٠ ألف قنبلة كبيرة و ١٨٠ ألف قنبلة من القنابل الصغيرة . ولما سلم عبد الله
وأقبل الناس على إبراهيم باشا يهنئونه قال في جمع عظيم « إني سأذهب في

فتوحاتي إلى حيث تنتهي البلاد التي يتكلم أهلها العربية « لذلك كان يلقب جيشه بالجيش العربي »

أما عبد الله باشا فانه من الولاة الاشداء الممتازين . طمع في سنة ١٨٢٢ بأن يضم دمشق إلى البلاد التي يتولى أمرها فاتفق الولاة على مقاتلته خوفاً من امتداد سلطانه واضطر أن يرجع إلى عكا للدفاع عنها لأن أعداءه حصروها وكان يخشى أن يحصرها الباب العالي بحراً فوسط محمد علي باشا لدى الباب العالي فنال ما طلب على شرط أن يدفع ٦٠ ألف كيس (الكيس ٥٠٠ قرش) فأقرضه محمد علي قسماً من هذا المال ولكنه لم يشأ دفع القرض وجعل عكا ملجأً للفارين من مصر . وفي ٣٠ مايو سافر عبد الله باشا والكخيا إلى مصر على سفينة حربية مصرية فوصلت بهما إلى الاسكندرية في ٢ يونيو وعند وصولهما أطلقت المدافع فأرسل محمد علي قواصاً إلى عبد الله باشا ليلبغه أن محمد علي في انتظاره في الديوان فلما دخل مر بين صفين من القواصة بقيادة أحد الضباط ودخل الديوان فاذا بمحمد علي واقف ينتظره فأنحنى أمامه طالباً العفو والغفران فصالحه محمد علي وطمنه ثم جلس وأجلسه الى جانبه وأمر بأن تقدم له القهوة والشبق وكان الجمهور حاشداً لرؤية عبد الله باشا فأمر محمد علي ذلك الجمهور بالانصراف واختلى بأسيره ثم صرفه الى دار الضيافة التي مكث فيها الى أن أطلق سراحه وسافر الى الاستانة في أوائل شهر يناير

ولما وصل البريد بنجر فتح عكا أمر محمد علي باشا بأن تطلق المدافع من جميع القلاع والحصون بالمدن والبنادر ثلاث دفعات في اليوم مدة ثلاثة أيام اعلاناً للفرح والسرور ولاعلان البشرى في انحاء البلاد .

ثم صدر العفو عن المسجونين والمنفيين ما عدا القتال وقاطع الطريق اجابة لابراهيم باشا وكان السجن والمنفى في مدينة رشيد

وأمر محمد علي باشا بعمل وسام مكتوب عليه اسم « محمد علي » بحجر البرلنتي
لارساله الى ابراهيم باشا تذكاراً لانتصاره
وبلغت خسارة المصريين ١٤٢٩ جريحا و ٥١٢ قتيل
ونظم الشيخ شهاب الدين تاريخ فتح عكا في البيتين الآتين وقد نشر
في ختام تقرير ابراهيم باشا في الوقائع المصرية وهما



عباس باشا مفيد محمد علي وقومندان القوات المصرية
في زعمه والبقاع وبعليك

لقد نصر المليك عزيز مصر وبلغه المنى عزاً وملكاً
فنادته العلا ان طب وارخ بمجد العز تفتح الف عكا

وبعد سقوط عكا وصل عباس باشا ابن طوسون باشا بامداد كبيرة من
العسكر والعربان فأرسله ابراهيم باشا لضبط الثغور كصيدا ويروت وأرسل
الرسائل الى أهالى البلاد ليطردوا العساكر العثمانية من بلادهم ووجه الى متسلم
القدس والمفتى وقاضى القضاة الرسالة الآتية :

« تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية
التي تحج إليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكنا إلينا هؤلاء مما
يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقيق لدينهم فضلاً عما أنتم
فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة غير ناظرين إلا الى ارضاء أنفسكم
والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدينية والأفعال الرديئة لا ترضاهم النفوس
الأيية ولا يصح السكوت عليها ، ولذلك أنبأكم وأحذركم من عاقبة التعرض
لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل
ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطاً كانوا أو روماً أو أرمنا فى دينهم
ودنياهم ولا تمنعوه من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر
الشرعية شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا
تلزموهم الصغار بدفع المال فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم وإن خالفتم أسأتم إليها
والسلام عليكم ورحمة الله »

تقرير ابراهيم باشا

نشرت الوقائع المصرية فى ١١ محرم سنة ١٢٤٨ ماخص التقرير الوارد من
ابراهيم باشا عن معارك عكا وفتحها قال فيه « انه كلف احمد بك أمير اللواء
ومعه مختار أغا البكباشى من الآلاى الثانى بالهجوم على الباب بطرف القلعة

وأن يذهب اسماعيل بك ميرالاي اللواء الثانى ومعه الاورطة الثانية إلى باب
البرج الذى يصير عليه الهجوم وأن يذهب إلى الزاوية اللواء عمر بك ومعه
الأورطة الثالثة وإلى برج الكريم عسكر الاورطة الأولى وأن يكونوا مستعدين
لتساق الأسوار ومعهم السلام فيبدأ الهجوم بعد مرور تسع ساعات وربع من
الليل بمجرد سماع إطلاق ثلاث قنابل وجعلنا أحمد يكن باشا مأموراً على محل
الهجوم وتوجهت الى طابية المدافع خلف عسكر المحاربين على رأس الزاوية ووقفت
الأورطة الرابعة مع يكن باشا قبالة البرج ووراءها الامداد لان فى البرج مستودع
عبد الله باشا ، وكان التصميم أن نرسل عسكراً إلى الوكالة الواقعة على البحر ولكن
قبل الهجوم بليلة واحدة قرر الذين فروا من القلعة أن تحت تلك الوكالة أربعة
ألغام فعدلنا عن إرسال القوة ، و بعد أن وصف الهجوم قال «إن الكلام لا يتسع
لوصف الشجاعة الفائقة التى أبداه الجنود وإذا أخذنا بالأصول الحربية حكمنا
بان استبسالهم كان فوق ما يمكن تقديره ولكن الأورطة التى تسلفت برج
الكريم كانت خسارتها كبيرة لجهل قائدها لأنه لم يدعهم يهجمون على جميع
أنحاء المكان عند إعطاء الإشارة ، واهاجمون على الزاوية تسلقوا السور بكل
سرعة . وعند وصولهم إلى الخندق أطلقوا البنادق ثم صعدوا منه إلى الجهات
الأخرى ولحق بهم بقية العسكر حتى برج الخزينة الذى انقطع سوره ، ولما وصلوا
إلى باب البرج استل عبد الله باشا سيفه وهجم على عسكرنا فردوه إلى طرف الخندق ،
ولما رأينا هذا الارتداد هجمت القوة التى معى على طابية المدافع ثم ارتدوا ثلاثين
أو أربعين خطوة فسالت سيفي أنا واحمد بك أميرالاي الفرسان ومشيت نحوهم
نردهم إلى الامام ولكنهم كانوا يمشون تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال ، وحينئذ
أمرت أحد الجاويشية بأن يأخذ العلم من حامله فأبى البيرقدار تسليم العلم .

فتقدم جاويش آخر لأخذه منه ، فامتنع عن تسليمه . ثم تقدم وفي دقيقة واحدة فعل عسكرنا العجب وتواري عسكر العدو وأخذوا يتراشقون بالحجارة ولم يستطع العدو أن يرجع إلى مكانه الأول وقل الذين نجوا منه . وحينئذ رفع عسكرنا بيرقهم وهجموا على البرج الصغير وصعد الأنفار بسرعة وأخذوا يقاتلون دون ضباطهم فشتتوا العدو وارتمت بقاياها في الخندق ، ولحماية الرجال أمرت ببناء متراس ، واستل ثلاثة من الجاويشية سيوفهم ثم رأيتهم يرمون الرصاص أمامي وسيوفهم مكسرة وفي الساعة الحادية عشرة وقف إطلاق الرصاص وأرسلت ضابطاً إلى الباب فوجده مفتوحاً فوقف لضبط الوكالة وحصرها وأمرت بجمع الجرحى من الفرسان إذ رأيتهم مرتمين في الأرض مستلين سيوفهم عند صعودهم القلعة ، وبعد ذلك حضر أناس لطلب الأمن والأمان »

خلاصة تقرير يكن باشا

« كان الهجوم يوم الأحد قبل طلوع الشمس على قلعة عكا فصعد المرحوم اسماعيل بك قائد الألاي الثاني مع أورطته الثانية وأحمد بك قائد اللواء مع الأورطة الأولى إلى برج الباب من الطرف الأيمن ونصبوا يارقهم على البرج فهجم عليهم العدو فردوه إلى الخندق ورددت أنا الأورطة الرابعة إلى وراء حذراً من الألغام في البرج . وقد رأيت أن أفندينا السر عسكر مضابق للأعداء كل المضايقة من طرف الزاوية وان العدو موجه كل قوته إلى تلك الجهة فأمرت الجنود بالهجوم على العدو للتخفيف عن قوة السر عسكر فاستولى رجاله على البرج ثم اتجهوا إلى اليمين لإقامة المتراس وضبطوا من البرج مدفعاً وأخذوا يلقون ناره على داخل القلعة وتوفي الميرالاي اسماعيل بك بعد ساعة من إقامة المتراس وهجم علينا الأعداء ثلاث مرات ولم يظفروا بطائل ، وفي الساعة العاشرة دخلت الأورطة

الأولى التي أرسلها سر عسكر بين البرج الذي ييذى والبرج المسمى ببرج
الانكليز ثم دخلت الوكالة واستوليت عليها فنشر فوق الوكالة يبرق طلب



ابراهيم باشا دافتر عطا راجه على رأس جيشه

الأمان ، وبعد أن استمد الأعداء الأمن والأمان انقطع اطلاق البنادق
وحضر للتسليم والاستسلام جماعة من معلمي الطوبجية ومفتي البلدة وامام عبد الله

باشا طالبين من مراحم السر عسكر الأمان فتمنحهم به وعفا عن جميع ما يملكون وأمر برفع السلاح عنهم ، وبما أنه أعطى عبد الله باشا الأمان أيضا فانه أرسل اليه بعد الغروب اللواء سليم بك ، وفي الساعة الخامسة وصل الباشا المشار اليه مع كتحدها الى محل حضرة السر عسكر فقبل بمقابلة الوزير ونال الالتفات والعطف ، وفي الساعة السادسة توجه سعادة السر عسكر مع عبد الله باشا ومعهما كتحدها باشا الى القصر خارج القلعة وأقاموا تلك الليلة وبما أن العساكر دخلوا القلعة بالحرب فقد امتدت أيدي بعضهم الى بعض الأشياء وإنما صدر اليهم الأمر في اليوم الثاني بأن يردوا كل شيء الى صاحبه فردت تلك الأشياء جميعا وطلب عبد الله باشا التوجه الى مصر في يوم الثلاثاء ٢٨ ذى الحجة فأرسله سعادة السر عسكر الى حيفا مع اللواء سليم بك ومن هناك توجه بحرا في السفينة المسماة بشيرى جهاد من سفن الأسطول المصرى »

بعد وصول عبد الله باشا والى عكا إلى الاسكندرية ونزوله في ضيافة محمد على بدار الضيافة وصل أتباعه وهم جمهور كبير فأمر محمد على باكرامهم وبانزالهم في ضيافة حكومته المصرية

وكانت خزانة عبد الله باشا قد وصلت على السفينة التي ركبها من حيفا إلى الاسكندرية فأمر محمد على بالأتمس وبالألا تدخل داراً من دوره وأن ترسل مقفلة إلى عبد الله باشا وكان في تلك الخزانة حليه وجواهره ، والحلى والجواهر هي كنوز العظماء في ذاك الحين

وكان بيد عبد الله باشا وصل على أحد اليونان قسطنطين انجلو من مدينة صور بمبلغ مائتي ألف فرنك ليقدّم له به المؤن والذخائر فأرسله إلى محمد على باشا باعتبار أنه ملك الدولة الفاتحة فأمر بأن تدفع له قيمته . أما برج الخزانة — الذي

أشرفنا إليه — فانهم وجدوا فيه نصف مليون قرش تركت أيضاً لعبد الله باشا

— قبل أن يفتح إبراهيم باشا عكا أعد للنصر معداته لا بتأليف جيش ضخم على أحدث الطرق الحربية والأنظمة العسكرية ولا بإنشاء أسطول قوى . بل بمحاربة زعماء سوريا وأمير لبنان فعاهده مشايخ نابلس على المال والروح وجمع الأمير بشير الثاني ٣٥ ألف رجل ضبطوا أنحاء البلاد وانصرفوا لجمع المؤن وكانت الفتن قائمة يومئذ في الأناضول والباليا والبلقان فاتهم بها الباب العالي محمد علي ولما لم يلق رسل السلطان إلى محمد علي كضارم افندى ونجيب افندى ما يشفى غلة الباب العالي توسط قنصل انكلترا في بيروت لدى إبراهيم باشا ولكن بلا جدوى ولما كان ٢٣ ابريل ١٨٣٢ أمر السلطان محمود بعقد المجلس الشرعى لأنه لم يبق أمامه سوى السلاح الدينى الذى أجاب عليه محمد علي فى جمع من قناصل الدول بقوله : « هل يسمح السلطان لنفسه أن يحارب بنى باسم الدين وأنا أحق منه بمهبط الدين والوحى لأنى أنقذت الحرمين الشريفين وأعدت للدين سلطانه وأنا الآن أحكم مكة المكرمة والمدينة المنورة »

انعقد المجلس الشرعى فى استامبول وهو مؤلف من ثلاثة مفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنى عشر قاضياً من قضاة المحاكم وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية ومن إمامى جامع أيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمعوا وجه إليهم السؤال الآتى للإجابة عليه

س — ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ؟ ؟

ج — قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة

س — ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة

خليفته وسلطانته الذي أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرًا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للمسلمين ولا عمل بسنة سيد المرسلين

ج — يجرد من سائر رتبة ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يحل به القصاص ويأق لوحوش البرية أو إلى طيور الفلا وهذا جزاؤه في الدنيا وفي الآخرة الخزي والنار الآكلة

س — هل يكون الخليفة مسؤولاً أم ذلك المارق أمام الله والناس

ج — لا جناح على الخليفة ولا تثريب فانه قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف

ثم أصدر أولئك المشايخ الحكم الآتي :

« حيث ثبت خروج محمد علي وولده ابراهيم عن طاعة ساطانها فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوها بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف .

أولاً — تجريد محمد علي وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة الساطان »

صدر ذلك الحكم فحمله إلى محمد علي قومندان إحدى السفن الانكليزية فلم يعبأ به وأخذ مشايخ العلم في مصر وسواها يهزأون بالفتوى والحكم

وكان جماعة من كبار الاجانب مجتمعين عند محمد علي يوم شاع أن القيصر نقولا قد جن على ما روت الجرائد فقال أحد الكبراء من الأجانب لقد سمعنا

أن القيصر قد جن فأجاب محمد على أن ذلك ليس غريباً ومهما بلغ جنونه فإن جنون متبوعى السلطان لا كبر فهو الآن يدعو محمد على إلى المثل بين يديه بحجة التعاقد معه على ما فيه المصلحة ونسى كل ما فعله ثم قهقهه ضاحكاً حتى استلقى على ظهره من الضحك ، ومن خلق محمد على أنه كان صريحاً فى القول



ضابط وعساكر نظامية فى جيش محمد على

لا يكاد يكتفى شيئاً . ولم يكتف السلطان باستصدار تلك الفتوى والحكم بل أصدر فرماناً بتولية حسين باشا سر عسكر الدولة أى القائد العام حكم مصر وكريد وبلاد الحبشة . وإليك ما جاء فى ذلك فرمان :

« من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية

إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا . . . الخ
الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية ديار مصر والحبشة وجزيرة
كريد وما يتعلق بها

« لا يخفى على من تهمة أخبار دولتنا العلية وما هي عليه مملكتنا العثمانية
الشاهانية أن محمد علي باشا والي الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فرداً من
أفراد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالي وما زال
حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالی فنظرنا إليه بما جبلنا عليه
من كرم الطباع وعاملناه بالرفق والتودد والاختصاص وكنا نظن أنه يقف عند
حد الشكران ولا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا
بالصدق ولكنه أطاع هواه وداخله الغرور والكبرياء . . . وجاهر بمعاداه
حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن وقد أقلق
راحة أهالي البانيا والروملی الشرق بشن الغارة على بلادهم وكثيراً ما ألح على
مصطفى باشا بواسطة جلال بك وقالوا مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرّاً وطالما
منه بالمال والرجال على أنه لم تخف عنا خافية وكثيراً ما دس إلى عبد الله باشا
والى عكا المخلص في طاعتنا ف وقعت بينهما الحرب وجاء ابراهيم بن محمد على
في عسكر جرار إلى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق فاستولى عليهما والى عكا
فحاصرها فلم نعجل بمؤاخذته وقد حم القضاء فلم يبق من باعث على التهاون
والاغفاء ومع ذلك نغفو عن يأتى إلى بابنا سواء كان هو وولده أو أرباب
المناصب والعساكر

وقد أصدرنا فرماننا هذا بتوجيه ولاية مصر وكريد وبلاد الحبشة وما
يتبعها إليك ورسمنا منا بنزعها من أيدي أولئك المارقين فعليك أن تسير
بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتزع تلك البلاد من أيديهم

واذكر شفقتي ولا تنس عفوي عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله ورسوله وطاعة
خليفته »

وقد أذيع أن السلطان جند ٦٠ ألفاً ولكن محمد علي كان يعرف أن
الجيش الذي يستطيع السلطان الاعتماد عليه لا يتجاوز ٢٥ ألفاً وأن الأسطول



القائم سليمان باشا الفرنسوي

العثماني مزعزع الاركان لا يستطيع الانتقال من جزيرة إلى أخرى ومع ذلك
عزز قواته وأنشأ خمس سفن جديدة ضخمة سلاح كل واحدة منها مئة مدفع
وأُنزل الاولى إلى البحر يوم فتح عكا وكان الاحتفال بذلك كبيراً في ميناء
الاسكندرية

وكتب قنصل النمسا إلى دولته « أنه باتت أمام محمد علي بعد فتح عكا خطتان : الاولى أن يستولى على سوريا كلها أى ولايات عكا ودمشق وطرابلس وحلب وأن يقف في حلب باعتبارها آخر حدود سوريا . والثانية التقدم فى الاناضول بأثارة ولايتها وإيصال الاضطراب والقلق إلى الاستانة والثانية واسعة النطاق شديدة الخطر لأنها قد تفضى بتدخل الدول وهذا ما يخشاه ولذلك يفضل الخطة الاولى »

وإلى الثانية كان يميل ابراهيم ولم يختلف الاب والابن على الغرض والغاية ولكنهما اختلفا على الوسيلة ، ومما قاله هذا القنصل « ان مذكرة واحدة أو إنذار واحد من انكسرتا تعيد محمد علي ادراجه »

وكتب المستر باركر قنصل انكسرتا فى الاسكندرية إلى حكومته أن محمد علي يرضى بعد فتح عكا بولاية عكا وطرابلس ولكن فتوى المجلس الشرعى وفرمان السلطان حسين باشا السر عسكر أثارا سخطه فأصدر أمراً بتعيين شريف باشا والياً على دمشق وقد جاء فى أمر تعيينه مايتأتى :

« إنه بالنظر إلى استحسان ولدنا سر عسكر باشا صدر أمرنا إلى قوله لى محمد شريف باشا الكتخدا حكمداراً مستقلاً لايالة عربستان الشاسعة الماحقة بالحكومة المصرية وموافقة ماراه ابننا المشار إليه نرى حضوره إليه على وجه السرعة بمفرده لتوجيهه للجهة المذكورة بحراً ثم ارسال أمتعته براً »

X وورد على محمد علي من أنحاء سوريا أن الاهالى ينضمون إلى جيش ابراهيم ويقدمون طاعتهم لحكومة مصر ليخلصوا من حكومة الباب العالى الجائرة الخربة إلى حكومة مصلحة معمرة وأن عرب السردية وعزله عرضوا تقديم جمالهم للحملة وأهالى دمشق ينتظرون دخول ابراهيم مدينتهم وأهالى حاب ينتظرون وصوله بفارغ الصبر

أصدر الباب العالي أمراً الى الأسطول بالخروج وهو مؤلف من ست سفن
حربية كبيرة ومن ثمانى فرقاطات ومن مائة مركب نقل . وقد روى يومئذ
قائدا الأسطولين الانكليزي والفرنساوى ان الأسطول التركى انتقل الى
بشكطاش فقط فلما أن يدمره اسطول محمد على اذا هو تعرض للقتال واما



شريف باشا والى ألوية السام ووزير المانية فيما بعد

أن يحصره فى أحد الموانىء و يأخذه أسيراً ، وقد قرن الباب العالي خبر خروج
الأسطول بنهر حشد مئى ألف مقاتل بقيادة السر عسكر حسين باشا ، ولما
حدث محمد على فى ذلك كله قال : ان الباب العالي لم يرد سوى تخويفه ثم حكى
محمد على حكاية تركية فقال : « ان جملا حمل المحمل إلى مكة مدة ثلاثين سنة

فبعد هذه السنين الثلاثين ترك وشأنه في أسواق المدينة يبحث عن غذائه ولم يكن أحد يجرو على ازعاجه ولكن أحدهم رأى أن الجمل يتناول كل شيء ولا يعف عن شيء فأراد منعه ولكنه لم يجرو على مسه فلما اقترب الجمل من محله أخذ يضرب على الأخشاب والآنية بكلمات يديه فسأله جاره ولم ذلك؟ قال لأخيف الجمل وأبعده عن تناول أشياءي . فقال ذلك الجار أظن انه يسمع هذا الطنين وقد كلت أذناه في مدى ثلاثين عاماً من أصوات المدافع والموسيقىات؟ وبعد أن قص محمد على هذه الحكاية قال لحدثيه أما ذلك الجمل فهو أنا محمد على « أما جيش محمد على في سوريا فقد قسم إلى ثلاثة أقسام كل واحد منها كان مؤلفاً من ١٣ إلى ١٤ الف مقاتل . فالاول في طرابلس تحت أمرة الامير خليل ابن الامير بشير ومصطفى بربر عامل الامير بشير على تلك المدينة . والثاني تحت أمرة عباس باشا في زحله و بعلبك ومعه سليمان باشا الفرنساوى والامير أمين ابن الامير بشير والثالث جيش عكا مع ابراهيم باشا

وقد رأى الباب العالي أن يستعين بالدعوة الدينية فاستدعى من بورصه إلى الاستانة أحد الأشراف المنفيين وقابله بمقابلة فخمة وعينه أميراً لمكة بدلاً من أميرها المخلص محمد على و وكل الباب العالي إلى سفينتين تمساويتين الوقوف على أخبار الأسطول المصرى فلما وصلت احدى السفينتين إلى الاسكندرية قال محمد على لربانها انه مستعد لا بلاغهم جميع الأخبار حتى يدرك الباب العالي أنه لا أمل له بالفوز

وشعر محمد على أن الباب العالي يبذل أقصى جهده في الاهبة والاستعداد برأ و بحراً فعقد عزيمته على أن يقابله بالمثل فطلب من قنصل فرنسا أن يعرض على حكومته عقد قرض له بمبلغ ١٢ إلى ١٥ مليون فرنك - وإن يكن عالملاً بأنه

ليس باستطاعتها أن تفعل ذلك علناً ولكن باستطاعتها أن توحى سرّاً بعقده -
غير أن الحكومة الفرنسية رفضت أن تعقد هذا القرض أو تساعد عليه مراعاة
للباب العالي والحياد ولكن ذلك لم يقعه عن مواصلة الاستعداد فأخذ بإرسال
النجيدات إلى سوريا



محمد علي باشا

وأرسل الباب العالي - بعد أن أصدر المجلس التشريعي فتواه - إلى الدول
بالا تسمح لرعاياها بالاتصال بالموانئ المصرية فأرسل وزير خارجية فرنسا رده
بان هذا الذي يطلبه الباب العالي مخالف للقوانين البحرية وذلك ما أخذت
به الدول . ومضمون تلك القوانين هو .

« ان حصار الشواطىء والسواحل يجب أن يكون تاماً وأن يحذر المركب في حالة الحصار التام من دخول الميناء فاذا خالف حق عليه العقاب » واما ان تقطع الدول اتصالها بالموانى المصرية بمجرد التنبيه فذلك مالا يقول به أحد ولا تقبله الدول .

وكان الأسطول المصري قد ضبط مركبين روسيين ومركبين نمساويين تحمل المؤن والذخائر للأتراك في سواحل سوريا فاحتجت هاتان الدولتان وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تصدر الحكومة المصرية المؤن والذخائر وأن تدفع أجرة المراكب فقط وهكذا قطع الأسطول المصري المدد بجرأ عن الجيش التركي في سوريا .

أما ابراهيم باشا فانه بعد دخول عكا أمر بترميم جدرانها وأسوارها وقلاعها ونصب المدافع فيها لأنه عزم على جعلها مركزاً لجيشه في بلاد الشام وكان علماء الأزهر قد وضعوا رداً شرعياً محكماً على فتوى المجلس التشريعى في الأستانة فاذيع ردهم في جميع الأقطار

ولما حدث القناصل محمد على في ذلك أجاب ان علماء الأزهر أحفظ للدين وأعرف بأحكام القرآن الكريم من جميع علماء الإسلام فأنا لم أطلب منهم شيئاً ولكن ما فعلوه انما هم فعلوه دفاعاً عن حرمة الدين من أن تنتهك . أما الرد من جانبي فيحمله ابني ابراهيم إلى قواد السلطان

لم يضع ابراهيم باشا وقته فعزم أن ينقض انقضاض الصاعقة على خصومه فاتجه بعسكره إلى دمشق وأمر الأمير بشيراً أن يوافيه اليها برجاله وأمر جيش عباس باشا برقابة الجيش التركي في جهة حمص واليك البلاغ الرسمى عن الاستيلاء على دمشق كما نشر في الوقائع المصرية

« في ١٠ المحرم (١١ يونيو) توجه العسكر المنصور إلى جهة دمشق فوصل



لوحه تنظيمه نعل ابراهيم باشا بقدر جنوده أثناء محاصره عطا وفتحنامه اسوارها

في ١٤ منه إلى القنيطرة ثم انتقل إلى داريا التي تبعد عن دمشق ساعة ونصف ساعة . وفي الساعة الثامنة رتب عسكر الآيات المشاة والفرسان كهيئة قلعة . ولما شاهدوا في اليوم التالي نحو ٨٠٠ فارس من الأعداء في الجانب الأيسر طلباً للحرب وفي الجانب الأيمن جماعة من المشاة من أهل دمشق استحسن افندينا السر عسكر أن يستصحب معه الآيات الفرسان وأحمد بك أمير اللواء مع الأورطة الرابعة من الالاي الثامن ويذهب إلى الذين وقفوا إلى الجانب الأيسر ويذهب قوجه أحمد آغا مستصحباً فرسانه وفرسان العرب إلى الذين وقفوا في الجانب الأيمن فلما رأى أصحاب المشاة اقدم افندينا السر عسكر عليهم ولوا الادبار فتبعهم العسكر وقتلوا منهم بعضاً وقبضوا على البعض وكان على باشا والى دمشق والشور بجى وشمدين آغا في المعسكر في المكان المسمى « المرجة » وكل من أمين الكلار والمفتى والنقيب ورشيد آغا والترجمان في بيت أمين الكلار والقاضي في المكان المسمى « باب توما » فهربوا جميعاً وكانوا نحو ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ راجل وحينئذ جاء جماعة من المدينة طلباً للامن والامان وطلبوا أن يتشرفوا بمقابلة افندينا رئيس العسكر فأرسل اليهم رسولا يبلغهم بأنه أعطاهم ماطلبوه من الأمن والأمان

وعند شروق الشمس وصل الأمير بشير ومعه نحو ٥٠٠٠ من الفرسان والمشاة وتقابل مع افندينا وذهب مع رجاله إلى المدينة من طريق وذهب افندينا إليها من طريق آخر ، وبينما هو في الطريق حضر كبارهم لاستقباله ، وفي الساعة الرابعة أعد لكل فريق من جيشه المنصور مكاناً خاصاً به في المدينة ونظم شهاب الدين هذين البيتين في تاريخ فتح دمشق :

ولما جل شأن عزيز مصر ودان لعزه غرب وشرق
دعته الشام شرفنى وارخ ييمن العز قد ملكت دمشق

ولما كان بعض الدروز والمتاولة قد نهضوا لارتكاب الشغب في لبنان
والبقاع وحووران بتحريض القواد الترك أمر ابراهيم باشا بنزع سلاحهم ،
و بتوزيع ١٣ ألف بندقية على اللبنانيين لمطاردة المشاغبين
ورأى ابراهيم باشا تأليف مجلس شورى في دمشق لضبط الأعمال فصدر
عن ذلك البيان الآتى الذى أعلن في ١٥ صفر :

« صدر أمر السر عسكر ابراهيم باشا في ١٥ صفر إلى الأشخاص المذكورة
أسمائهم في ما بعد وهم من أشهر عائلات دمشق الشام وأكابرها وأعيانها وشيوخها
ليكونوا أعضاء للمجلس المخصوص وهم :

محمد حافظ بك العظم وسليم افندى كيلانى ومحمد افندى عجلان ومحمد
نسيب افندى حمزه وعلى آغا كاتب الترجمان وصالح آغا المهايتى وعلى آغا كاتب
الخزانة وعبد القادر آغا كيلاهللى واحمد افندى البكرى واحمد افندى المالكى
ومحمد راغب افندى حسنى واحمد افندى أنسى و ابراهيم بك المسودن والحاج نعمان
آغا باشجى والشيخ سعيد والحاج ابراهيم بستولى من التجار وصباحى آغا الحكيم
ومحمد آغا الكبير ومحيى الدين آغا خير وعبد القادر آغا خطاب من أغوات
الاختيارية والخواجه روفائيل الصراف والخواجه ميخائيل كحيل وجميعهم ٢٢ ذاتا
« فليكن معلوماً أنه عملا بالحديث القائل كل راع مسؤول عن رعيته .

وجب علينا النظر فى أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل
الوجوه الأمر الذى لا يحصل إلا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل
الأحكام فيهم بالحق ، قد استحسننا تشكيل مجلس مخصوص من خواص
العقلاء وأصحاب رأى من الأعيان والأكابر والتجار للنظر فى القضايا والمشورة
فيها ، ولذلك قد اخترناكم من عموم أهل دمشق الشام وأذنكم بسماع الدعاوى
و بتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف

أما ما يتعلق بسياسة الأمور الأخرى فيكون الفصل برأيكم وبعد التشاور
وتداول الآراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما تتفق عليه الآراء
وبعد الحكم يقدم تقرير بذلك إلى مجلسنا للتنفيذ ويكون ذلك بلا ميل ولا
غرض في النفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف إلى كبير أو صديق أو وجيه وكل
من أخفى رأيه لعله أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجلس .
فيكون قد خالف أمرنا وأوقع نفسه تحت طائلة الملامة

صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاعتنموا ثواب الرعية وجزاء الخدمة
الدينية الجليلة والحدار الحذار من الخلاف »

وبعد احتلال دمشق أسرع إبراهيم باشا بجيوشه لمقابلة قوات الباشوات
الترك في حمص



الفصل الثالث

بعد فتح دمشق — الزحف على حلب

يقول المصريون إن الشام جنة الدنيا وقد فتحنا لهم الشام فماذا يريدون
فوق ذلك ؟؟ (من كتاب ابراهيم باشا لوالده)

في ١٥ يونيو ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا دمشق وأقام عليه احمد بك العظم
متسلماً إلى أن أعلن تأليف المجلس الخصوص من ٢٢ عيناً ليتولى شؤون
الولاية والألوية ، وكان محمد علي باشا قد عين محمد شريف باشا والياً على
دمشق ووكل ابراهيم باشا إلى الأمير بشير تعيين المتسلمين فعين متسلمي
صيدا وبירות وطرابلس واللاذقية من الأمراء الشهابيين أبناء عمه وصدرت
أوامر ابراهيم باشا إلى محمد منيب بك والى عكا بتأييد هؤلاء المتسلمين ولم
يصرف ابراهيم باشا سوى أيام قليلة في دمشق لأن الباشاوات قواد الجيوش
التركية كانوا قد اجتمعوا بجيوشهم في سهول حمص فصمم على مباغتتهم
والزحف على حلب للاستيلاء عليها وكانت حلب آخر مرمى محمد علي إذا لم
يضطره السلطان إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك . ولما كان محمد علي واثقاً كل
الوثوق من الفوز والنصر ومن الاستيلاء في أيام قليلة على مدينة حلب عقد النية على
أن يمهد الطريق السياسى فاستأجر مركباً فرنسائياً في ٢٤ يونيو ليحمل منه رسالة
إلى حاكم مالطة الانكليزي بغية أن يرسلها هذا الأخير إلى حكومته لأنه لم يكن
يثق أقل ثقة بالقنصل الانكليزي لما كان يظهر من الجفاء نحو مصر ودس الدسائس
لمحمد علي و ابراهيم . وليحمل رسالة من قنصل فرنسا إلى حكومته بآراء محمد علي .

وقد حدثنا عن ذلك قنصل فرنسا ميمو في رسالته إلى وزير الخارجية سيستيانى فقال :

إن محمد على لم يستأجر السفينة الفرنسية لتحميل إلى مرسيلا ومنها إلى أوربا خبر فتح دمشق . ولكنه استأجرها لتحميل منه رسالة إلى الحكومة الانكليزية بواسطة حاكم مالطة لأنه لا يثق بالقنصل الانكليزى ويعتقد بأنه يتلاعب بالاعراب عن أفكاره وآرائه . أما أنا فلم يسامنى رسالة ولكنه أملى على أفكاره التى يريد أن يعرضها على وزير الخارجية وهى :

« يرى محمد على أن تركيا واصله حتما إلى أزمة من الأزمات الكبيرة التى يتقرر بها مصير الأمم والدول والآن يتم الانفصال بين شطرين من السلطة تقضى الحوادث والأنظمة والضرورة والأقدار بفصل أحدهما عن الآخر . وكان بالامكان تلافى ذلك لولا غفلة السلطان لأن محمد على كان يود دائماً — بالرغم من انفصال أحد الشطرين عن الآخر بالفعل والواقع — أن يظل التابع الخاضع المخلص . ولكن العناية أرادت غير ما أراد فالآن قد تم تأليف المملكة العربية . — والبلاد العربية هى مهبط الوحي — وهى تحتضن الأماكن المقدسة وفيها مقر الخلافة وتطوقها الجبال من كل جانب كالأسوار وإذا اضطرت للدفاع عن نفسها أنشأت القلاع والحصون التى سيتضاعف عددها .

واليوم ننتظر أن يرتقى أسطول السلطان وجيشه على أسطول محمد على وجيشه فيكون مصير أسطول السلطان وجيشه السحق . فلماذا مواصلة هذا القتال الذى لا فائدة منه ؟؟ وأية أمة أوروبية تجد فيه ربحها ؟؟ فلا هى فرنسا ولا هى انكلترا ولا النمسا ذاتها . وذلك للأسباب التى يعرفها الجميع ولا يجهلها أحد .

والدولة الوحيدة التى يهملها سقوط السلطنة العثمانية هى الدولة الروسية . ألا

يقوم الدليل على ذلك بدفعها الباب العالى بكلتا يديها ضد محمد على مع إعلان الغضب والسخط عليه ؟

فمنذ تملك الغفلة الباب العالى نراه لا يعمل شيئاً إلا بنصيحة روسيا وأوامرها وروسيا تعرف أن مصر صارت قوة وان هذه القوة تؤيد عند الحاجة الباب العالى ضدها ولكن الجنون تملك الباب العالى فانساق لارادتها ضد الشطر القوى الحى فى السلطنة ولذلك تريد روسيا أن يمزق بعضنا البعض .

فهل تسمح فرنسا وانكلترا بأن تحفر السياسة الخادعة هذه الحفرة ليتردى فيها الجهل والغبوة ؟

إن عليهما وحدهما وعلى رأيهما ووساطتهما الحيلولة دون فعل الدسائس فاذا فعلتا كان عملهما خدمة للباب العالى ذاته وللسلام وللانسانية .

أما محمد على وإن كان قد أهين وسب فهو لا يطلب - والنصر حليفه - إلا ما كان يطلبه قبل القتال فلا يمتد نظره إلى أبعد من الحاق سوريا حتى حلب بولاية مصر تحت سيادة السلطان وعلى شروط موافقة للسلطان كل الموافقة ، أما إذا ترك قياد السلطان لصديق ما كر فقد تكون النتيجة عليه بلايا شديدة .

فهو الآن محتقر مكروه من جميع المسلمين لأنهم يعدونه الخرب والعدو للسلام ، أما محمد على فهو فى نظر الجميع السند للدين والمدافع المخلص عنه والمؤمنون فى جميع أنحاء السلطنة تتجه أنظارهم إليه وكل جهة ترسل إليه رسلا فى طلب المساعدة والعون .

وهل من يشك الآن فى أن الانتصار فى سهول حلب بفضل عبقرية إبراهيم العسكرية وبفضل تفوق العرب و بفضل فوز الأسطول المصرى سوف يحكم بمصير استانبول ؟ ؟

فاذا كانت الدولتان الصديقتان تريدان أن تصل الأمور إلى هذا الحد

فمحمد على يود ابلاغه ذلك . وعنده أنه لم تبق إلا هذه الوسيلة للحيلولة دون انحلال السلطنة وهذه الوسيلة هي المتفق عليها بين جميع عقلاء السلطنة لأنها تصون الوحدة التي تساعد على إنقاذ الجميع

وأشار قنصل فرنسا إلى فتنة وإلى اشتقوده قبل ذلك وأنه كان الغرض

منها خلع السلطان وتولية ابنه تحت مجلس وصاية

ذلك كان مسعى محمد على السياسى المقرون بالنجاح العسكرى ولكن هذا

المسعى لم يوقفه عن إرسال النجيدات لبراهيم فأرسل إليه ستة آلاف جندى نظامى حتى قالوا إن مصر خلت بعد هذا من الجند النظامى لأن محمد على كان فى مأمن من الأسطول التركى

وكان جيش ابراهيم باشا مؤلفاً يوم دخوله دمشق من ٣٠ ألفاً يؤيدهم

١٥ ألفاً من رجال الأمير بشير الشهابى وصدر أمر محمد على إلى أسطوله بالخروج

إلى البحر للبحث عن الأسطول التركى وهو مؤلف من :

٣ سفن صف وسلاح كل واحدة أكثر من ١٠٠ مدفع

١ — سفينة صف سلاحها ٧٤ مدفعاً

٥ — فرقاطات سلاح كل واحدة ٦٠ مدفعاً

٢ — فرقاطتان سلاح كل واحدة ٤٤ و ٥٠ مدفعاً

ويتبع ذلك مثل هذا العدد من السفن الأخرى الصغيرة الحربية و ٤

حراقات كبيرة يتولى قيادتها جماعة من اليونان وهذا مادعا الباب العالى إلى

الاحتجاج لدى الدول لان محمد على استخدم فى بحريته متطوعة اليونان من

أهالى الجزر .

أما قواد السفن الكبيرة فكانوا فرنساويين اثنين وانكليزيا واحدا

ومصريا كان قد أتم تعليمه فى البحرية الفرنسية وكان أميرال هذا الاسطول

محمد عثمان باشا وهو رجل شديد البأس واسع المعرفة أما الاسطول التركي فكان مؤلفاً من :

٢ — من السفن الضخمة سلاح كل واحدة منهما ١٤٠ مدفعا

٣ — سفن سلاح كل واحدة منها ٨٤ مدفعا

٦ — فرقاطات منها ثلاث كبيرة

١٠ — نسابات

٥ — حراقات

٢ — زورقان

١ — نقالة

وكان سلاح الاسطول التركي أضعف من سلاح الاسطول المصري وأكثر رجاله ممن لم يركبوا البحر فلم يكن أحد من رجال البحر يصدق أن أسطول السلطان يستطيع مواجهة أسطول مصر

أما خطة ابراهيم باشا فكانت القضاء على جيش الباشوات في حمص وهو لا يزيد على ٢٦ ألفاً قبل وصول جيش السر عسكر حسين باشا وهو ١٢ ألفاً وقد جاء من طريق قونية ومر بطريق انطاكية

نهض ابراهيم باشا من دمشق في ٣٠ يونيو قاصداً حمص ومعه الأمير بشير وابنه الأمير خليل وأمراء وادى التيم ومشايخ نابلس ولما وصل إلى النبك وجه الأمير بشيراً ومن معه إلى دير عطية واتجه هو ذاته إلى القصير فحجم على مجرى نهر العاصي ثم نهض إلى بحيرة حمص وبينما كان مجدا السير كان الباشوات الترك الثمانية منهمكين بتبادل الزيارات وتقبل التحيات ونصب الخيام الضخمة الخ ففي صباح ٨ يوليو انقض جيش ابراهيم على حمص انقضاض الصاعقة فمزق

شمل الجيش التركي كل ممزق واستولى على سلاحه ومهماتِه ومراسلاته ومنها رسالة من الباب العالي إلى باشا حلب بان يرسل ابراهيم باشا حياً إلى استامبول وبلغ عدد قتلى الجيش التركي ٢٥٠٠ وقتلى الجيش المصرى ١٠٢ وجرحاه ١٦٢ وأسّر الجيش المصرى نحو ألفين أرسلوا الى عكا وخيروا بين الذهاب الى بلادهم أو الانضمام الى المعسكر المصرى فى بلدة النحيلة

أما الباشاوات قواد العسكر التركي فكانوا : محمد باشا والى حلب وهو القائد الأكبر وعثمان باشا والى المعدن وعثمان باشا والى قيسارية وعلى باشا والى دمشق وعثمان باشا والى طرابلس ومحمد باشا الكريدى ومحمد باشا فريق عسكر الجهادية ونجيب باشا ودلاور باشا ولم يقف ابراهيم باشا فى حمص بل سار بجيشه يقصد الى حماه للحاق بهم ولكنه تلقى الخبر بانهم لم يقفوا فى حماه بل تركوا مدافعهم فى الطريق وواصلوا السير فسطت عليهم عربان غزاه فارسلى ابراهيم باشا الى عكا فى طلب الطوبجية لاصلاح المدافع التى غنمها وهى جميع مدافع الجيش التركى الذى ارتدت بقاياه بلا مدافع وبقايا هذا الجيش لاتزيد على ١٥٠٠ مقاتل

ولم يقف ابراهيم باشا فى حماه بل واصل السير الى حلب وبينما هو فى قرية زينان جاءه فرسان العرب بستة من الاسرى فاخبروه أن الباشاوات ومعهم السر عسكر حسين باشا طلبوا من محكمة حلب اصدار حكم بتقديم المؤن للعساكر فابت وأبى الأهالى تقديم هذه المؤن وتظاهروا بالعداء فغادر الباشاوات حلب الى عينتاب تاركين فى حلب ١٦ مدفعا والخيام والذخيرة والمهمات فركب ابراهيم مع الفرسان بقيادة عباس باشا ووصل إلى حلب فدخلها على الترحاب وقدم له الطاعة قاضيا ومفتيا وأعيانها

وقبل أن يدخل ابراهيم حلب كتب الى محمد على والديه يقول « ها قد فتحنا الشام التى يقول المصريون انها جنة فماذا يريدون منا فوق ذلك »

وهكذا انتهى فتح الشام الذي كانت بدايته في شهر أكتوبر سنة ١٨٨١
ونهايته في شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وهذا هو المنشور الذي صدر لأهالي حلب :

« عمدة العلماء الأعلام حاكم الشريعة الغراء بمدينة حلب الشهباء الأفندي
الأفخم زيد فضله »

والمأذون بالافتاء بها نخبة العلماء الكرام الأفندي المكرم زيد بقاءه
- وفرع الشجرة الزكية طراز العصاة الهاشمية قائم مقام نقيب أشرافها
الأفندي الأكرم زيد شرف سيادته .

- وافتخار الأماجد والأكارم متسلمها حالا سياف زاده السيد ابراهيم
آغازيد مجده

- مفاخر الأماجد والأعيان وجوهرها الكرام وأعيانها وساداتها ذوى
الاحترام

أحيطوا جميعاً علماً بأنه يجب قيامنا وتحريك ركابنا لطرف مرعو . فاقضى
ايفاد قائم مقام لأجل تدوين أمور بلدتكم وضبطها واجراء حكومتها وربطها
بناء على ذلك قد نصبنا رافع أمرنا هذا افتخار الأماجد والأكارم سياف
زاده السيد ابراهيم آغا المتسلم الموما اليه وأبقيناه لأجل إدارة مصالح البلدة
ورؤية أمورها

فأنتم أيها المخاطبون اذا صارت الكيفية معلومكم تكونون جميعاً مع الأغلا
الموما اليه بالاتفاق وتشدون عضد الموحدة والاتفاق لايفاء مراسم الخدمة المبرورة
واجراء مراسم المساعي المقبولة المشكورة لدى جانبولى النعم أفندينا السر عسكر
باشا المعظم

وأنت أيها القائم يلزم منك الانتباه واليقظة في محافظة الطرقات وأبناء
السييل وعدم التعرض لأحد إلا بالوجه الشرعي واستجلاب دعوات الفقراء
والرعية وديعة رب البريه وبذلك تحوز رضا سعادة أفندينا ولي النعم المعظم
ورضانا الخ

١٢٤٨

خاتم

ابراهيم توفيق

طغراء

يكن ابراهيم

قائمقامي حلب



الفصل الرابع

آخر معركة في الأراضي السورية وارتداد الترك الى الأناضول

دخل ابراهيم باشا مدينة حلب في ١٥ يوليو ونظم فيها الحامية واحتل القلعة وأرسل طلائع جيشه إلى جهة الفرات ليقف على أحوال العراق وأعلى الأناضول حتى يكون آمناً من تلك الجهات على مؤخرة جيشه وكان قد عين متسلماً لحمص وآخر لحماه من أعيان دمشق وأعاد الأمير بشيراً إلى لبنان ولم يبق أمامه لاتمام فتح سوريا سوى القضاء على جيش السر عسكر حسين باشا الذي قلنا ان السلطان محموداً أصدر أمراً بتعيينه والياً على مصر وكريد وبلاد الحبشة وملحقاتها والرجل كان والياً على أدرنه وكان مشهوراً بقوته البدنية فما وصل هذا السر عسكر إلى انطاكية حتى كان ابراهيم باشا قد قضى على جيش الباشاوات الثمانية في حمص فلم يتمكن السر عسكر من الانضمام إلى جيش الباشاوات والتقى السر عسكر بفلول الجيش المكسور في جسر الشغور ولم يساعده أعيان حلب على دخول تلك المدينة فاتجه إلى بيلان

وبيلان واد بين جباين عاليين يطلقون عليه اسم البوغاز وفيه تمر القوافل بين حلب والاسكندرونة وهو مشهور في التاريخ بمناعته وقد كان ممر جميع الجيوش المقبلة من الغرب إلى الشرق فأخذ حسين باشا يحصنه بمدافعه وجنوده وقد قالوا ان سلاح جيشه كان ١٦٠ مدفعاً وعدد ذلك الجيش ستين ألفاً منهم ٤٥ ألف جندي نظامي فأسرع ابراهيم لمقاتلته قبل أن يسترد جيش السر عسكر قوته وقبل أن يستريح ويتم معاقله في جنابات ذلك الوادي

وإذا كانت للقيادة أهميتها والقائد من الجيش كالرأس من الجسم فاسمع كلمة كلوت بك في حسين باشا سر عسكر جيش السلطان محمود قال : « ألبس السلطان محمود قائده العام كسوة القيادة العليا وهي - المعطف القصير ذو البنيقة المزركشة بأسلاك الذهب وأهدى إليه سيفاً مرصعاً بالألماس وجوادين عريين مظهرين وقلده رتبة المشيرية . فمن هو هذا القائد العام الذي فاز بمثل هذه الزنبي من الحضرة السلطانية واقترن نجمه بالسعد إلى هذا الحد ؟

هو مبيد الانكشارية . كان في أول عهده حملاً ثم جاسوساً ثم رئيس قلعة ثم مهيجاً ثم جلاداً ثم باشا الباشاوات . كان سيفاً ماضياً في ماضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه وكان الفريق محمد باشا معتوق حسين باشا قائد الطليعة »

وصل جيش ابراهيم باشا إلى مضيق بيلان في ٢٩ يوليو عند الساعة الثالثة بعد الظهر وأخذ في الحال يدرس مواقع أعدائه في الجبلين المشرفين على الوادى فوجد أن جيش السر عسكر حسين باشا قد أهمل بعض الأنجاد العالية فأدرك لساعته أن احتلال تلك الأنجاد يمكنه من سحق عدوه فلم يقعد ولم يسترح بل وجه بعض قواته إلى احتلال تلك المرتفعات وحول عنها نظر أعدائه بمهاجمتهم واطلاق المدافع عليهم من الجهة المقابلة فلم يلتفت قواد الجيش التركي إلى ماوراءهم فأخذهم جيش ابراهيم بحركة التفاف من ورائهم وهنأندع تفاصيل الموقعة ونتائجها للتقرير الرسمى الذى أرسل إلى محمد على وإلى الأمير بشير وإلى جميع الولاة والمتسلمين فى أنحاء سوريا ليذيعوه وهذا هو نص التقرير وهو آخر تقرير عن آخر معركة فى الأراضى العربية السورية

الفقرة الثامنة لجيش - سوريا

في ٢ ربيع الأول (٢٩ يوليو) في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل زحفت قوتنا من جسر مراد باشا وفي الساعة الثامنة قبل الظهر وصلت الى المضيق المسمى بوزار بيلان وفي الساعة الخامسة أنبئنا أن المشير حسين باشا ومحمد باشا الذي كان والياً على حلب وآخرين سواهم قد عسكروا وراء المضيق مع بقية جيوشهم النظامية والمتطوعة وانهم نصبوا المدافع على الروابي والآكام وانهم نصبوا بعض البطاريات على القنن العالية .

ولما ثبتت للقائد العام ابراهيم باشا صحة هذه الأخبار أمر اللواء حسن بك أن يتقدم بالآلاى الثالث عشر من المشاة والآلاى الثامن من الفرسان مع خمسة مدافع في الطريق الواقع على الميمنة وسار القائد العام على الميسرة ومعه الآلاى ١٨ والفرقة ٨ البيادة والآلاى الحرس و ١٢ مدفعاً

أما الآلايات الأخرى من الفرسان فلوقت في الجهات الأخرى من المضيق ولما رأى العدو تقدم قواتنا أخذ يطاق مدافعه من الآكام المشرفة على طريق الجيش ولكن مدافعنا صبت عليهم النار الحامية فاسكتت بعد ساعة مدافعهم إلا مدفعاً واحداً ظل يطاق نيرانه . وبينما كانت مدافعنا تصب نارها على ميسرة العدو صدر الأمر الى الآلاى الثامن بالتقدم ولم يمض الا القليل حتى وصل هؤلاء الابطال الى الأعلى التي تشرف على مواقف العدو في الميسرة ومن هناك ضربوه بشدة عظيمة حتى اضطر الى الفرار تاركاً مدافعه ومهماته وذخائره فارا عند ما أذنت الشمس بالمغيب متجهاً نحو أدنه

أما عسكرنا فانه صرف ليلته في محل المعركة وفي اليوم التالى أى ٣٠ يوليو وجهت فرساننا منذ الفجر لاقتفاء أثر العدو وذهب باقى الجيش الى بيلان وهناك

التحق عارف بك ميرالاي الفرقة العاشرة من جيش العدو بجيشنا فعينه القائد العام أميرالاي للآلای العشرين من المشاة .

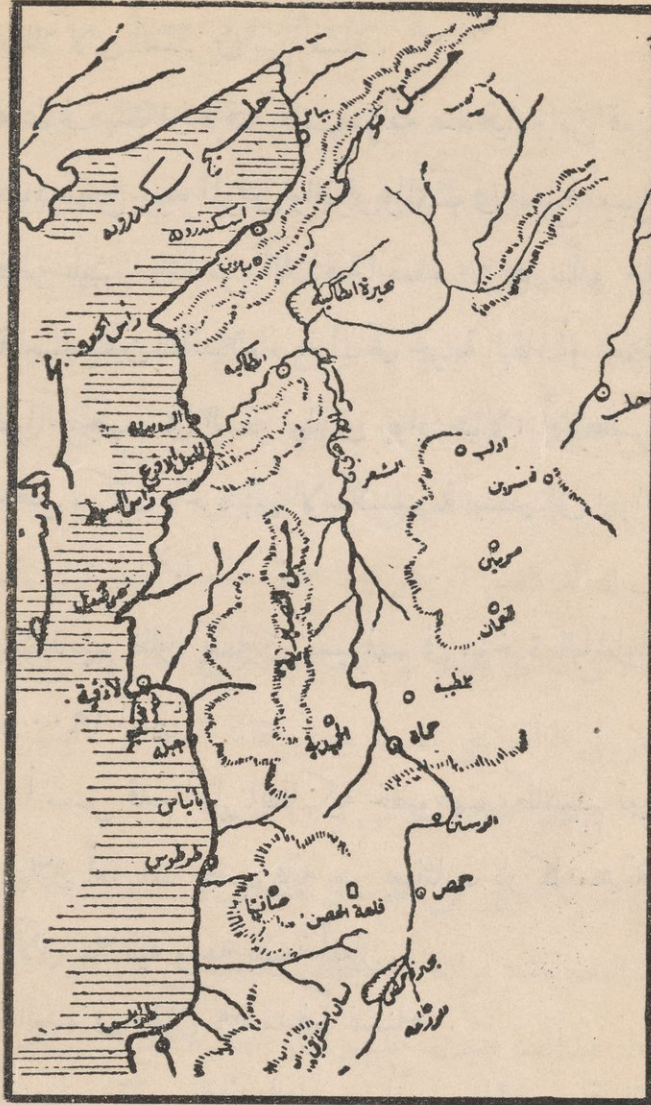
ومما يقوله عارف بك ان فرقته كانت مؤلفة عند قيامه من قونيه من ٢٢٦٨ رجلا فصار عددها من جراء المرض والفرار والموت في صباح أمس ١٨٨٨ رجلا وبعد فرار عيش باشا من اللاذقية جاء ٦٠ فارساً و ٦٠٠ رجل من الاسكندرونة مستسلمين للقائد العام فترك لهم حرية البقاء أو العودة إلى بلادهم وأمر بأن يعطوا حاجتهم في السفر والذي رواه هؤلاء أن عيش باشا ارسل حريمه إلى قبرص وركب باخرة إلى الاسكندرونة لينضم إلى ابراهيم باشا ومعه ستة مدافع

أما فرساننا فانهم ظلوا يعملون بسيوفهم في مؤخرة الباشاوات حتى أدنه وعادوا ومعهم ١٩٠٠ أسير

وفي أول أغسطس قدم أهل انطاكية خضوعهم وطاعتهم فعين خليل بك متسلماً لاقليم بيلا ن أما باشا حلب فانه مر بعينتاب تاركا مهماته التي غنمناها وقد بلغنا أنه الآن بملاطيه ومعه بضعة أنفار .
وخسارة العدو في بيلا ن ٣٩ مدفعاً غنمناها .

وفي ٢ أغسطس تلقى القائد العام من أيوب بك من قبيلة مللى كتاب الخضوع فأثبتته القائد العام في وظيفته في أورفة

وجملة ما غنمناه من العدو في المعارك ٨٠ مدفعاً ومدفع هاوون وكمية كبيرة من الذخائر من كل نوع وعدد قتلاه والأسرى أكثر من ١٢ ألفاً ، أما الفارون فعددهم كبير جداً والذي يؤخذ من تقرير عارف بك أن الجيش التركي كان في جهة حمص ٣٦ ألفاً نظامياً لم يلحق منهم بحسين باشا سوى ٥ آلاف وكانت خسائرنا في بيلا ن ٢٠ جريحاً وقتيلاً . . اه



سوريا الشمالية

ومن المخطوطات المحفوظة كتاب ابراهيم باشا إلى متسلم دمشق احمد بك العظم
عن هذه الموقعة الأخيرة في البلاد العربية وهو بنصه .

« افتخار الأماجد الكرام ذوى الاحترام الحاج احمد بك . غب السلام
التمام بمزيد العز والاكرام نبدي إليكم :

إنه نهار الأحد الواقع في ١٢ ربيع أول سنة ١٢٤٨ قد لاقت حلول ركابنا بالعساكر المنصورة إلى مرحلة خان قراموط لأجل ضرب عساكر المحتشدين في بوغاز بيلان .

وفي الساعة الستة باليوم المذكور قد تحرك ركابنا من مرحلة الخان المذكور بالعساكر المنصورة وآلة الحرب المهولة حيث ان البوغاز المرقوم المتحصنين فيه بالقرب من المنزلة التي تحول ركابنا بها

وفي الساعة التاسعة قد كانت المصادمة في عساكر الدشمان وابتداء ضرب الأتواب عليهم .

وبخصوص تحصينهم بعمل الطوابي وعسر الطرقات هذا جميعه ما أفادهم شيء سوى انه في مسافة ساعتين زمان الذي تبقى منهم بعد الذين قتلوا وانمسكوا باليد ما بين مجروح وقتيل قد فروا هاربين وللنجاة طالبين مهزومين إلى ناحية أدنه عن طريق اسكندرونه وتركوا أطوابهم وموجوداتهم فعند ذلك حالاً صدر أمرنا بتوجيه خيالة العساكر المنصورة الجهادية والعرب لأجل اتباع أثرهم ومسكهم جميعاً بحيث انه لا ينفذ منهم أحد وبحوله تعالى لا بد من حصول المراء وتدمير الجميع ، فبناء على ذلك أصدرنا إليكم مرسومنا هذا لكي بوصوله تعلنوا البشائر إلى جميع المقاطعات لكي يكونوا جميعاً حائزين على السرور والفرح على النصر العظيمة والمنة الجسيمة ليكونوا دائماً مداومين بالدعوات الخيرية بدوام بقاء هذه الدولة السعيدة بوجود دولة أفندينا ولي النعم والدنا عزيز مصر المعظم . فبناء على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد » و بعد استيلاء ابراهيم باشا على بيلان أرسل إليه مفتيها السيد محمد واثان من كبارها هما أحمد أفندي والحاج اسمعيل اغا أخو محمد باشا أحد القواد الترك الكتاب الآتي :

« يا صاحب السعادة

أمام اقدامكم تقدم خضوعنا والفرح الذي دخل على قلوبنا بوجودكم لهو
فرح عظيم ينسينا جميع الآلام التي أصابت مدينتنا مدة وجود جنود الأعداء
فيها فهؤلاء الجنود لم يبقوا على شيء . فمنازلنا وأموالنا ومواشينا وغلالتنا نهبت
ولجأنا إلى الجبال وقاية لحياتنا ومن هذه الجبال رفعنا الدعوات لنصر جيوشكم
ولنجاح مقاصدكم في إنقاذ بلادنا .

فاسمحوا لنا أن نتقدم إليكم بأشخاصنا لنكرر لكم تأكيد عواطف محبتنا
وعرفان الجميل الذي نضمرة لكم من زمن بعيد
وأرسل متسلم بيلان وأخوه مصطفى باشا الكتاب الآتي :

يا صاحب السعادة

« منذ عشرين سنة ونحن نود الانخراط في سلك خدمة عزيز مصر ولم
نتوان عن رفع الدعوات لنجاح بيتكم الكريم حتى أسعدنا الحظ بأن وصل
إلينا خبر وصولكم إلى هذه البلاد التعسة وتخليصها من أيدي غاصبها
ولقد فعلنا كل ما كان بإمكاننا فعله لتنفيذ الأوامر التي شرفتمونا بها
وإذا كنا قد عجزنا عن المجيء قبل الآن لنقدم لسعادتكم الخضوع الواجب
فلأنه قبض علينا الظالمون ووضعونا تحت أنظارهم لذلك أخرجنا إلى اليوم هذا
العمل المفرح الذي كنا بانتظاره » اه

1

الفصل الخامس

ماذا فعل الأسطول المصري

تولى محمد علي مصر في سنة ١٨٠٥ ورد الانكليز عنها في سنة ١٨٠٧ وعرف أن حكما أو ولاية أو ملكا مستقلا لا يستند إلى القوة لهو ملك زائل ضائع . ولم يخطر له أن يستقل عن تركيا كل الاستقلال ولكنه خطر له أن يجعل نير سيادتها عليه خفيفا جهد الطاقة — كما يقول مؤرخوه — فبعد أن وحد حكم مصر وأزال حكم الاقطاع والماليك . وجه نظره إلى تنظيم قوته البرية والبحرية : فبعد أن كان جيشه ٢٠ ألفا جعله بارشاد سليمان باشا — الكولونيل « سيف » — القائم تمثاله في وسط القاهرة وفي الميدان المعروف باسمه — والجنرال ليفرون والجنرال بوايه والكولونل جودان مئة ألف . فدرّب على أحسن الأساليب والأنظمة الحديثة ووضع نظام القرعة ليكون الجيش مصريا بحتا ويتخلص من متطوعة الارناؤوط والجر كس وسواهم ممن لا يستطيع الركون إليهم . ووجه عنايته إلى الاسطول كما وجه هذه العناية إلى الجيش ووكّل إلى الأميرال بيسون إنشاء الأسطول كما ووكّل إلى الكولونيل سيف تأليف الجيش ولكن مصر الواقعة على البحرين الأبيض والأحمر بحاجة إلى أسطولين بحريين ومصر الجارى النيل في وسطها بحاجة إلى أسطول نهري ليصل عليه إلى السودان فأنشأ الأساطيل الثلاثة .

ولما كلفه السلطان باخماد ثورة الوهابيين الذين استفحل أمرهم فهدموا المساجد والمزارات والقباب في الأمّا كن المقدسة وانتزعوا الزينات كالأواني

والمصاييح والقناديل من الذهب الخالص و ٥٠٠ لوح من النحاس مصفحة بالذهب و ٢٠ سيفاً مرصعاً بالجواهر عدا الطنافس من الروضة المطهرة . وأخذوا اللؤلؤة الكبيرة وهي بحجم البيضة وكانت معلقة فوق الضريح الشريف . باسم «الكوكب الدرى» . لما كلفه السلطان باخماد فتهم لم يربدا من إنشاء أسطول البحر الأحمر فكان يعد قطع الأسطول فى الاسكندرية ويكلف عشرة آلاف بدوى بحملها إلى السويس حيث ركب ثمانى عشرة سفينة فى مدى شهرين فقط يتراوح محمول وحداتها بين مئة طن و ٢٥٠ طناً وكان العمال بالسويس أكثر من ألف عامل من أفرنج وأروام وجعل مخازن المؤن بالقصير ومخازن المهات الأخرى بالسويس وكان محمد على يقطع المسافة بين القاهرة والسويس فى ١٨ ساعة وكانت القوافل تقطعها فى ثلاثة أيام .

ولما استفحل أمر الثوار اليونان ومزقوا جيش خورشيد باشا الذى كان يناوئ « محمد على » فى مصر وعدد هذا الجيش خمسون ألف مقاتل انتحر بعد الانكسار قائده ودمر اليونان المراكب التركية — طلب السلطان برسالة تاريخها ١٦ يناير ١٨٢٤ من محمد على أن يرسل جيشه إلى الموره لآبادة العصاة ولما تلا بوغوص بك وزير خارجية محمد على على موله كتاب السلطان صاح فى وسط الديوان « فليضع الله جميع تيجان الأرض على رأسك . انك أهل لذلك وجدير به وإنك الآن بطل أفريقيا وبونا برتها » لأن استنجاد السلطان بالوالى كان أمراً عظيماً جداً .

وفى ١٠ يوليو ١٨٢٤ قام الأسطول المصرى من الاسكندرية وهو مؤلف من ٦٣ سفينة حربية ومن مئة سفينة نقالة ترفع أعلام الدول ما عدا فرنسا ونقلت هذه السفن الأورط المصرية المنظمة على النظام الحديث وهى أربع أورط

وأربعة بلوكات من مهندسى الطرق و ٧٠٠ جواد بأمرة حسن بك ومدافع
الحصار والميدان وكان اسمعيل آغا يقود الأسطول ويقود الجيش ابراهيم باشا
فبعد أن قهر ابراهيم الثوار بمعاونة الجيش التركى اتفقت الدول الثلاث
فرنسا وروسيا وانكلترا على انقاذ اليونان .

وأبلغوا ذلك ابراهيم باشا فأجابهم ان الأمر للسلطان ولوالده ورفض
السلطان وساطة الدول وصدر أمر محمد على لابراهيم بمواصلة القتال وأرسل إليه
٩٢ مركبا عليها أربعة آلاف جندى نظامى وكان أسطول ابراهيم مؤلفا من
سفينتين كبيرتين سلاح كل واحدة ٨٤ مدفعا و ١٢ فرقاطة كبيرة سلاح كل
واحدة ٦٥ مدفعا و ٢٧ سفينة صغيرة و ٤١ نقالة فاجتمعت هذه السفن المصرية
بالسفن العثمانية واصطفت على شكل هلال وفى ٢٨ أكتوبر ١٨٢٧ دخلت
أساطيل فرنسا وانكلترا وروسيا بين الأسطولين المصرى والعثمانى ولم يبد منهم
العدوان ولكن سفينة انكليزية تحرشت بنسافة تركية فوقع القتال بينهما وظل
محرم بك قائد الأسطول المصرى على الحياد ولكنه اضطر للاشتراك بالمعركة
التي دامت أربع ساعة وأنقذ ابراهيم باشا وأصلح من أسطوله سفينة كبيرة
وست فرقاطات وعشر زوارق مسلحة و ٣٥ مركب نقل — هذا كل ما بقى
من الأسطول المصرى .

وفى شهر إبريل ١٨٢٩ وكل محمد على إلى المهندس البحرى سريزى ترميم
أسطوله وإنشاء أسطول جديد بمعاونة المسيو بيسون وكان يستخدم فى بناء
الأسطول أربعة آلاف عامل من رجال الصعيد الأشداء يرشدهم مائتا عامل
أوروبى من عمال البحرية وإنشاء الحياض ودار الصناعة لصنع السلاح
والذخائر ويشرف على العمل بنفسه فيكفى المجتهدين ويوبخ ويعاقب المهملين
حتى تمكن من أن يرسل لحصار عكا خمس سفن ضخمة سلاح كل واحدة

مئة مدفع ومن فرقاطات عديدة قطعت البحر على الامداد التركية فاسرت
سفينتين روسيتين تحملان الذخائر والمؤن لعكا وسفينتين نمساويتين تحملان مثل
ذلك لطرابلس وفرقاطة تركية وزورقين مسلحين في خليج الاسكندرونة ونقلت
سفن الأسطول آلايين مصريين من الحامية المصرية في كريد إلى سوريا

ولما اتجه السر عسكر حسين باشا بقوة من الأناضول إلى سوريا صدر
الأمر السلطاني إلى قبطان باشا بأن يسير بالأسطول إلى الاسكندرونة وكان
هذا الأسطول مؤلفا من سفينتين كبيرتين سلاح كل واحدة ١٤٠ مدفعا ومن
أربع سفن سلاح الواحدة ٦٥ مدفعا ومن ٨ فرقاطات مختلفة الحجم ومن عشر
طرادات صغيرة و ٨ زوارق مسلحة وزورقين صغيرين ومركب بخارى و ٤٥
نقالة من مراكب الأمم الأخرى فأصدر محمد علي في ١٤ يوليو أمره إلى
أسطوله بالخروج ومقابلة الأسطول التركي وكان أسطول مصر مؤلفا من ثلاث
سفن سلاح كل واحدة مئة مدفع ومن خمس فرقاطات سلاح كل واحدة ٦٠
مدفعا ومن فرقاطتين سلاح كل واحدة منهما ٥٢ مدفعا ومن ٥ طرادات سلاح
الواحدة من ٢٢ إلى ٢٥ مدفعا ومن ٨ نسابات سلاح الواحدة من ٨ إلى ٢٠
مدفعا ومن ٢٠ نقالة و ٦ حراقات ومدفعية بقيادة عثمان باشا والأميرال
وسطوش بك وكيله واستخدمت تركيا باخرتين نمساويتين وأخرى روسية لنقل
أخبار الأسطول المصري إليها واستخدمت مصر باخرة فرنساوية وأخرى
انكليزية للغرض ذاته . وكان قيصر روسيا قد تظاهر بعداوة مصر فسحب
قنصله من الاسكندرية وحرّم على السفن الروسية خدمة مصر

ولما وصل الأسطول التركي إلى رودس انقسم قسمين قسم ليقل الرجال
والمؤن الى جهة الاسكندرونة لتعزيز قوة السر عسكر وآخر لجأ الى لارانسكا

في سواحل قبرس و بعد قليل وصل الأسطول المصرى الى ليماسول في الجانب الآخر من قبرس

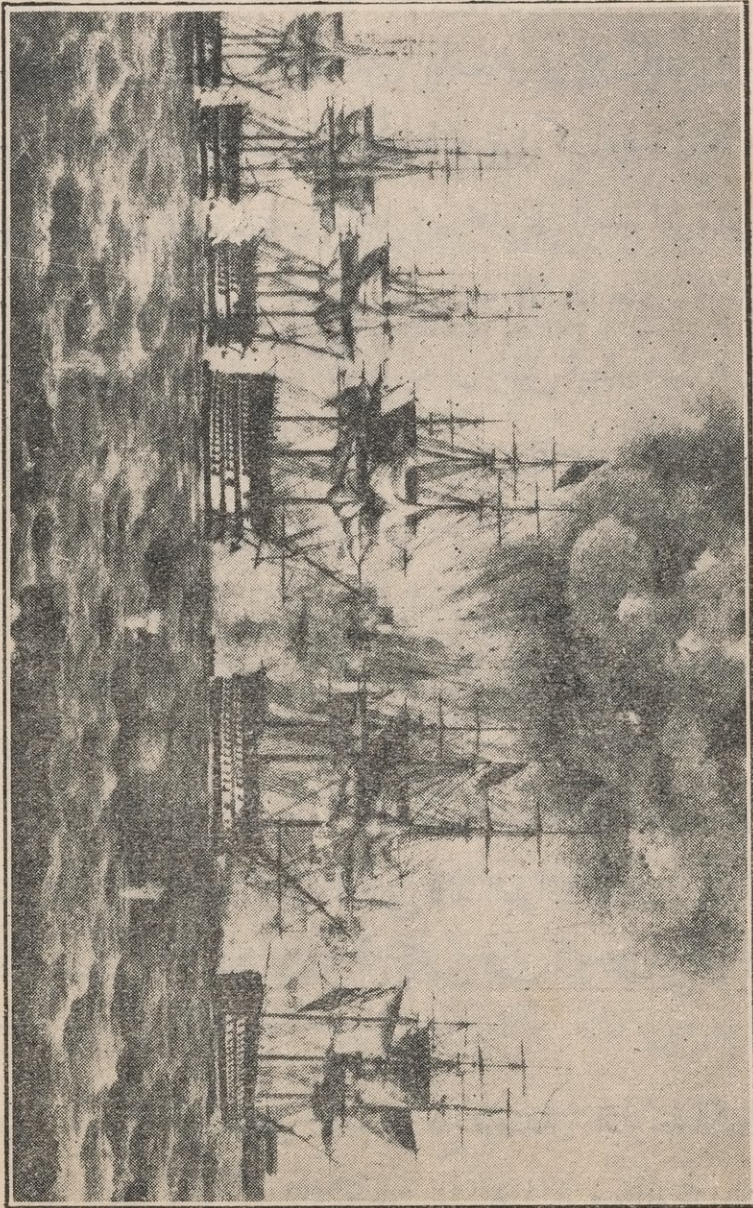
وأخذ الأسطول المصرى زورقين حربيين من زوارق الأسطول التركى بلا قتال والتقت بعد ذلك فرقاطة مصرية بطرادة تركية سلاحها ٢٦ مدفعاً فقبضت عليها بلا قتال الا طلقة واحدة أطلقتها الطرادة

وكان عشرون مركبا قد أنزلت المؤن والذخائر في الاسكندرونه فاستولى عليها المصريون بعد انتصارهم في حلب لأن هذه المراكب وصلت متأخرة والذى يؤخذ من تقارير بعض القناصل أن محمد على أصدر أمره الى أسطوله في قبرص بأن يرقب الأسطول التركى ولا يهاجمه الا إذا حاول انزال الجنود في الجزيرة وفي تقارير قواد السفن الأوروبية ان خليل قبطان باشا كان يتعاشى لقاء الأسطول المصرى وان هذا الأسطول انتقل من ليماسول الى لارناكا بعد خروج الأسطول التركى منها متجها الى سواحل كارامانيا حيث اتصلت به في أغسطس إحدى السفن الحربية الفرنسية فقال قبطان باشا لقائد تلك السفينة انه لا يتوخى قتال الأسطول المصرى إلا إذا اصطدم به لأن لأسطوله مهمة أخرى

وفي ١٨ أغسطس التقى الأسطولان ولكنهما لم يقتتلا لأن الأسطول المصرى توارى تحت جناح الظلام بلا قتال ولما التقى قائد الطرادة الفرنسية بالأسطول التركى في ٢٤ أغسطس قال له انه يفضل أن يكون تحت حكم محمد على على أن يكون تحت حكم السلطان

وفي أوائل شهر سبتمبر أرسل محمد على مع قومندان البارجة الانكليزية التى كانت تنقل اليه الأخبار كتابا الى قبطان باشا يقول له فيه انه قد حان الوقت لحقن دماء العثمانيين وانه يود تلافى الخطب الذى يهدد السلطنة اذا رفض

السلطان أن يترك له حكم سوريا مقابل الاتاة اللازمة كما كان يحكم تلك
البلاد الباشاوات الذين تقدموه فارسل خليل باشا الرد بانه من رأى محمد على باشا
و بأنه أرسل كتابه الى استامبول وسيرسل اليه الرد وطلب من محمد على أن يرسل



السلطان المصيرية في مرفئة توارين

لفصل السادس

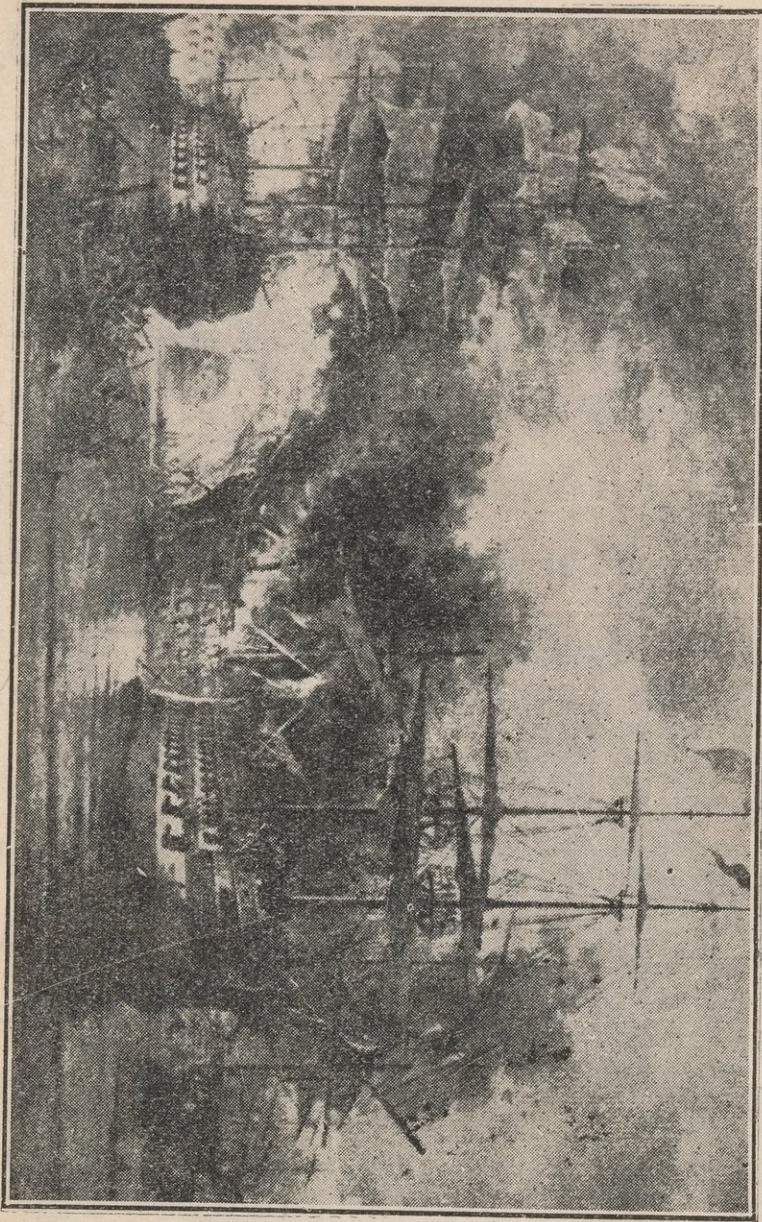
آخر المعارك في أرضه سوريا - الزحف على قونية وفتحها - على ابواب
استمبول - تحرك السياسة الأوروبية - تدخل اورو باوفر ضرها الصالح
اتفاق كوتاهية

كانت معركة مضيق بيلان بين حلب وانطاكية في ٢٩ يوليو أشد المعارك
وأخرها في أرض سوريا . وبعد انتهائها سلمت انطاكية والاسكندرونة ووصلت
حامية اللاذقية فسلمت وقد تركها قائدها عيش باشا لاجئاً إلى إحدى الجزر
بامواله . وقد عرفنا أن ابراهيم باشا غنم في ماغنم في الاسكندرونة حملة ١٧
مركباً كانت ترافق الاسطول العثماني بقيادة قبطان باشا وتحمل المؤن والذخائر
إلى جيش السر عسكر حسين باشا

على أن عباس باشا ظل يطارد العساكر التركية المنهزمة ومعه الفرسان
العرب فلما وصل إلى بياس انتصر على حاميتها وأسر منها ١٩٠٠ رجل
ثم تقدم جيش ابراهيم باشا نحو أدنه لأنها كانت مرمى انظار محمد علي
لشدة حاجته إلى الخشب لبناء المراكب فاحتل ابراهيم باشا طرسوس ودخل
أدنه ذاتها في ٣١ يوليو ١٨٣٢ وهناك تلقى ابراهيم الأمر من والده بالوقوف
لأنه بلغ الغاية التي كان يرمى اليها من الزحف أي الوصول إلى آخر حدود
البلاد العربية وأول بلاد الأناضول أي جبال طوروس

وقف ابراهيم عن الزحف ولكنه أرسل الآيين إلى أورفه التي كانت قد
قدمت له طاعتها وأرسل مع الآيين قوة من الفرسان العرب ليرقبوا الطريق
من أرضروم وسيواس وديار بكر فاحتلوا مدينة مرعش وأرسل قوة أخرى نحو

الفرات — وان لم يكن يخشى أية قوة تركية هناك لأن العراقيين ثاروا على واليهم



الطبل المصرية في نوردين

داود باشا فقتلوه وقتلوا معه جميع أنصاره أشدة ظلمه وجوره وكانوا كسواهم من

العرب في صف إبراهيم باشا —

ثم ظل ابراهيم من ٣٠ يوليو إلى ٢١ ديسمبر في موقف الدفاع لأن محمد على كما قلنا كان يريد جس نبض الدول ليعرف هل بإمكانه الاعتماد عليها لتنبيله سوريا ويظل تابعا للسلطان على نحو ما كان قد اقترح على فرنسا وانكلترا بعد دخول جيشه مدينة حلب . وكما كان قد كتب إلى قائد الأسطول التركي ولم يتلق جوابا

أما السر عسكر حسين باشا الذي كان موضع ثقة مولاه السلطان فأغدق عليه انعاماته وجعله قائدا عاما لجيشه ولقبه بالمشير الأكرم وولاه مصر وكريد وبلاد الحبشة ، فقد كان عند نشوب معركة بيلان واثقا بالنصر جالسا جلسة الملوك في خيمته يتلقى مظاهر الاجلال والاكرام ، ولكنه لم تمض ساعتان على نشوب القتال حتى بات طريدا شريدا بين المضايق والأكام ، فلم يقفوا له على أثر ولا سمع عنه أى خبر ولكنه شاع عنه الكثير مما لم يثبت منه شيء ، فقال فريق انه استأجر مركبا يونانيا ففر بأمواله وأموال الجيش إلى إحدى الجزر ، وقيل انه لجأ إلى قرية صغيرة في بورصة ، وقال آخرون ان رجاله فتكوا به وأخفوا أثره

والظاهر أن الباب العالي صدق الرواية الأولى فكلف إحدى السفن الانكليزية أن تبحث عنه في الجزر وتستعيد منه الأموال ، ولكنه ظهر في النهاية أن الرجل أصيب بالرمد الصديدي وفقد نظره في إحدى مزارع ولاية يروضة .

كانت عين محمد على متجهة إلى انكلترا وحدها لمعرفة أن فرنسا تؤيده في أن يكون والى سوريا ، وأن الروسية تظهر العداوة له حتى اقترحت ارسال جيش روسي لقتاله ، وأن النمسا تخدم سياسة الباب العالي

أما انكلترا فانها لزمّت الصمت التام لأن سياستين قويتين كانتا تشدان أطراف الخطة التي يجب عليها اتباعها . فالخطة الأولى هي أن تدع محمد علي يؤسس الدولة العربية الفتية القوية لتكون حاجزاً في وجه التيار السلافي الذي قضى على الدول بأن تصون تركيا من الضياع لصدد ذلك التيار ولكن تركيا ظهرت يومئذ بمظهر الشيخوخة والعجز

والخطة الثانية هي الاحتفاظ بتركيا وتقويتها لتظل ذلك الحاجز وهدم الامبراطورية المصرية النابتة لأنها إذا عاشت تمتلك آسيا وافريقيا وبذلك تقوم حاجزاً قوياً على طريق الهند الذي كانت قد زحزحت عنه نابليون في سنة ١٧٩٨ وجاء محمد علي النابغة الأُمى — كما يسمونه — ليتم خطة نابليون فانك هما الخططان اللتان كانتا تقضيان على انكلترا بالسكوت إلى أن تعرف الجهة التي تتجه إليها

بينما كان محمد علي يريد تنظيم عمله على اتجاه السياسة الاوربية — وقد كانت هذه السياسة غامضة من جانب انكلترا للسبب الذي بسطناه — كان ابراهيم يرى السياسة بالحزم وأخذ الأمور بالقوة والقوة في يده وايقاف الدول أمام الامم الواقع . لذلك كان يستأذن والده بالزحف على قونيه بل على الاستانة ويستأذنه في أن يحمل خطباء المساجد على القاء الخطبة باسمه فكتب محمد علي الى ابنه ابراهيم في ٨ سبتمبر مايلي

« تقول لي في كتابك انك تريد أن « تسك المعدن وهو حام » وانك تريد أن يخطب باسمي في جميع المساجد والمعابد

« فاعلم يا ولدي اننا لم نصل الى مركزنا الذي نشغله الآن الا بقوة الوداعة وخفض الجانب . فانه يكفيني أن أحمل اسم « محمد علي » خالصاً من كل رتبة وزينة فهو أكبر لي من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو

الذى خولنى الشرف الذى يجلالى الآن فكيف أستطيع يا ولدى أن أتركه الى سواه
لا يا ولدى انى أحفظ اسمى « محمد على » وأنت يا بنى تحفظ اسمك « ابراهيم »
وكفى وعليك رحمة الله وبركاته »

ولما عرفت فرنسا بنخطة ابراهيم أبلغت الميسو ميمو قنصلها لدى محمد على
بأن يبلغه :

« ان الحملة الجديدة بعد نجاح الأولى نجاحاً باهراً تفضى الى توزيع نطاق
العمل الذى اختطته مصر لنفسها عند تجريد حملة سوريا وتكون نتيجة ذلك
جعل مصير تركيا فى كفة الاقدار وهذا مالا يخلو من الخطر عليك »

وأبلغت الباب العالى فى الوقت ذاته أن اصراره على القتال لا يوصله الى نتيجة
لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بمروراً و برراً

هذا البلاغ أبلغته فرنسا لمحمد على ولكن عين ابراهيم كانت على الترك بعد
احتلاله أطنه ومعابر جبال طوروس لأنهم أخذوا بتحسين « تشفت خان
وأولو قشلاق » ويبدون النشاط فى كل جهة حتى أن الباب العالى رفض
وساطة فرنسا بحجة أنه لا يستطيع المصالحة مع وال اعتبره بالأمس ثائراً وعاصياً
وأصدر فتوى بكفره

ذلك كان الرد الرسمى مع أنه أرسل إلى محمد على أكثر من مرة يمينه
بالصلح والرضا ويطلب منه الحضور للاستئانة فيلح محمد على فى ذلك الخديعة
ونصب الشراك

فقد ذهبت إلى الاستانة زهره هانم أرملة الأمير اسمعيل ثالث أولاد محمد
على لزيارة والدها عارف افندى قاضى عسكر الأناضول فقالوا انها رسول محمد
على للتقرب من السلطان ورجال الدولة بواسطة والدها وقد توصلت الأميرة
إلى معرفة الحقيقة وهى أن السلطان لا يريد الصلح وانه لا يستمع نصيحة أحد

فيه لاعتماده على روسيا وانكلترا مع كل أعماله في هذا السبيل يريد منها
المطالبة والتسوية ليؤلف قوته الجديدة وأرسل محمد على السفينة الحربية
« النيل » لتعود عليها إلى مصر فاتحفاها السلطان بالهدايا النفيسة وتبرع بالمال
لرجال السفينة وأرسل معها أحمد فوزى باشا أحد أميرالية البحر فلما وصلت
السفينة إلى الاسكندرية تغافل محمد على عن وصول فوزى باشا ولكنه أمر كاتبه
سره حبيب افندى باكرامه وظل فوزى باشا في الاسكندرية إلى أن تلقى أمراً
من السلطان بالسفر إلى القاهرة ومكاملة محمد على بالصلح وجمع السلطان ديوانه
وأبلغهم ذلك فكان جواب أحدهم برتو باشا أن ذهاب فوزى باشا إلى مصر
لمقابلة محمد على كذهاب الحمل إلى الذئب الكبير المعمر في وكره ليعوده ويتمنى
له الصحة فهل تكون للحمل من أمنية إلا السلامة من مخالبه ؟

ثم اتفقت كلمتهم على ارسال صارم افندى فلما استدعى فوزى باشا إلى
الاستانة أرسل إلى محمد على يقول : « إياك وخفض الجناح لمن يرسل اليك
واحفظ عليك نفسك »

ووصل صارم افندى بحاشية كبيرة فأكرم محمد على وفادته وكان يتردد على
محمد على ليقنعه أولاً بالذهاب إلى الاستانة ثم عرض عليه ولاية عكا وطرابلس
فأجابه محمد على أنه يطلب بقاء ما فتحه من بلاد الشام في ولايته وولاية ذريته
على أن يدفع الاتاوة لجلالة السلطان

ولما عاد صارم افندى إلى الاستانة تلقى محمد على أن السلطان يوليه مصر
وعكا وطرابلس ويولي ابراهيم ولاية الحرمين الشريفين ، فأدرك محمد على أن
المراد التفريق بينه وبين ابنه كما أرادوا يوم أنعم السلطان على ابراهيم برتبة
فوق رتبة والده مثل هذا التفريق ولكن الخدعتين لم تجوزا على محمد على ولا

على ابراهيم وكان جواب محمد على أنه ينتظر مندوباً من لدن السلطان ليرسل
لمناقشته سامى بك وبوغوص يوسف سكرتيه فلم يتلق جواباً

لما احتل ابراهيم باشا أدنه أبقى معه من جيشه فيها ١٢ ألفاً من المشاة
والفرسان وأرسل قواته لضبط معابر جبال طوروس وما كان وقوفه في أدنه
إلا إطاعة لأمر والده الذى أراد أن ينهى الخصام والقتال مع السلطان على أن
تكون سوريا في ولايته وعلى أن تكون الولاية متوارثة في بيته مقابل اتاوة
يدفعها في كل سنة لتركيا

على ان ابراهيم لم يضع الوقت سدى فقد انصرف إلى إصلاح أمور جيشه
وتعزيز ذلك الجيش وكتب الموسيو ميمو قنصل فرنسا في الاسكندرية إلى
حكومته في ٢٤ سبتمبر يقول : « ان الأسباب التي دعت ابراهيم إلى الوقوف
في أدنه وإلى عدم متابعة نجاحه هو انتظار الجواب من والده على بعض المسائل
وأن والده ينتظر الجواب على مساعيه لانهاء القتال . ولكن هذا القائد الذى
لا مثيل لنشاطه وحزمه يستخدم مدة إقامته في ذلك الاقليم لاستخراج خيرات
غاباته الكثيفة لأن في احراج أدنه من الأخشاب الصالحة لبناء المراكب
ما لا يوجد في سواها ودار الصناعة في الاسكندرية بحاجة شديدة إلى ذلك
وقد أرسل عدد كبير من عمال دار الصناعة لاختيار الأخشاب الصالحة وجمع
ابراهيم سكان ذلك الاقليم لقطع الأشجار التي يرى عمال دار الصناعة قطعها
ولفتح الطرقات في أنحاء ذلك الاقليم ونقل الخشب و ينتظر أن تصل إلى
الاسكندرية بين ساعة وأخرى مشحونات كبيرة »

« وأما تعزيز الجيش فهو موضوع اهتمامه فاذا استؤنف القتال كان

جيشه ١٢٠ ألفاً حتى قال لى محمد على منذ بضعة أيام انه ينوى أن يجعل جيشه ٢٥ ألياً من المشاة بدلا من ٢٠ ألياً و ١٥ ألياً من الفرسان بدلا من عشرة ولا يدخل فى هذا الحساب فرسان العرب المصريين ولا رجال البدو السوريين وقد أدمج ابراهيم فى جيشه من الأسرى الترك أربعة آلاف أسير »

ظل محمد على ينتظر رد الباب العالى على كتابه الذى كلف قبطان باشا بإيصاله فوصل هذا الرد فى ٢٤ سبتمبر بامضاء خسرو باشا إلى قبطان باشا عدو محمد على لأنه أسقطه من ولاية مصر ولم يحمل هذا الرد أحد ضباط الأسطول التركى بل باخرة ماطية وهذا الرد من خسرو باشا إلى قبطان باشا يفهم منه أن الباب العالى يرضى ضم الشام إلى ولاية مصر على الشروط التى عرضها محمد على ولكنه يود أن يعرف الضمانات التى يقدمها محمد على على حسن نيته وعلى تنفيذ عهوده فرد محمد على ان وعده أكبر ضمانا وان كلمته كافية وكرر قوله انه يود وضع حد للقتال وسفك الدماء وانه لياسف كل الأسف أن يكرهه الباب العالى على أن يذهب إلى ما وراء الحد الذى وضعه نصب عينيه

وفى أثناء وقوف القتال الذى كان شبه « هدنة » كانت الصحف التركية التى تنشر بلغات أوربية تذيب أسوأ الأنباء عن جيش ابراهيم وعن حكومة مصر فكانت أقوال هذه الصحف تترجم لمحمد على فيرد عليها بالتركية. ولكنه رأى ذلك غير كاف فأتى ببعض المحررين الفرنساويين من باريز وأنشأ لهم جريدة بالفرنساوية للقيام بهذه المهمة

وبعد وصول كتاب خسرو باشا استدعى محمد على قنصل فرنسا وقال له « نحن لم نتجاوز أدنه عملاً بنصيحتم ونحن نبقى فيها إلى أن نعرف رد الباب العالى إلا إذا حكمت علينا الظروف وللظروف أحيانا أحكام لا ترد فنحن نريد السلام فاذا أرادوا الحرب فانى أنهيها كما عرفت أن أبتديها »

أما استامبول فانها كانت تماطل وتسوف حتى يحل فصل الشتاء وتستطيع

تأليف جيش كبير جديد ولكن ابراهيم كان ينتفض لغزو صبره فأرسل إلى والده يقول له : « انه ليس هناك لقطع الأخشاب ورؤوف باشا يجمع الآن بقايا الجيش التركي في قونيه » فاستأذنه بأن يزحف على قونيه ببعض الالايات ليفرق بقية ذلك الجيش وحدث محمد علي القناصل بذلك وقال لهم « أما الآن فانه لا يفعل أكثر من ذلك وهذا الجيش يعود بعد قضاء مهمته إلى أدنه فاذا لم تقبل الوساطة واذا ظل الباب العالي على المثل والتسويق فانه لا توجد قوة تمنع ابني المتقد حمية من الوصول الى أشقودره فاذا لم يستطع الوقوف هناك لقلعة المؤمن في بلاد خربها الظلم والجور فلا أستطيع أنا أن أقول ماذا تكون النتيجة »
ولكى نعرف الروح التي كانت سائدة في الأستانة في ذاك الحين وتحول ولاية الأمور عن رؤية الحقائق نورد خبرا أرسله البارون دي فارين سفير فرنسا الى حكومته في ٩ أكتوبر قال :

« جاءني اليوم الأرمني كاساس ارتين مدير دار الضرب وهي الدار التي توزع الأرباح الكبيرة على الباب العالي وعلى السراي وهو رجل مقرب وذو يد في شؤون الدولة وله نفوذ كبير .

فقال لي ان السلطان قال له منذ بضعة أيام ان ابراهيم باشا يريد ابرام الصلح معه ولكنه يشترط لابرام الصلح قطع أربعة رؤوس : رأس السر عسكر خسرو باشا ورأس مصطفى باشا ورأس المفتي الذي أصدر الفتوى ضد والده ورأس كاساس ارتين لأنه منع تداول النقود التي ضربت في مصر وهو لا يعجب من ذلك لشدة اخلاصه للسلطان ولكنه عند مسمع هذا الكلام من السلطان ذاته طار النوم من عيونه . وأرسل إلى الميسو اليون صديقه وسبب نعمته يوسطه لدى لأحول نقمة محمد علي عنه وانه لا يهتمه المال فاذا أنا شئت ارسال رسول الى محمد علي فانه يحمل به اليه الهدايا فظهرت له استغرابي من ذلك ولم أصدقه فعاد اليه روعه وشكرني

وهذه صورة مما يجري هنا من ضروب الاختراع وطرق الجواسيس وافساد
الجو بين محمد علي والسلطان

ولما كان الباب العالي يريد الاستناد الى احدى الدول لمقاومة محمد علي - وهو
يخشى روسيا ويخشى ان هو حالفها أن يلقي بنفسه في فم الاسد - عرض السلطان
وعرض ريس أفندي - الصدر الاعظم - على سترا فورد كاننج سفير
انكلترا في ١٢ أغسطس وهو مسافر الى لندن ابرام مخالفة دفاعية بين انكلترا
والباب العالي وغرض الباب العالي من هذه المخالفة المساعدة الادبية والمادية
ضد محمد علي ووصل ماوروياني سفير تركيا في فينا الى لندن في ٣ نوفمبر فجدد
هذا العرض وزاد عليه أن الباب العالي يتحمل جميع النفقات ويحول انكلترا
جميع الامتيازات التجارية التي تريدها فاجابت انكلترا أنها لاتستطيع الرد
العاجل على هذه الاقتراحات . وفي ١٣ ديسمبر وصل الى لندن نامق بك
السكرتير الخاص لجلالة السلطان وهو يحمل مقترحات جلالته فردت انكلترا
أنها لاتستطيع الاندفاع في عمل عسكري وانها تفضل الانتظار

بعد انتظار ثلاثة أشهر بلا عمل ولا حركة في ميدان القتال وبدون نتيجة
من الوجهة السياسية صمم محمد علي على ترك ولده ابراهيم يزحف على قونيه
لاعتقاده بأن فتح قونيه يفضي الى الثورة على السلطان لذلك أصدر أمره
إلى ابراهيم بأن يعود من قونيه بعد دخولها ولكن ابراهيم لم يكن في ذلك
على رأى والده . فوالده كان يقول بترك الرأى العام يفعل فعله في الاستانة وأما
هو فكان يقول بقيادة الرأى العام الى مايريد

ففي ٢٢ أكتوبر كتب محمد علي في ذلك إلى ابراهيم فرد عليه ابراهيم
في ٣ نوفمبر يقول :

« يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وعلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغتم الفرصة للزحف على قونية وقد يتجاوزها للحاق بنا مديماً خبر تقهقرنا ومن يدري ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب وقد تشور سوريا والأناضول علينا ويظل الغرض من تقهقرنا خفياً لا يفهم وبناء على ما تقدم لا ينبغي لنا أن ندع الفرصة تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهقره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منك يا والدي أن ترسل الإيمن من المدد في الحال »

« وسأطلب من خادم الفتوى فتواه في إعلان عزل السلطان »

فتلقى إبراهيم باشا من والده في ١٣ نوفمبر الأمر القاطع ألا يتجاوز قونية « لأن التقدم إلى ما وراء قونية في الظروف الحاضرة لا تنظر إليه الدول بعين الرضا . وفي ١٦ رد محمد على على كتاب إبراهيم باشا الذي كان قد أرسله إليه في ٣ نوفمبر فآقره على رأيه ولكنه يحرم عليه تجاوز قونية لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول . أما الفتوى بخلع السلطان فقد قال محمد على لإبراهيم أنها مناقضة لمصلحة مصر في الوقت الحاضر

ثم سلم بعد ذلك باستصدار الفتوى على شرط أن تكون صادرة من بلاد السلطان لا من مصر حتى يقال إن الشعب هو الذي أسقط سلطانه « ولا يعترض أحد علينا » ولكن الحجة لم تقنع إبراهيم باشا « لأن الأمة لا تملك المقدرة على العمل فالواجب أن نعمل نحن ثم نطلب ثقتها »

في ١٤ أكتوبر بدأت طلائع إبراهيم بالاتجاه إلى قونية فتقدمت فرقة من جيشه النظامي إلى غرود وأخرى من العربان إلى « تشفت خان » فانسحب الترك بلا قتال إلى أركلى وفي ١٥ أكتوبر دخلت قوة إبراهيم أركلى وظلت فيها إلى

٢٠ نوفمبر ثم نهضت تريد قونيه وقابلتها قوة أخرى من كرمانيا وقبل الوصول إلى قونيه أخلاها الترك فأرسل في أثرهم الفرسان فغنموا الذخائر والمؤن وبعض المدافع وبعد أن دخل قونيه أرسل قوة ومعها فرسان العرب فأدركت القوة المصرية الجنود التركية في طريق آك شهر فأخذوا بعض الأسرى وعادوا إلى قونيه التي أخذ إبراهيم في تحصينها

وفي ١٨ ديسمبر ظهرت طلائع الجيش التركي غربى قونيه بقيادة رؤوف باشا فدار القتال بينه وبين إبراهيم باشا ففرق جيش إبراهيم طلائع الترك وغنم ثمانية مدافع وأسروا منهم الفين وتجدد القتال في اليوم التالي فأسر إبراهيم ٧٥٠ مقاتلا ومعهم كريدلى محمد باشا وأوغلو وفي مساء ذلك اليوم تقدم ٥٠٠ ارناؤوطى متطوعين في خدمة جيش إبراهيم وبعد ذلك تلقى إبراهيم باشا الاخبار بأن رشيد باشا الصدر الأعظم قادم بجيش كبير لقتاله فاتخذ الأهبة لملاقاته

وفي ٢٠ ديسمبر تم النصر لإبراهيم باشا على جيش رؤوف باشا فلم يبق لذلك الجيش من أثر وأرسل الخبر إلى والده فأمر بأقامة الأفراح وإطلاق المدافع ثلاث مرات في النهار من جميع القلاع والطوابى مدة ثلاثة أيام . ولكن محمد على ظل متردداً في الزحف إلى الأمام ليعرف رأى انكلترا وكان يعتمد في ذلك على المستر بريجس صديقه والمستر بريجس كان في الماضى قنصلاً لدولته في الاسكندرية ولم يكن محمد على يثق بالقنصل المستر باركرو ويعدده خصماً لمصر كقنصل روسيا قبل أن تستدعيه حكومته . وكان يستند في الأمر التي يرسلها إلى ابنه إبراهيم بالارتداد عن الأناضول إلى آراء المستر بريجس . وكان محل بريجس في لندن يقدم لمحمد على حاجاته من انكلترا ويأخذ مقابل ذلك القطن والحاصلات ولما كتب محمد على إلى إبراهيم بالأعلان سقوط السلطان كما كان قد اقترح عليه وبأن يرتد إلى قونيه استند أيضاً إلى آراء المستر بريجس ، وكان قد وصل إلى

ابراهيم ان السلطان عين رشيد باشا صدرأ أعظم وولاه قيادة جيش كبير لقتاله
فيكتب الى والده في ٨ رجب ١٢٤٨ يقول:
يا والدي

« انك تصدر الى الأمر المطاع بناء على تقرير المستربريجس وغضب القومندان
الروسي بالأعلان سقوط السلطان وبأن أقف دون تجاوز قونيه
» فياوالدي ان السياسة السليمة هي قبل كل شيء درس الحالة كما هي
وتقدير نتائجها ثم الاقدام بعد ذلك على العمل بكل حزم دون التفات الى زيد
أو عمرو.

« فمذ عشرين يوماً أبحث لى اعلان سقوط السلطان والآن تحرمه على
فهما كانت فائدة الرجوع وتغيير الرأي من جانبنا ، لا يجوز لنا أن ننسى أن
جيشاً قويا باسلا مثل جيشنا لا يتحمل سياسة التردد وجس النبض وهي السياسة
التي لا تعرف الانتفاع من وراء الواقع على أن هذا الجيش لا يستطيع الوقوف
دهراً طويلاً مكتوف الأيدي ، ونحن ذهبنا الى قونيه اتباعاً لأوامرك فكيف
يكون باستطاعتنا العودة على أعقابنا بينما الصدر الأعظم يزحف علينا بجيش
قوى حسن النظام كثير المدافع

« فهل تظن يا والدي أو ترى أن مصلحتنا في الوقوف في قونيه أوفى الارتداد
عنها؟؟ وفي حالة انتصارنا على جيش الصدر الأعظم يكون قادراً على الارتداد
الى الوراء ثم لم شعث جيشه والارتداد اليها اذا نحن لم نقتف آثاره بعد النصر؟؟
وهل يجوز أن يخطر بخطرنا أن يكون الشعب الأناضولي في جانبنا وقد حكمه
الترك ستة قرون اذا نحن ظهرنا بمظهر التردد؟؟ الا يعد تقهرنا غلطة عسكرية
فظيعة؟ لقد أمرتني قبل الآن بأن أقف في حلب ثم سمحت لي بالتقدم الى
كولك بوغاز والى قونيه ، فدعنا الآن يا والدي نهدم جيش العدو الأعظم ، واعلم

أن هذه البلاد وجوها لا تشبه أرض مصر ولا جوها فهي ليست صالحة في كل وقت للأعمال العسكرية . وفوق هذا ان ما يقال في مصر لا يمكن تطبيقه على الحالة الفعلية هنا ، فلا يجوز إذن الأخذ بتقارير المستر بريجس ولا بملاحظات قومندان سفينة

« ومهما يكن من الأمر فاني أرى من مدعاة الأسف ان اضطر مرة أخرى للانتظار عشرين يوماً أى إلى أن أتلقى كتابك وأوامرك الخ »
وبالرغم من هذا الكتاب كتب محمد على إلى بريجس في ١٢ ديسمبر يقول :
« إن سكوت الانكليز هو من بعض الوجوه مفيد لمصر ولكنهم على ما يظهر ليسوا ميالين لتقدم ولدى ابراهيم نحو الاستانة في الظروف الحاضرة »
« ومهما يكن من الأمر فاني لا أود أن أعرف هل دخولنا استامبول لا يتفق مع نظر الحكومة الانكليزية ؟ »
فاذا أرادت انكسرترا أن تقف في موقفنا الحاضر فاني قادر على أن أكره النفس على ذلك »

وفي أبان ذلك وصل إلى مصر القومندان بوئينيف الروسي قائد الطراد باريز ليطلب محمد على بمحمول سفينة روسية ضبطها الاسطول المصرى ولما كانت العلاقات الرسمية مقطوعة لم يحيي المينا ولم تحيه وقدمه قنصل توسكانا لمحمد على ولما طلب منه ما جاء لأجله أجابه ان الامر متفق عليه مع القناصل بأن نصادر المحمول إذا كان لتركيا وندفع أجرة السفينة وإذا كان المحمول للأفراد كان عليهم اثبات ذلك . فارتضى بالجواب . فغم محمد على الفرصة وبسط له رأيه في الاتفاق مع الباب العالي ثم أراه دار الصناعة فقال لمحمد على « ماسمعت بمثل عملك إلا في القصص والحكايات » وهذا القومندان كان شقيق سفير روسيا في الاستانة فحمل الرسالة إلى أخيه بل قيل ان أخاه أرسله

يطالع على أعمال دار الصناعة وأرسل محمد على إلى ابراهيم باشا المدد المتوفر من فرقتين أتمتا تعليمهما ولم يبق من الجيش النظامي في مصر سوى ثلاث فرق وكان الصدر الأعظم يقول للسفراء أن ابراهيم كلما بعد عن مركزه ضعفت قوته ونحن ننتظر ضعف هذه القوة - وهو الآن على بعد ٢١٠ أميال من مصر - لنضربه بالضربة القاضية. وكان يريد بهذه الضربة القاضية تنفيذ المهمة الموكولة إلى السر عسكر الجديد رشيد باشا الذي كان سر عسكر الروملى فطرد من أدرنه مصطفى باشا وإلى اشقورده الذي شق عصا الطاعة على السلطان وكان الرجل يعيش عيشة عسكرية ولكنه لم يتلق فنون الحرب على الأساليب الحديثة كإبراهيم ولنفذه في بلاد الألبان والبوسنة أمره السلطان أن يجمع أكبر عدد يستطيع جمعه من البانيا والبوسنة وأن يأتى إلى الأستانة بالولايات الستة من المشاة والفرسان المحافظين على الولايات تحت إدارته وهذا القائد كان زميل إبراهيم باشا في حرب المورة ثم وجه إليه خطا شريفاً هذ نصه :

« تعلم أن حسين باشا عين سردار أكرم لقيادة العسكر الشاهانى المرسل الى آسيا ليؤدب التأديب اللازم العاصى محمد على . وان ولايات مصر والحجاز وكريد والحبشة وجهت اليه . ولكن الاقدار لم تساعد قترآى لنا اتحاد الوسائل الفعالة . وأملى بالله أن توفق في هذه المهمة طبقا لارادتنا الشاهانية كما وقعت في ألبانيا والبوسنة

ومنذ برهة من الزمن لم يكن بالاستطاعة الاهتمام بشؤون الرعية والاهالى ويهمنى من صميم القواد راحة رعاياى سكان سوريا وأمنى أن جميع الاعمال تقضى على سنن الشريعة المطهرة . وإذا أراد الله بعد ما تعيدون السكينة الى سوريا ترفعون الى عتبى أسماء الولاة والحكام الذين أحسنوا وقد اخترتموهم لادارة تلك البلاد والآن أعهد بها الى كفائتهم

وبما أنه لم يبق لحسين باشا من عمل في المعسكر ففي استطاعتكم أن تكتبوا
إليه ليعود إلى استامبول أعانكم الله بجاه النبي المصطفى »

وبعد هذا الخط سلمه السلطان خطا آخر بولاية مصر والحجاز وكريد والصعيد
وحلب وعكا والقدس وخطا شريفا ثالثا بالقيادة وذهب السلطان إلى المعسكر
باسكودار ووجه الكلام على مسمع من الجيش إلى رشيد باشا قائلا « أنقذ الدولة
فإن شكرى لك ولعسا كرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد »

ثم أصدر السلطان أمره باستدعاء الضباط الأوروبيين من الجيش عندما بلغه
خبر تدمير الأرناؤوط وسواهم من وجودهم فيه

وقبل أن يلتقي الجيشان في ميدان القتال كرر سفير فرنسا على الباب العالي
كلمة الصلح على قاعدة اجابة مطالب محمد علي وهي المطالب التي كان الباب العالي
يعد باجابتها فاجاب الباب العالي انه يعطيه الجواب بعد ثمانية أيام ففهم السفير
أن القصد من التسوية انتظار نتيجة المعركة ولما حدث في ذلك « ريس أفندي »
قال له ان المجلس موافق بالاجماع على اقتراحه ولكن الكرخيا برتو بك المقرب
من السلطان هو الذي يحول دون الاتفاق

وفي الوقت ذاته وصل إلى الاستانة الجبرال مورافيف الروسي وأبلغ السلطان
أن روسيا تضع أسطولها في البحر المتوسط تحت تصرفه لقتال محمد علي وانها
مستعدة لارسال جيش برى لقتاله

وفي الوقت ذاته تلقى محمد علي من شيوخ ولاية قسطنطين وأعيانها
الرسالة الآتية : -

« ان المسلمين الذين عيّنهم منذ عهد قريب خسرو باشا السر عسكر لحكم
هذه الجهات يرتكبون أشد المظالم ويحيط بهم رجال ملحدون مثلهم فهم
يلوثون الاسلام يخالفون أوامر الله وأحكام الشريعة المطهرة ولم يكن باستطاعتنا

احتمال هذا المسلك طويلا فنبهنا الى ذلك متسلما فلم يصغ الى كلامنا وزاد مع العمى المحيطين به غلوا وشكا الى الباب العالي الرجال النزهاء المخلصين ثم غادر مع أتباعه المدينة وأوقد الحرب على الأهالي ولم يدع فظيعة لم يرتكبها ضد الأهالي من قتل ونهب واحراق ومثل هذا الجور لم يكن الا ليزيد الاسلام حماسة في الصدور فسار المؤمنون بقيادة الحاج مصطفى آغا وقتلوا هؤلاء اللصوص وقتلوا المتسلم وأسروا رجاله وانسحب الباقون الى ثمانى ساعات من هنا والاهالي من كل جهة يسرون ضدهم وقد استولوا على مدافعهم وذخائرهم وقتلوا كثيرين منهم والباقون منهم خرجوا من الولاية منتظرين المدد من استامبول . فنحن أهالي هذه الولاية عزمنا على أن نترك الحكومة التي لا تستطيع أن تقدم لنا أقل ضمانة للامن والراحة ولا توفير الغبطة والسعادة التي ينعم بها الرعايا الذين أتقدموهم فنقدم لكم خضوعنا ونلتمس أن نكون تحت حمايتكم وأن تعينوا لنا متسلما يكون الحاج مصطفى آغا المشهور بحبه للانسانية وبنزاهته وبطول خبرته وأبلغ محمد على هذه العريضة المرسلة اليه من أعيان قسطنطيني إلى القناصل مبينا لهم أن المسألة لم تبق مسألة السلطان محمود ومحمد على . وأنه يرى حقنا للدماء وتفاديا عن الخطر الاكبر بذل وساطة الدول لاقتناع الباب العالي بالتسليم بالامر الواقع وبين لهم أنه ليس هناك أقل أمل بنجاح رشيد باشا وكان محمد على يسارع في الوقت ذاته لارسال الامداد الى جيشه فأرسل بناء على طلب ابراهيم باشا الميرالاي كاني بك على رأس فرقة من ست أورط مشاة وأرسل اللواء محمد بك ناظر الجهادية على رأس فرقة أخرى وعين ابراهيم بك مدير المهمات ناظراً للجهادية والمهمات وكانت دار الصناعة قد أتمت بناء خمسة مراكز حربية فأمر ببناء خمسة أخرى وأرسل الخلع الى أعيان الشام وأرسل ٦٠٠ فارس من عرب الجوازي والفوائد و ٣٠٠ من عربان اولاد على وعين

سليمان آغا قبجي ناظراً لأعمال تحصين عكا وعين احمد باشا يكن رئيساً للقوة العسكرية بالحجاز لاسكان الفتن التي ظهرت هناك واللواء اسماعيل بك محافظاً لمكة وأرسل الى ابنه ابراهيم نشاناً من الألباس كتب عليه « لك عون الله » تذكاراً لفتح قونيه

ولما كانت الجنود المصرية قد تعبت من البرد أمر محمد علي معاملته بصنع الملابس الصوفية والأحذية وارسالها بلا ابطاء لراحة الجيش في فصل الشتاء وهكذا وقف ابراهيم في قونيه ينتظر وصول رشيد باشا ويدرب قواته على القتال ويمرنها على الطرقات وعلى الخطط التي وضعها مع أركان حربه

لما وصل الخبر الى ابراهيم باشا بأن رشيد باشا يزحف لمقاتلته بجيش كبير لجب . أرسل الى الأمير بشير أمير لبنان بأن يوافيه الى طرسوس وأرسل مراكباً حريباً لركوبه فلما وصل أبلغه أمر رشيد باشا وانه بحاجة الى جمع كل قواته من أطراف سوريا فهو يكل اليه أمر تلك البلاد ويطلق يده في تعيين المتسلمين فعاد الأمير بشير وتولى الأمر بنفسه وعين المتسلمين لصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية من أبناء عمه الأمراء الشهابيين وأبقى ابنه الأمير أميناً لدى ابراهيم باشا ليكون صلة الاتصال بينهم وقبل ابراهيم باشا المتطوعين من بلاد ادنه وكرمانيا وعاد الى قونيه وأخذ يمرن جيشه في سهول قونيه وجبالها ومعاربها على طرق القتال فيها وعلى تنفيذ الخطة التي وضعها

ولما وصل رشيد باشا الى الك شهر ونزل في قديم خان وهي على مسيرة ٩ ساعات من قونيه كتب الى الباب العالي أن الجيش المجتمع لديه يبلغ عدده ستين ألفاً وانه عزم على مهاجمة ابراهيم وانه أرسل ٢٠ ألفاً بقيادة سليمان باشا من سيواس للف حول ميسرة ابراهيم باشا من جهة كرمانيا وقال في تقريره ان

جيش ابراهيم باشا لا يزيد على ٢٥ ألفاً وان طلائعه أوقعت الخسارة بمقدمات
المصريين فقرحت استامبول لهذه الأخبار
على أن ابراهيم باشا أرسل قوة بقيادة أبو دبوس باشا لاحتلال قيسرية
والوقوف في وجه سليمان باشا

ولما وصل تقرير رشيد باشا الى استامبول صدر اليه الامر بالهجوم في الحال
على ابراهيم باشا فتقدم الى الامام ولما وصل الى يورغان لاديك كتب الى
ابراهيم باشا زميله في حرب المورة يقول:
أخي وعزيزي ابراهيم باشا

اني قد تلقيت من مولانا السلطان الأمر بمهاجمة جيشك وطرده من البلاد
التي يحتلها الآن فأنا أسألك باسم الله الذي نعبده جميعاً وباسم ما بيننا من
الصداقة والاخاء الا كففت عن إراقة دماء المسلمين فانك تعلم أن تبعة القتال
تقع بعد الآن عليك، فعليك أن تضع حداً لهذه الحرب بانسحابك مع جيشك
من بلاد احتلها بدون وجه من وجوه الحق «

فرد عليه ابراهيم باشا بقوله :

« أخي وعزيزي رشيد باشا

لا أقدر أن أصف لك مقدار أسفى لاضطراري إلى منازلة رجل أحبه وأجله
وقد تسنى لي أن أقدره حق قدره ولكن إذا كان صديقي وزميلي رشيد باشا قد
تلقى الأوامر بمهاجمتي من سيده ومولاه فان ابراهيم قد تلقى الأوامر ذاتها من
سيده وأبيه فهو ليس أقل منه رغبة في حقن دماء المسلمين ولكنه ليس في الحقيقة
سوى خادم مطيع فلا لوم علينا ولا تريب نحن الاثنين معاً ولسنا نحن - أنت
وأنا - بمسؤولين عن الدماء التي تراق ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا به
ولا سبيل إلى مخالفة ما أمروا «

بعد وصول هذا الكتاب إلى رشيد باشا زحف بجيشه إلى سهول قونية في ٢١ ديسمبر . وكان ابراهيم باشا يعرف أخلاق رشيد باشا في القتال ويعرف أنه ينقض على خصمه انتفاض الصقر فاتخذ ابراهيم الحيلة ليقعه في الشراك فتظاهر بالخوف من الاصطدام به وسحب قواته إلى ما وراء قونية في مكان يمكنه من إخفاء شطرين من قواته أحدهما على ميمنة رشيد باشا والآخر على ميسرته أما رشيد باشا فانه زحف بكل حزم وعزيمة صادقة على الصدر وكانت معركة شديدة جداً وكان عدد الفرسان مع رشيد باشا نحو عشرة آلاف انتقضت عليهم الجنود المصرية من كمينها على اليمين وعلى الشمال فأخذ أولئك الفرسان على غرة من كل جانب فذعروا وتفرقوا وأحدثوا الاضطراب وهجمت الجنود المصرية واشتدت المدافع المصرية بالضرب حتى إذا مادنت الشمس من الغروب كان جيش رشيد باشا قد تمزق كل ممزق .

قال ادوار جوين : كان الأتراك ثلاثة أضعاف المصريين في هذه المعركة إلا أنهم كانوا أضعف منهم في ميدان القتال لفساد التريينات العسكرية ولبسالة ابراهيم وسليمان بك وبراعتهم في تحريك قوات الجند . فقد ترك الترك بعد الانهزام في هذه المعركة اثنين وتسعين مدفعاً وثلاثة آلاف قتيل وعشرة آلاف أسير ووقع الصدر الأعظم وهو السر عسكر وهو مندفع بقوة بسالته وحماسته في ميدان القتال أسيراً في أيدي العربان المصريين وجرى إلى ابراهيم باشا فتلقاه بالاجلال والاكرام . ولما كان هذا القائد يعتقد أنه لن يعيش إذا انهزم جيشه فانه استودع كاتم سره مفاتيح الباب العالي ومفاتيح السر عسكرية ولما أوشكت المعركة ان تنتهي هجم بنفسه للقتال فتقدم منه بعض العساكر الذين خدموا تحت إمرته في بلاد المورة وقالوا له والدمعة تجول في عيونهم يا باشا لقد قضى الأمر ، فأجابهم « تشجعوا ولا تيأسوا مادامت في العروق قطرة دم فلا محل لليأس »

ولما نقل كلامه إلى أحد كبار الشيوخ في قونية قال « لما كشفت النباتات للقمح عن سر خواصها الطبية . لم يقل نبت واحد منها إن لي خاصة الشفاء من الموت . وقد كان محمد رشيد باشا في هذه المعركة لقمح ولكن دولتنا كانت الجثة الهامدة الخامدة »

وهكذا فقدت الدولة العثمانية في أقل من ستة أشهر جيشين كبيرين أحدهما جيش الباشاوات في حمص والثاني جيش رشيد باشا في قونية وقد قال الترك في تقاريرهم عن معركة قونية ان ابراهيم باشا خدع محمد رشيد باشا إذ بلغه أنه سيهاجمه في ٢٣ ديسمبر فخطر لرشيد باشا أن يتغده قبل أن يتعشاه فجم في ٢١ ديسمبر ووقع في شركه

ولقد اضطرب السلطان محمود وجزع لاندحار جيشه ولأسر السر عسكر فكتب إلى قيصر روسيا يطلب مساعدته وإمداده بخمس بوارج وست فرقاطات و ٤٠ ألف جندي وإرسال الجنرال مورافيف قبل ذلك إلى الاسكندرية لانداز محمد علي وكانت فرنسا وحدها تعارض في ذلك وتاج على السلطان بقبول شروط محمد علي الذي يتحول بعد قبول شروطه إلى أقوى مساعد للدولة وفي الوثائق المصرية المحفوظة « جورنال » كاتب السر عسكر الى محمد علي عن محادثة طويلة في ٢٦ ديسمبر بين ابراهيم باشا ومحمد رشيد باشا عن خلع السلطان محمود وتعيين ابنه عبد المجيد سلطاناً .

رشيد باشا — ولكن عبد المجيد افندي لا يزال طفلاً فهل تظن أنه قادر على تولى الحكم وتصريف الأمور

ابراهيم باشا — إن السلطان محمد الفاتح ارتقى إلى العرش وهو في السابعة من عمره وعبد المجيد أكبر منه سنًا الآن وعندى أن صغر سن الأمير لا فضل للدولة ومستقبلها . لأن أمراء السلطنة لا يتلقون الآن التربية والتدريب اللذين

يتلقاها أمراء الأمم فهم يربون في الحريم ويكبرون دون أن يكونوا ملين
بشيء من شؤون الدولة فاذا رقى عبد المجيد إلى العرش وهو قى يمكنه أن يمرن
بواسطة الرجال المدرين فينمو عقله ويصير رجلا كاملا يعرف واجبات
الأمّة والملك

رشيد باشا — هذا صحيح ولكن إذا بلغ السلطان ذلك قتل الأمراء جميعاً
ابراهيم باشا — الغرض الوحيد أن تنظم شؤون الدولة حسب مصلحتها وبما
أنه يجب أن يكون لكل أمة ملك يحكمها فنحن إذا فعلنا ما اقترحه عليك
نختار للأمّة السلطان الذي نقره على العرش فلا يكون في وسعه بعد ذلك
أن يقول « إن إرادتنا العالية قد اقتضت قتل أو نفي أو إبعاد فلان وفلان »
فاذا فعل بعد أن نصبه على الوجه الذي بسطته لك يكون مسؤولاً شخصياً
أمام الأمّة عن عمله وحينئذ تنفذ إرادة الأمّة بعزله
رشيد باشا — أنا أوافق على رأيك ولكن هل الأمّة الإسلامية على
استعداد لقبول هذا التغيير

ابراهيم — يجب أن نتظر المعارضة في أول الأمر ولكن الجميع ينتهون
بمعرفة أفضليته على سواه ويدركون أهميته وحينئذ يطلبون هم ذاتهم أن يوطدوا
الحكومة والحكم على أساس متين » اهـ . هذه المحادثة كان ابراهيم باشا
يقصد منها ضم رشيد باشا اليه في خلع السلطان
أقام ابراهيم شهراً في قونيه بعد انتصاره ولم يستطع مواصلة الزحف ومطاردة
بقية جيش رشيد باشا قبل وصول أوامر والده اليه والشقة بعيدة وهذا ما كتبه
إلى والده في ٢٨ ديسمبر

« أستطيع أن أصل إلى الأستانة ومعى محمد رشيد باشا وأستطيع خلع
السلطان حالا وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ
هذه الخطة حتى أتمكن باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا في

استامبول فالواجب أن نذهب إلى استامبول حيث نملئ إرادتنا وإني مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لا توصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الاشاعات التي تذيعها إلى غرض سياسي بأننا نهدد استامبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف في قونيه فلا نتقدم منها إلى الامام . فان قونيه بعيدة عن رجال الاستانة فهم لا يقبلون عقد الصالح معنا إلا إذا دخلنا عليهم في العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فانهم لم يقبلوا إبرام الصالح معهم إلا بعد وصولهم إلى جبهة بضاحية استامبول . فالواجب إذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرية وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا في البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التي قد تقضى إلى عزل السلطان وإذا نحن لم نفاح في إسقاط السلطان توصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا وأنا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول وإني لأسأل نفسي ما هو الداعي الذي دعا إلى إصدار تلك الأوامر إلى؟؟ أهو الخوف من أوروبا أم هو شيء آخر لا أعرفه؟؟

التمس منك أن تنيرني في هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا .

نعم إني التمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد »

فلما وصل هذا الكتاب إلى محمد علي سلم بنظرية ابنه ابراهيم وأذنه بالتقدم فنهض بجيشه من قونيه في ٢٠ يناير وكان برد الشتاء على الجيش المصري شديداً فقسمه ابراهيم شطرين ولم يصل هذا الجيش إلى كوتاهيه إلا في ٢ فبراير أى بعد ٥٦ مرحلة ولم يبق بينه وبين استامبول سوى ٥٠ مرحلة وقبل وصوله إلى كوتاهيه تلقى الأمر من والده بأن يقف عن الزحف وأن يكون وقوفه ساعة وصول الكتاب إليه فوقف في كوتاهيه وهو يعلم أنه ليس للسلطان جندي واحد في طريقه إلى استامبول وأن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إلى والده ليتفق معه ولكنه لم يكن يعتقد باخلاص السلطان فكتب إلى والده كتاباً مطولاً في ذلك

لفصل السابع

الجيش المصري على أبواب استامبول

المساعي لوقف الزحف - ما يطالب ابراهيم باشا مصر

بعد تدمير جيش محمد رشيد باشا في قونية تحولت المسألة من عسكرية إلى سياسية ، فالسلطان دُعي لوصول خبر الانكسار . وروسيا أرسلت الجنرال مورافيف ليعرض على السلطان مساعدتها البرية والبحرية لخوفها من تقلص سلطانها ونفوذها على الأستانة وانكسارها بعد رفضها مساعدة تركيا أعربت للنمسا عن خوفها من أن تنتهي المسألة بتقسيم تركيا . وتقسيمها يضع الموازنة بأوربا ويفضي إلى الحرب بين الدول . ورجال تركيا كانوا يكرهون طلب المساعدة من روسيا عدوتهم ، لذلك انحازوا إلى رأى فرنسا بمخاطبة محمد على بالصلح على أن يتنازل له السلطان عن ولاية عكا ودمشق وطرابلس وعلى هذا سافر خليل رفعت باشا إلى الأسكندرية ، وكان الجنرال مورافيف قد تقدمه لا للصلح بل ليطالب من محمد على أن يجلو جيشه عن تركيا وأرسل في الوقت ذاته بالمهمة ذاتها ياوره الضابط دوهامل إلى ابراهيم .

أما ابراهيم فانه عند ما زحف بجيشه من قونية إلى كوتاهيه كتب إلى والده الكتاب الآتي :

« اليوم (٢٠ يناير ١٨٨٣) بدأ الجيش ووحداته بالزحف من قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجبال للنقل . والنزى يستخلص من البرد الواردة من استامبول أنه لا توجد في طريقنا أية قوة تقاومنا . حتى استانبول ذاتها ليس فيها حركة الاستعداد للمقاومة وهذا يدل الدلالة الكافية على أنهم

قد وضعوا الآن جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هذا الصلح أرسلوا إليك خليل
رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليه علمى الضعيف ، أنه ما دام السلطان
محمود المشعووم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للأزمة
لأنه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام ويعمل لها كما كان فى الماضى
وللجور على هذه الأمة الاسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهذه الأمة .
وبحق غيرتنا الدينية أرى من الواجب الحتم علينا لا العمل لمصلحتنا فقط ولكن
العمل فوق كل شىء وقبل كل شىء لمصلحة هذه الأمة كلها ومن أجل ذلك
يجب علينا أن نرجع إلى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشعووم ووضع ابنه
ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من
سباتها العميق .

فاذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت لك اننا لا ندع لها الوقت
للتدخل وبذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعا ينفذ قبل أن يعرف
وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع . وإذا كانت أوربا تغتم الفرصة لاشباع
مطامعها من هذه الدولة فأية تبعه تقع علينا ؟ وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن
تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة ؟ ؟

الا إنا نسأل الله العون والمدد ومهما يكن من الأمر فان الأفضل أن يقع
اليوم ما لا بد عن وقوعه فى يوم من الأيام . ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك
عزمت على التقدم إلى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن عندى لتلقى شىء منك
أو من استامبول يحرم على التقدم . أما أنا فاذا بقيت هنا فانى لا أجد أقل وسيلة
لتكوين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هناك أرسل
إليك رسولا بما نكون قد قررناه تبعاً للظروف «

وقبل أن يصل إلى بروصة تلقى الأمر من والده بأن يقف وكان هذا الأمر

بعد وصول الجنرال مورافيف إلى الاسكندرية .

وصل هذا الجنرال إلى الاسكندرية في ١٣ فبراير وقابل محمد علي فلم يقدم له إنذاراً كما كانوا يقولون بل أعرب له عن رغبة القيصر في أن يتفق مع السلطان ولا بأس من أن تكون فرنسا الوسيطة فأجابه محمد علي باشا بأن هذا الذي يطلبه منه قد عرضه على السلطان منذ شهر نوفمبر ولكي يثبت للجنرال مورافيف حسن قصده وقع أمامه الأمر الذي أصدره إلى ابنه ابراهيم بالوقوف عن الزحف من قونيه . وقبل أن يغادر الجنرال مورافيف الاسكندرية وصل خليل رفعت باشا مندوب الباب العالي . وكانوا يظنون أنه يحمل شروط الاتفاق ، ولكنه ظهر أنه يحمل إلى محمد علي عفو السلطان عنه وولاية عكا وملاحقاتها . ولكن محمد علي كان على صداقة وولاء مع خليل رفعت باشا فاتفق معه على شروط الاتفاق وهي أن يعطى محمد علي ولاية سوريا وأدنه وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حداً لنزاعهما وأن يكون الاثنان بمثابة قيمين على املاك الدولة أحدهما في مصر والآخر في استامبول

أما ابراهيم فقد أرسلوا إليه من الأستانة ثلاثة رسل : الأول رسول الباب العالي ليلبغهم أنهم أرسلوا إلى والده رسولا للاتفاق والثاني رسول الجنرال مورافيف والثالث رسول سفير فرنسا . وقد روى بودوليا رسول سفير فرنسا أنه وجد ابراهيم يعيش في معسكره عيشة بسيطة وليس معه حريم ولا له حرم فهو في هذه العيشة يشبه نابليون وقد كان يقول انه يود ان يذهب إلى استامبول ليشرب القهوة مع السلطان ولا يهمه أمر الروس ولما طلب منه الجواب على إيقاف الزحف كتب في ١٧ يناير إلى المسيو دي فارن سفير فرنسا :

« أنا لست سوى قائد عام موكل إليه القيام باعمال عسكرية . أما ما عدا ذلك فاني أرجع فيه إلى السلطة التي أنا تابع لها فانا من أجل ذلك سأتابع زحفي

ولكنى أرجع فى الأمر إلى والدى فى الأسكندرية »

وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين والده محمد على أمر ممكن ولكنه كان متمسكا برأيه ولا يخشى الروس ولا يعبأ بقتالهم وكان يعتقد فوق ما تقدم بأن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم بل يكون بمثابة هدنة حتى يتمكن السلطان من العودة إلى القتال لذلك كتب إلى والده فى ٣ فبراير يقول :

« أرى أن يكون الاستقلال مقدماً على كل شىء فى المناقشات التى تدور بينك وبين الرسولين — مورافيف و خليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شىء ، وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن نطلب أضياليا وأدنه و جزيرة قبرص وأن يضم إلى مصر — إن كان ذلك فى الامكان — تونس و طرابلس . ذلك أقل ما يجب ان نطلبه ولا نتساءل عن أى شىء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكى نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فاذا لم نل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكثنا تحت يد هذه الحكومة الخبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة و بطلب المال . فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء المبهضة ولا نجد خلاصاً إلا بالاستقلال أما السبب الذى يدعونا لطلب أضياليا وأدنه فهو شدة حاجتنا إلى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن إنجلترا منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ إلى النمسا التى أزعمنا رفضها إزعاجاً لا نستطيع نسيانه . وهل من حاجة بى لأبين شدة حاجتنا إلى الخشب ؟ فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثاً » كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركى كذلك يجب

عليك أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب «
أما ضم قبرص إلى مصر فهو أيضاً لازم لا مندوحة عنه . لسببين : الأول
ليكون مركزاً لأسطولنا ، والثاني لمنع الباب العالي من أن يكون له طريق إلى
أملاكنا . وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على
بساط البحث على أن تتنازل عنها في المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع شيئاً وهي
كسائر بعيدة جداً عن مصر وتتطلب نفقات باهظة

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه اليه مع منتهى الاحترام أنظارك «
أما محمد علي فإنه كان يكتفى بسوريا وادنه بينما إبراهيم كان يتعرض إلى
تأليف دولة بحرية قوية . كان محمد علي يرى بمصر وسوريا وبلاد العرب والسودان
دولة كبيرة وبعيدة عن الاحتكاك بأوروبا خلافاً لإبراهيم الذي لم يكن يخشى
الاحتكاك بالدول الأوروبية

وفي ٣٠ يناير وصل الخبر إلى الأستانة بأن إبراهيم قام من قونيه إلى كوتاهيه
فأمر السلطان ريس أفندي بأن يقابل المسيو بوتيف سفير روسيا ويطلب منه
انجاز الوعد الذي وعد به القيصر وهو إرسال ٢٠ إلى ٢٥ ألف جندي ، ولما
وصل إبراهيم إلى قره حصار أي على مسيرة ٤٠ ساعة من بروصة طلب السلطان
من سفيرى فرنسا وإنجلترا إيقافه عن التقدم فاشترط سفير انكلترا أن يسترد
السلطان الطلب الذي طلبه من الروس ولكن محمد علي كان قد أمر إبراهيم
بالوقوف في كوتاهيه فأبلغ إبراهيم ذلك للقائمقام ولسفير فرنسا ووصل الجنرال
مورايف إلى استامبول من الاسكندرية وأبلغ الباب العالي أن محمد علي
أصدر أمره إلى إبراهيم بالتوقف أمامه ولكنه نصح الباب العالي بأن لا يغتر
بذلك وبأن يتخذ الحيطة ولكن سفيرى إنجلترا وفرنسا استندا إلى جهر محمد

على بالخضوع للسلطان و بأمره إبراهيم بالوقوف فطلبوا استرداد الطلب الموجه إلى قيصر روسيا ولكن الباب العالي لم يعدل عن ذلك

وقام الأسطول الروسي من سيستابول في ١٤ فبراير وصدر الأمر إلى الجنرال كيسليف باجتياز الرومللي بجيشه إلى الاستانة وصدر الأمر إلى قومندان أوديسا

بجيشه

وفي ٢٠ يناير وصل الأميرال روسين الفرنسي بأسطوله إلى الدردنيل وأبلغ الباب العالي أنه يدافع عن مصلحته أمام إبراهيم باشا إذا هو استرد طلبه من روسيا ، ولكن الأسطول الروسي وصل إلى البوسفور في ١٩ فبراير فأبلغ الأميرال الفرنسي الباب العالي أن وصول الاسطول الروسي يذهب عن الباب العالي كل استقلال وأن وجود السفير الفرنسي أصبح عبثاً

ولما وصل ذلك إلى ريس أفندي أرسل رسله إلى الأميرال يقنعه بأن يكون الوسيط بين إبراهيم ومحمد علي والباب العالي على أن يعطى محمد علي ولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس وأن الزيادة غير ممكنة لبقاء السلطنة . فارتضى الأميرال الوساطة على هذه الشروط وعلى شرط خروج الأسطول الروسي من المياه التركية . وكانت حجة الأميرال أن الباب العالي لا يستطيع التنازل عن ولاية دمشق لأن التنازل عنها يضعف سلطة السلطان الدينية أما أدنه فان السلطان بحاجة كمحمد علي إلى أخشابها

ولما وقع الأميرال وريس أفندي مشروع الاتفاق على ذلك في ٢١ فبراير كتب الأميرال إلى محمد علي وإلى إبراهيم كتابين قاطعين وطلب من محمد علي ان يستدعى في الحال جيشه لا باسم مصلحته فقط بل بحكم خلاصه وإيقاده لأن « الاعتدال صار لازماً لك والاصرار على مطالبك يوقع

عليك مصائب إذا زادت جزعت لها . فرنسا تتمسك بالعهود التي أنا قطعها
وهي تملك القوة وأنا ضمين لإرادتها »

وأرسل إلى إبراهيم باشا بأنه يجب عليه أن يعتبر الصلح مبرماً على الشروط
التي بحثها الباب العالي ولا يمكن تغيير أى شىء فى أساس هذه الشروط بل
الواجب قبولها وإيقاف القتال

وبعد ذلك طلب الباب العالي من سفير روسيا شكر القيصر على المساعدة
التي قدمها وأبلغه أن سفير فرنسا قد توسط للصلح الذي كاد أن يتم على يديه



الفصل الثامن

موقف الدول من مصر الفائزة - محمد علي يرفض مطالبها المشيئة

خوف انجلترا على طريق الهند

ظن الأدميرال روسين الفرنسي أنه بكتابة العهد الذي وقعه في ٢١ فبراير بأن يبرم محمد علي الاتفاق مع الباب العالي على أن يعطى عكا وصيدا وطرابلس ونابلس قد أنهى المسألة وقد أبعد الروس عن الاستانة ، لأن همه الوحيد انحصر بإبعادهم فقط عن عاصمة تركيا . وظن أن الباب العالي صادق بوعده بأن يطلب من الروس العودة من حيث أتوا وكانت سياسته مضمخة بريج البارود أى التهديد والوعيد بقوة فرنسا ففشل في كل ذلك لأن الباب العالي لم يطلب من روسيا إلا أن ترسل أسطولها إلى ميناء قريب من البوسفور حيث ينتظر وصول القوات البرية وغضب قيصر روسيا لعمل الأدميرال روسين حتى قال لسفير فرنسا لديه إذا أرادت فرنسا منازلتى وقتلتى فانا مستعد ولا أسمح أن تحل مسألة من مشا كل الشرق دون مشاركتى لأننى أقرب الدول إلى الشرق والشرق يهمنى ويكفى محمد علي أن تكون حدوده جبال طوروس

ورفض محمد علي ورفض ابراهيم الشروط التى وقعها روسين باسم حكومته وقد عرفنا أن الأدميرال روسين كتب إلى محمد علي بأن يستدعى قواته من الأناضول « لاجرم مصالحته فقط بل لأجل سلامته » فكان فى ذلك كمن يأمر أمراً

وأرسل مع مندوبه إلى الاسكندرية كتاباً إلى قنصل فرنسا لدى محمد

على المسيو ميمو « بأنه لا يصدق بأن ابراهيم يتعرض للتبعة الهائلة التي تقع عليه إذا هو تقدم ، هذا إذا لم يتقهقر ، والواجب أن يرسل اليه والده يريد أن يأمره بالوقوف »

وأغرب ما في موقف الأميرال روسين أن حكومته لم تكل اليه سوى الوساطة الودية بين الخصمين وكانت منذ أوائل ١٨٣٢ تقول باعطاء محمد علي سوريا كلها خلافا لما فعل مندوبها ، ولم يكتف الأميرال روسين بما تقدم بل خطر لها أن يصدر الأمر إلى قسم من الأسطول الفرنساوى بأن يذهب إلى المياه السورية ويقطع المواصلات مع ابراهيم باشا بحراً ولما طلب من زميله الانكليزى ماندفيل أن يحذو حذوه أجابه السفير الانكليزى انه يقره على ما فعل لأنه يتفق مع سياسة انكلترا ، ولكنه يعتذر عن إصدار الأوامر إلى الأسطول .

أما ابراهيم باشا فانه رد على كتاب الأميرال روسين بقوله « انه يقيم حيث يقيم الآن في كوتاهيه بأمر والده وانه لا يتقدم ولا يتأخر على هواه بل طبقاً للأوامر التي يتلقاها من مصر وحدها »

وكان ابراهيم قد وقف في كوتاهيه وأرسل جنوده فاحتلوا القرى والمدن الواقعة على اليمينه والميسرة وفي ١٩ فبراير ذاع في ازмир أن جيش ابراهيم باشا مقبل عليها فسلم واليها طاهر بك مقاليد الأمور إلى أحد أعيانها أمين افندى الذى تولى الحكم باسم ابراهيم باشا ووصل الخبر إلى الأستانة في ٢٤ فبراير فكان الجزع شديداً واغتتم الروس الفرصة لبقاء أسطولهم في البوسفور « دفعاً للخطر الداهم » وأرسل السلطان صنيعته احمد بك لزيارة الأسطول الروسى تملقاً إليه ولكي يثبت الأميرال روسين للسلطان بأنه متمسك بشروطه على مصر .

أمر قنصل فرنسا في ازмир أن ينزل علم القونصلاتو وحذا حذوه قناصل انكلترا

والنمسا وبروسيا. فلما رأى ذلك أمين افندى الذى يتولى الحكم باسم ابراهيم باشا أعاد مقاليد السلطة إلى الوالى طاهر بك .

استعاد حزب الروس قوته فى استامبول بعد تعيين رؤوف باشا صدراً أعظم لأن روسيا الدولة الوحيدة التى تستطيع مساعدة الباب العالى . فغضب لذلك الأميرال روسين وكتب إلى حكومته ان الدواء الوحيد لخلاص تركيا لا يكون إلا بنخلع هذا السلطان وقال إن الشعب فى سبات عميق فهو أعجز من أن يفعل ذلك . وفى ١٥ مارس أبلغ الأميرال الفرنساوى الباب العالى أنه إذا لم يتعد الأسطول الروسى بعد ٢٥ ساعة عن البوسفور فلا يكون مسؤولاً عن اتفاق ٢١ فبراير . ومن أجل هذا البلاغ جمع السلطان ديوانه وكلف ريس افندى أن يذهب إلى السفارة الروسية وأن يبلغ الجنرال مورافيف والأميرال لازاريف أن الاتفاق قد أبرم مع مصر فهو يأمل إعادة الأسطول الروسى إلى روسيا ، فأجابه الجنرال أن ابراهيم باشا لا يزال على مسيرة خمسة أيام من استامبول وأن باستطاعته أن يهجم عليها فأجاب ريس افندى أن لدى الدولة وسائل المقاومة وهذا ما أبلغه الباب العالى إلى الأميرال روسين ثم ظهر أنه لم يكن صحيحاً . أما نظر انكترا إلى اتفاق ٢١ فبراير فكان نظر الارتياح فكتب بالمرستون إلى ويليام كامبل سفير انكترا فى كابل يقول .

« إن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جداً مادامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق ؛ وفوق هذا يجب أن يثبت فى كل سنة فى ما أعطى له وان كان تثبيته فى ولاية مصر دائماً .

وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن بذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

« أضف إلى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند فهى أفضل

من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد نزوعا للعمل كثير الحركة .
فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله
وماليته فاذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء » اه
أما « فيينا » فإنها قابلت خبر اتفاق ٢١ فبراير بالارتياح وإن كان مترنخ
اتهم الأدميرال روسين بأنه عمل بلا حساب وبحكم الحسد ، الأمر الذى يجرح
روسيا ولولا اشتراط الأدميرال روسين سفر الأسطول الروسى من استامبول
لغادرها ذلك الأسطول بعد الاتفاق ولا يمكن أن تسكت روسيا على الجرح
الذى أصابها .

أما روسيا فكان جوابها أن القيصر لم يكن يحاول جراية منفعة ، أما بعد
الآن فان تركيا باتت فى قبضة روسيا ولا قيمة لاستقلالها بعد احتلال
الأسطول والجيش أملاكها .

وارتبكت السياسة الفرنسية لأن الاميرال روسين تجاوز التعليمات
فأوقفها موقف العداء تجاه روسيا وموقف الخصام لمحمد على ولم يكن باستطاعتها
أن تتجاوز عن كرامتها فتعلن استنكار عمل ذلك السفير الذى نفذ سياسته
الشخصية لاسياسة حكومته كما قال الملك لويس فيليب لكلوت بك عند ماقابله
ليبسط له خطأ سياسة الأدميرال روسين مع محمد على صديق فرنسا . ذلك
ما كان من أمر الدول فى اتفاق ٢١ فبراير

أما فى مصر فان الفكر السائد بعد وصول خليل رفعت باشا كان على
أن الصلح قد تم ولكن وصول رسول الأدميرال روسين يحمل اتفاق ٢١ فبراير
وكتب التهديد منه لمحمد على وابراهيم . وقع وقوع الصاعقة .

فالكبتن أوليفيه وصل إلى الاسكندرية فى ٣ مارس على البارجة مزانج
وفى اليوم ذاته قدمه القنصل ميمو إلى محمد على فقدم نص الاتفاق وكتاب

الاميرال روسين إلى محمد على وصورة من كتابه إلى ابراهيم . ففي الجلسة ذاتها أمر محمد على أمين سره بوغوص بترجمة ذلك وكان محمد على يقطع المترجم بعبارات الاستياء والاستنكار ولما ذكر المترجم « عكا وطرابلس والقدس » هز محمد على رأسه وضحك ضحكة الاستهزاء . ولما انتهى بوغوص من تلاوة الاتفاق والكتب قال محمد على :

« إذا كانت الدول التي يهملها أمر مصر أكثر من سواها قد تخلصت عنى بهذا الشكل فأنا أعتبر ذلك منها حكماً على بالموت . ولكنى أعرف كيف أموت شريفاً وكيف أجعل موتى مجيداً كما كانت حياتى مجيدة . وإني أقابل الحكم وسيبقى فى يدي وإذا أنا قبلت مثل هذا الثمن بعد نصرى فإن الباب العالى يعود بعد سنة أو سنتين إلى إصلاح قواته وإلى دس الدسائس التي أكون ضحيّتها فالأفضل أن أعرف كيف أموت منذ اليوم »

وكان الاميرال روسين يهدده إذا لم يقبل شروطه باستدعاء الضباط الفرنسيين من جيشه البرى ومن أسطوله . ويقول المسيو ميمو انه هو والكبتن أوليفيه تعباً فى إقناعه بان فرنسا التي عاوتته وهى تعجب به لا تريد به شراً . فظل على قوله « انه ضحية مكيدة يراد منها هلاكه » إلى قوله لهما بكل شدة :

— « انه متمسك بالمقترحات التي سلمها لخليل رفعت باشا وانه لا يحميد عنها قيد شعرة وهى اعطاؤه سوريا كلها وأذنه وانه هو وابراهيم ابنه يعرفان كيف يسقطان فى ميدان المجد والشرف »

قال المسيو ميمو : وعدت اليه فى اليوم التالى وبينت له أن نتيجة الرفض ستكون سيئة لأن فرنسا تستدعى من جيشه وأسطوله جميع ضباطها وان الأسطولين الفرنسيين والانسكايزى يطوفان السواحل المصرية والسورية . واستحلفه بأن يقبل الصلح فأجابته :

« ان ظهور الأسطول الروسى فى الاستانة مكيدة مدبرة بين رجال المايين والروس الذين اشتروهم بالمال . وهم غنموا فرصة وصول الأميرال روسين الذى يعرفون خلقه وتسرع له ليدفعوه فى ما اندفع فيه . وخسرو باشا هو عدوى وقد طلب الروس لاستامبول بينما كان مندوبه يفاوض هنا بالاتفاق . أما الآن فقد انتهى كل أمر فكيف تدخلت الدول الأوروبية الآن مع أن المتفق عليه معها كان ترك هذا النزاع العائلى وشأنه بل كيف يوقعون اتفاق ٢١ فبراير ويضمنون تنفيذه بغياب أحد الخصمين وكيف يجوز لهم أن يعتبروا الغالب مغلوبا ؟ أنا لا أصدق أن فرنسا وانكلترا تقدمان على هدم دولة تعد كل واحدة منهما وجودها مفيداً لها . وظهور الأسطولين الفرنساوى والانكليزى على سواحل مصر لا يمنع وجود الأسطول الروسى تحت سراى السلطان محمود »

« والظاهر أن أوربا تجهل مسألة مصر . فهم يظنون أنى أطلب الاستقلال وأنت تشهد أنى لم أطلب ذلك بل كان قصدى وغايتى النهوض بالسلطنة وتوطيد أركانها وأن أزيد أراضيتها وأن أضاعف قوتها بمضاعفة القوة المصرية وبهذه الوسيلة نحول دون غزوات روسيا وننهض بالأمة الاسلامية لتدفع عن بلادها التى يستولى عليها عدوها الطبيعى قطعة قطعة وشطراً شطراً »

رفض محمد على كإرفض ابراهيم قبله التسليم باتفاق سفير فرنسا والباب العالى وسلم محمد على فى ٨ مارس للكبتن أوليفيه رده على كتاب الأميرال وقد قال فيه :

« ان الأمة كلها فى جانبى وإذا أنا أردت اثارة الروملى والأناضول فانا قادر بالاتفاق مع الأمة على كل شىء . وقد بسطت سيادتى على جميع البلاد وانتصرت فى جميع المعارك ولما جاءنى من لسان حال الأمة ومن الذين يتكلمون باسمها أنهم يولونى حكم سوريا أوقفت جيشى عن الزحف حقناً

للدماء ولمعرفة ميول السياسة الأوروبية . فهل يكون اليوم ثمن الهوادة التي عملت بها بعد تلك الضحايا الكبيرة من أجل أمة دعنتى إليها وانضمت إلى وأنالتي النصر بعد النصر ، ترك البلاد التي احتلتها وأن يطلب منى سحب جنودى إلى مقاطعة صغيرة تسمونها الولايات الأربع ؟ ان هذا لا يكون وان فى هذا الحكم على بالاعدام السياسى »

فى ٨ مارس عاد خليل رفعت باشا من القاهرة إلى الاسكندرية فابلغه محمد على أنهم يريدون أن يكرهوه على قبول شروط وقعوها هم . فهو قد صمم على المسير حتى النهاية فلم يبق لخليل باشا إلا العودة حالا إلى الاستانة . فتبرأ خليل باشا من هذه السياسة ودافع عن الباب العالى واستسمح أن يرسل رشيد بك معاونه إلى استامبول فسمح له . فسافر يحمل انذار محمد على بأنه لا يقبل أقل تعديل بشروطه وانه أعطى ابنه ابراهيم السلطة المطلقة للمفاوضة وتوقيع الصلح باسمه إذا أجيبت مطالبه . وحينئذ يعيد جيوشه إلى البلاد التي تعطى له وإذا لم تجب شروطه وأصرروا على اتفاق ٢١ فبراير فابراهيم حر فى أن يواصل زحفه وأن يعمل مايرى عمله بلا قيد ولا شرط تبعاً للظروف

عاد السكبتن أوليفيه رسول الأميرال روسين سفير فرنسا فى الاستانة إلى محمد على ورشيد بك معاون خليل رفعت باشا رسول الباب العالى من الاسكندرية إلى استامبول وهما يحملان انذار محمد على للباب العالى ورفض الاتفاق الذى وقعه الأميرال روسين وتخويل ابنه ابراهيم السلطة المطلقة بأن يوقع الصلح إذا أجيبت جميع مطالبه أو يواصل الزحف على الاستانة إذا شاء وإذا رفضت تلك المطالب جميعاً أو رفض شئ منها وهذه المطالب هى اعطاؤه سوريا وولاية أدنة ولما وصل الرسولان إلى استامبول فى ١٣ مارس كانت الحالة قد تغيرت تغيراً كلياً فالباب العالى لم يطلب من الروس استدعاء اسطولهم والأميرال روسين

صار في حل من تنفيذ اتفاق ٢١ فبراير ولكن تخرج الحالة حمل الأدميرال
روسين على أن يكتب إلى وزير الخارجية يقول : « إذا أرادت فرنسا وأوربا انقاذ
السلطنة كان فرضاً واجباً عليها إيقاف محمد على ولو بالحرب ، ولقد يكون الوقت
قد فات ، لأن ابراهيم سيكون في استامبول بعد ثمانية أيام فلا يجد السلطان بدأ
من أن يعطيه سوريا كلها ولكن هل تسمح له روسيا بذلك ! ؟ »

أما الباب العالي فانه عند ما تلقى انذار محمد على تملكه الجزع والقلق الشديد
فطلب الوزراء من سفير روسيا بأن يعجل بطلب خمسة آلاف مقاتل لحماية العاصمة
و بأن يستعجل زحف الجنود الروس . ولكن ريس افندى كان يعرف أن الجنود
الروسية لا تصل قبل انقضاء شهر ، مع أن ابراهيم يستطيع أن يصل إلى الاستانة
في عشرة أيام . فأمام « هذا الخطر الداهم » رأى الباب العالي استشارة السفراء ،
فقابل ريس افندى سفير روسيا والجنرال مورافيف فقال له المسيو بونتييف « إن
من الصعب على الأجنبي بذل النصيحة ، فالوزراء الترك هم يعرفون ما لديهم من
القوة للمقاومة . أما الامداد الروسية فانها تصل متأخرة لأنهم لم يرتضوها عند
ما عرضت عليهم » ولما خرج الجنرال والسفير من عند ريس افندى ذهبا إلى
خسرو باشا السر عسكر الذي تظاهر أمامهم بشدة السخط على محمد على دون
الآخرين وقال : إن من رأيه مواصلة الحرب وان باستطاعته جمع ٢٥ ألف مقاتل
تأوى العدة

ولما سئل سفير فرنسا رأيه قال « إن إعطاء محمد على سوريا وأدنة أخف
شراً من دخول الروس الاستانة »

أما سفير انكلترا فكان قوله « أنه لا يستطيع أن يبدى رأياً رسمياً ولكن
إذا كانت لدى الباب العالي قوة للمقاومة فلا ينصح بالتسليم وإلا فالأفضل
اختيار أهون الشرين وأهونهما إعطاء محمد على طلباته »

فأجاب ريس أفندي: إن الباب العالي مستعد أن يعطي حلب ودمشق لمحمد على ولكنه لا يستطيع التنازل عن أدنة فإذا أیده سفيرا فرنسا وانكثرا في ذلك يصعب على ابراهيم باشا الرفض

— وفي ٢٩ مارس اتفق الأدميرال روسين والباب العالي على إرسال المسيو فارين وكيل سفير فرنسا في الأستانة مع رشيد بك مندوب الباب العالي إلى كوتاهية للاتفاق مع ابراهيم باشا على إعطاء ولاية سوريا كلها لمحمد على وعلى تخفيف الشروط بشأن أدنة جهد ماتصل إليه الطاقة. وحمل الرسولان إلى ابراهيم باشا كتابي الأدميرال روسين والمستر ماندفيل بمعنى ماتقدم

وفي الوقت ذاته أرسلت فرنسا إلى محمد على المسيو بوالكنت أحد مديري وزارة الخارجية ليقنع محمد على بالجلاء عن الأناضول وأصدر اللورد بالمرستون أمره إلى البحرية بتعزيز أسطول البحر المتوسط وبارسال هذا الأسطول إلى مياه الاسكندرية فإذا وصل الأسطول إلى المياه المصرية، ولم يكن الاتفاق بين محمد على والباب العالي قد تم، فيقدم الأدميرال للقنصل كامبل كل المساعدة التي يطلبها فإذا كان تطور المفاوضات يتطلب اتخاذ الوسائل القاهرة إلى أن يتم الاتفاق يقطع أميرال الأسطول جميع المواصلات البحرية عن جيش ابراهيم باشا، وإذا هو التقى بالأسطول الفرنسي يطاعه على هذه التعليمات ويدعوه لمشاركته في حدود التعليمات التي يكون قد تلقاها. وإذا ظهر أسطول روسي أمام الاسكندرية يعامله الأسطول الانكليزي معاملة الصديق ويدعوه للاشتراك معه. ويقول وزير خارجية فرنسا في رسالته عن ذلك إلى الأدميرال روسين « إن الذي دعا انكثرا لأن تضغط على محمد على هو خوفهما من أن يملك العراق وطرق مواصلات الهند وسواحل سوريا والخليج الفارسي »

كل هذا لم يخف محمد على الذي قال لقنصل فرنسا « إني قد تعلمت من

أوروبا الآن أن الخضوع لا يكون لغير القوة » ولكن تعلمه هذا الدرس جاء متأخراً لأنه لم يشأ سماع نصيحة ابنه ابراهيم ورأيه منذ ستة أشهر مضت أما الباب العالي فظل على سياسة تأليب دولة على أخرى . فبينما هو يرسل رشيد بك والمسيو فارين إلى ابراهيم بأنه قابل شروط محمد علي يطلب من الجنرال مورافيف في ٣٠ مارس استدعاء الخمسة آلاف روسي من أودسا . وقال ريس افندي للمسيو بونتيف في ٣١ مارس « نحن نعلم أن خمسة آلاف مقاتل لا تكفي لقتال جيش ابراهيم ولكنها تحميننا من المباغته والاضطراب في بلاد الأناضول ضدنا » أما ابراهيم فانه أصدر أمره في أول ابريل بالزحف على الأستانة تنفيذاً لأوامر والده ولكنه لما تلقى خبر قدوم المسيو فارين ورشيد بك أمر بإيقاف الزحف ووصل الاثنان إلى كوتاهية في ٥ ابريل وفي اليوم ذاته وصل إلى الأستانة الخمسة الآلاف روسي مع الفرقة الثانية من أسطول القيصر ولكن ذلك لم يحسن الحالة بل زادها سوءاً لأن وصول الجنود الروس إلى العاصمة أغضب المسلمين ولا سيما العلماء والوزراء وبدأت الاضطرابات بين الجمهور ورفض المقتى إصدار فتواه بتصويب عمل الباب العالي في طلب الأمداد الروسية ورفض أيضاً إبعاد طلبة الدين الذين كانوا يعلنون في المساجد آراءهم ضد الافرنج والروس على وجه التخصيص وكان عددهم ثلاثين ألفاً

ولما احتل الروس استامبول اشتد الاضطراب في لندن فاقترح تاليران وزير فرنسا أن تتفق فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا على قطع العهد بينها بالا تطمع واحدة منها بامتلاك أرض من تركيا فوافقت انكلترا على مايلي :

أولاً - التعهد بالا تجزأ تركيا

ثانياً - موافقة الدول الأربع على أن كل اتفاق بين الباب العالي ومصر

يصون سيادة تركيا

ثالثاً - تعهد الدول الأربع بانه في حالة رفض محمد على قبول ذلك تتفق هذه الدول على الوسائل التي تتذرع بها لحمله على القبول ولكن النمسا والروسيا احبطتا المشروع فعدلت عنه انكلترا وتدخلت روسيا في أمر مهمة الموسيو دى فارين ورشيد بك لدى ابراهيم باشا فأبلغت الباب العالي «أن الصلح على الشروط التي حملها إلى ابراهيم باشا محقرة له . وإذا صدقت فرنسا بأنها توقف ابراهيم باشا عن الزحف فليكن ذلك على أحكام الشروط التي أملاها الباب العالي وحملها خليل باشا إلى محمد على لا على التنازل عن سوريا كلها »

فأرسل الباب العالي في ١٠ ابريل رسولا إلى الأميرال روسين بأن يصدر تعليماته إلى الموسيو دى فارين بأن يلزم في مفاوضاته ابراهيم باشا حدود اتفاق ٢١ فبراير والعدول عن مكالمته على قاعدة التنازل عن حلب ودمشق . فرد الأميرال روسين بانه إذا تغير حرف واحد من اتفاق ٢٩ مارس بينه وبين الباب العالي على أن يتنازل الباب العالي عن حلب ودمشق فإن فرنسا تستدعى الموسيو دى فارين وتنفض يدها من هذه المسألة . فتدارك ريس افندى الأمر وأبلغ الأميرال أنه لا يغير شيئاً من اتفاق ٢٩ مارس

- وفي ١٠ ابريل كتب الموسيو دى فارين « ان رشيد بك أبلغ ابراهيم باشا بان الباب العالي يعطى محمد على سوريا كلها ولم يبق من صعوبة إلا في أمر المقاطعات الأخرى لأن ابراهيم لا يطلب أدنه وسلفكي فقط بل أورفا وديار بكر . وبعد مناقشات طويلة ارتضى ابراهيم أن يرجع عن طلب ديار بكر وأورفا وأن يكتب بأدنه التي لا يتنازل عنها بحال من الأحوال . فاذا ارتضى الباب العالي ذلك فان ابراهيم يرسل إلى والده بان الصلح قد تم ويأمر سليمان بك بان يعيد إلى قونيه الفرق التي غادرتها إلى كوتاهيه »

ولما وصل هذا الكتاب . طلب ريس افندى من سفير انكلترا أن يكتب

إلى إبراهيم باشا بأن الباب العالي ارتضى التنازل لوالده عن حكم أدنة أيضاً والسبب الذى حمل ريس افندى على أن يطلب ذلك من سفير انكلترا فهو أن هذا السفير كان يعارض أشد المعارضة فى إعطاء حكم أدنة لمحمد على وأيد هذه الفكرة الاميرال روسين فكتب إلى إبراهيم باشا أن فرنسا لا تتساهل فى مسألة أدنة وحبته فى ذلك أن إعطاء ولاية أدنة لمحمد على يضع فى يديه الاخشاب ومسالك الطرق فى جبال طوروس وطريق استامبول وكان رأى الاميرال روسين أن تتفق الدول جميعاً على ذلك وإن أفضى الاتفاق إلى إكراه محمد على بالقوة لأن الباب العالي قد يسلم بمطالبه تحت ضغط إبراهيم

وفى ١٥ أبريل صدرت التوجيهات وهى جدول أسماء الولاة والحكام المثبتين فى ولايات الدولة وفى هذه التوجيهات أن ولايات مصر ودمشق وحلب وعكا ويروت وطرابلس الشام وكريد والقدس ونابلس قد حوت إلى عهدة محمد على وأن ولاية الحبشة وجده ومكة إلى عهدة إبراهيم باشا . وأما ولاية أدنة موضوع الخلاف فانها تظل تابعة لخزانة الدولة

ولما أبلغ ذلك إلى إبراهيم ، صاح صيحة الغضب والسخط وقال للرسول « كيف أستطيع الآن أن أكتب إلى والدى أن الحكومة التركية لا تنفذ عهودها ؟ ؟ فليكتب الباب العالي ذلك إلى والدى . أما أنا فانى أوقف كل حركة إلى الوراء » لأنه كان قد أصدر أمره إلى احدى الفرق بالعودة إلى قونيه ولكن الثلوج منعتها عن السفر .

وفى ٢٣ وصل كتاب القايمجى إلى الباب العالي بان ابراهيم باشا يلح فى أن يعين حاكماً لأدنه ومعنى ذلك أنه يرفض التنازل عن هذه الولاية .

فاجتمع الوكلاء وقرروا أن يطلبوا من ابراهيم باشا أن يرسل إلى الأستانة

إما عثمان بك وإما باقي بك من رجاله المقربين للمباحثة في مسألة أدنة ففهم
ابراهيم أن المقصود الماطلة والتسويق حتى تصل الأمداد الروسية وهي بين ٦
آلاف و ٧ آلاف مقاتل وعشر سفن حربية فضلا عن أن الأدميرال روسين
الفرنساوى كان يهدد محمد على بقوة أوربا . ولكن وزير خارجية فرنسا كتب
إلى هذا السفير « ان الوصول إلى الصلح أغلى من أدنه ثمنًا » وحاول الأدميرال
روسين الاستعانة بالجنرال مورافيف والمسيو بولتيف فرفضوا ووصل في أول مايو
اللورد بونسوبى سفير انكلترا إلى استامبول فأدرك أن الباب العالى يميل إلى
اعطاء أدنة إن كانت انكلترا وفرنسا تسمحان له بذلك . وفي الوقت ذاته سأل
سفير روسيا الديوان عما يريد أن يفعل الجيش الروسى الذى وصل إلى نهر
الدانوب وعدده يتراوح بين ٣٠ ألفا و ٤٠ ألفا ؟ أهو لحرب يواصلها أم تسليم
شؤون تركيا اليه ؟ فاجتمع الوكلاء واتفقوا على الاستعفاء إذا طلب الجيش
الروسى . فصدر بعد ذلك بثلاثة أيام خط سلطاني بالموافقة على قرار الوكلاء
وهكذا انتصر الميل إلى الصلح .

وكان ابراهيم باشا قد أبلغ الباب العالى أنه يكتفى بأن يكون « محصل
أموال أدنه » كأمى محصل آخر وأن هذا يرضى والده ويريح الباب العالى وهذا
ماقبله الديوان وقرره .

كان وصول ابراهيم البطل الفاتح إلى كوتاهية سبباً لانهماك الدول في مسألة
تركيا ومصر فأوفدت فرنسا والنمسا وانكلترا مندوبين سياسيين إلى مصر هم
بوالكنت من مديرى الشؤون الخارجية الفرنسية والكونلونيل كامبل من
سياسى انكلترا والهز بروكس أوستن من سفراء النمسا . وأوفدت إلى الاستانة
الأدميرال روسن الفرنسية واللورد بونسوبى الانكليزى والجنرال مورافيف
والكونت أورلوف الروسى

وكانت سياسة روسيا ترمى إلى بسط حمايتها على تركيا وسياسة النمسا حل
المسألة بالاتفاق مع روسيا وسياسة فرنسا وانكلترا إبعاد روسيا عن تركيا والحيولة
دون أن يؤلف محمد على الأمبراطورية العربية. لذلك كان رأى اللورد بونسوبى
بعد درس المسألة أن ينصح — بالاتفاق مع الأميرال روسين — السلطان
بقبول الحل الذى حله إبراهيم باشا وذلك بأن يعين محصلاً أى مديراً للأموال
أدنة باعتبارها جفلاً كسلطانياً وكان سخط العلماء وطلبة الدين وعددهم ثلاثون
ألفاً ظاهراً بادياً فى الاستانة لاستدعاء السلطان الجيش الروسى والأستطول الروسى
لاحتلال عاصمة السلطنة. ولما خرج السلطان للصلاة فى اليوم الثالث من أيام عيد
الاضحى بدا له سخط الشعب لهذا السبب ولشدة الضائقة من قلة الغذاء ، لأن
جيش إبراهيم قطع المواصلات مع بلاد الاناضول التى تغذى الاستانة ولأن
الروس زاحموا الأهالى على ما عندهم من المآكل . فلما عاد إلى القصر السلطانى
سلم باعطاء إدارة أدنة لابراهيم وهكذا انتهت المفاوضات التى بدأت فى ابريل
بقبول شروط محمد على فى ٣ مايو ولم يشأ محمد على أن يطلب قبرس لفقرها
« لأن الأتاوة التى يطلبها الباب العالى ستة آلاف كيس (٣ آلاف جنيه) »
وهى عاجزة عن دفع هذا المبلغ مع أن كريد صالحة للتعمير والاستثمار « وهو
إذا ملك كريد وأدنة وسوريا ومصر ألف من ذلك كله وحدة قوية وغنية
معاً ومما قاله محمد على لندوب النمسا . « إن امتلاك أدنة لازم لى لأن الباب
العالى لا يستطيع التجاوز عن عملى معه فالواجب أن تكون بيدى الضمانة
مفهون غدره . ضعيف الآن ولكنه يستطيع أن يستعيد قواته بعد ست سنين
وهو يحكم ستين مليوناً وأنا لا أحكم سوى أربعة ملايين فلا بد لى من بلاد
تدافع هى عن نفسها »

أما السبب الذى دعا اللورد بونسوبى إلى نصيحة الباب العالى بأن يعطى

إبراهيم باشا أدنة ، مع تصريح اللورد بالمرستون قبل ذلك بأن انكلترا لا تسلم بقيام دولة عربية فتية على طريق الهند ، فهو أن تستعين انكلترا بالصلح بين مصر وتركيا على إخراج الروس من الاستانة ثم تستغل بعد ذلك حفيظة الباب العالي على محمد علي حتى ينهض بعد إصلاح شؤونه لاخذ الثأر ومنع التوسع المصري — ولما وصل الكونت أورلوف الروسى إلى الاستانة فى ٥ أبريل بلغه أن الصلح بين السلطان ومحمد علي وضع فى اليوم السابق لوصوله فقال « إن هذا الصلح ليس سوى هدنة لا تدوم أكثر من خمس سنين إلى ست سنين » وهذا ما وقع بعد ذلك ولم يكن اتفاق كوتاهية معاهدة صلح تضمنها الدول ولكنه كان محضراً بين إبراهيم ومندوب السلطان نفذ بصدور فرمان الولاية لمحمد علي على مصر وكريد وسوريا وبتعيين إبراهيم محصلاً أو مديراً لأدنة ووالياً للحجاز الخ

ووصل خبر الاتفاق إلى الاسكندرية فى ١١ أبريل . وفى ١٦ أبريل وصل الأدميرال سليم بك من قواد جيش إبراهيم وكان قد غادر كوتاهية فى مساء ٩ أبريل وقابل محمد علي فى دار صناعة السفن بحضور القناصل فصاح بوغوص بك بأعلى صوته : « لقد أبرم الصلح » فتغير وجه محمد علي وضحك ضحكة عصبية لأنه لم يستطع تمالك نفسه . ورأى الحاضرون دمعين تنحدران على خديه من عينيه رغم رزائته ومهابته

ولكن الرد على مسألة أدنة أبطأ فأخذ مندوبو الدول ياحون على محمد علي بأن يتحول عن طلب أدنة وكل واحد منهم يقرن طلبه بالتهديد ان يسلم لهم ، إلى أن وصلت سفينة حربية فى ٥ مايو تحمل من إبراهيم خبر تسليم الباب العالي بأدنة فأمر محمد علي بأن ترفع المراكب والسفن زينتها كاملة وبأن تطلق القلاع والطوابى فى جميع أنحاء البلاد مئة مدفع ومدفعاً . وقرر السفر إلى القاهرة وتفقد

المزارع بطريقه حتى لا يقابل مندوب السلطان برتوبك - الذى يحمل اليه
الفرمان - فى غير العاصمة

وهذا هو نص فرمان السلطانى الصادر فى ٦ مايو إلى الوزراء والميرميران
والمملا والقضاة ونواب الشرع والمتسلمين والكبراء والأعيان والوجوه والموظفين
فى أنحاء بلاد الأناضول :

« إن تأكيد الأمانة والاخلاص الذى قدمه فى العهد الأخير والى مصر
محمد على باشا وولده إبراهيم باشا ، قد لقي الخطوة لدينا فنوجه اليهم رضانا
العالى الشاهانى وأثبت فى ولاية كريد ومصر محمد على باشا . ونظراً لالتماسه
الخاص ، وليته مقاطعات دمشق وطرابلس الشام وصيدا وصفد وحلب واقليمى
القدس ونابلس وحراسة الحج وقيادة الحردة ونال ابنه من جديد من عطفنا
الشاهانى لقب شيخ الحرم المكى وولاية جده وفوق هذا قد أجبنا ملتمة
بشأن إدارة مقاطعة أدنة التى يديرها إدارة الجفالك الشاهانية وذلك بلقب محصل
« وإنى لما طبعت عليه من الانصاف والشفقة والحلم أصدر أمرى هذا لجميع
من فى بلاد الأناضول بالا يحاسبوا أحداً من السكان والاعيان عن الماضى وأن
ينسوا جميع الحوادث التى وقعت وأنتم جميعاً تبلغون من فى دائرتكم عفى
وتبذلون جهدكم لتطمين الخواطر من هذا الوجه وتعملون كل ما باستطاعتكم
لرفع الادعية لشخصنا الشاهانى من كافة الشعب الذى هو أمانة من الله
فى يدنا »

« ولأجل إعلامكم أصدرنا فرماننا هذا طبقاً لخطى الشريف فأبلغوا
إرادتى السامية لكل من عندهم وطمنوا الاهالى وحشوهم على الدعاء لى وابدلوا
الجهد لتنفيذ إرادتى دون أن تسمحوا لأحد باهانة أحد ومخالفة مقاصدى السامية »

وهذا كتاب إبراهيم باشا إلى جلالة السلطان محمود في ١١ مايو من معسكر
كوتاهية بعد البسملة

« الحمد لله القوى الجبار والذي تتعالى قوته عن كل شبيه ومثيل أسأله وهو
خير مسؤول أن ينعم بالغبطة التي لا تنهى وبالسعادة التي لا تزول على
صاحب العظمة السامية والحلم المتناهي والجلالة مولانا القدير العظيم الشأن
الذي غمرتنا وغمرت العالمين مبراته وإحساناته وأسأله بسط ظله الوارف الذي
يستظل به سائر العباد على عبده هذا سائلا الله إجابة دعائي بجاء المصطفى
سيد الرسل والأنبياء »

« أما بعد. فقد تفضلت نعمة الجلالة الشاهانية بأن منحت هذا الخادم المطيع
لقب محصل حكومة أدنة وشملت شمس أنظاره هذا العبد الذي غمرته النعمة
فردت إليه الحياة حتى تتصاعد مع أنفاسه الدعوات بطول حياته وبدوام سلطانه
وإني ما بقيت حيا لأكون وقفاً على خدمته ولتمسكي بواجب الاخلاص الذي
لا يعتريه أقل فتور أسأل الله وحده أن يمد بعونه وحوله عبد عظمتكم الذي
لا أمنية له إلا أن يقف حياته على شرف خدمتها في كل ما ينطبق على
مشيئتها السامية »

وإذا تعالى إلى مسامع عظمتها رفع هذه العريضة إلى مواطىء عرشها السامي
لشكرها على حلمها وانعامها الذي لا حد له يتنازل مولاي وولي نعمتي ونعمة العالمين
جميعا فيأمر بما يروق له . وله على كل حال أن يأمر ويشمل هذا الخادم الأمين
بتعطفاته التي لا حد لها »

وكتب إبراهيم إلى الصدر الأعظم كتابا قال فيه انه تلقى فرمان الذي حملة
إليه مفتش الذخائر الحربية فدل ذلك على ان الالتماس الذي رفعه على يد قاصيحي
أفندي قد تفضلت جلالتة بقبوله فاولته مهمة محصل حكومة أدنة . الى قوله

« انه حال وصول فرمان وتلقى ما بلغ اليه شفويا أمر الجنود بأن تسافر من مرابطها وانه سيسرع بالذهاب الى ادنه دون الوقوف في الطريق وكتب مثل هذا إلى أحمد باشا أحد كبار المقرين من السلطان كان عدد الجيش التركي عند توقيع اتفاق كوتاهيه الذي جعل حدود حكم محمد على جبال طوروس ٣٦١٩٧ جنديا منها ١١٢٦٠ جنديا هم حرس السلطان من فرسان ومشاة والباقون موزعون على ٢٠ محطة ومعسكر. وسلاح هذا الجيش ثمانى بطاريات من المدافع

بينما جيش الباشاوات الثمانية الذي هزمه ابراهيم باشا في معركة حمص في ٨ يوليو ١٨٣٢ كان ٨٠ ألفا وجيش حسين باشا الذي هزمه في معركة بيلان في ٢٩ يوليو ٦٠ ألفا وكذلك كان عدد جيش محمد رشيد باشا الذي هزمه ابراهيم في قونيه في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ وهو الجيش التركي الثالث والأخير أما الجيش المصرى فكان مجموع عدده في شهر مارس سنة ١٨٣٢ مع فرسان العرب المصريين وهم ثمانية آلاف أى بعد اتفاق كوتاهية ١٩٣٩٣٢ ضابطا وجنديا بحريا وبريا وهم موزعون على الوجه الآتى : —

١٦٧٨٥ فى البحرية الحربية

١٣٢٢٣ فى بلاد الحجاز

٥٣٥١١ فى قلاع القاهرة والأقاليم

٩١٦٣ فى كريد

٧٤٦٠ فى بلاد النوبة والسودان

٨٢٩٤٤ فى معسكرات الميدان

٨٣٥٨ جنود عمال بدار الصناعة وملحقاتها

١٥٢٦ أركان حرب مدرسة قصر العيني

١٢٥٠ أركان حرب مدرسة البحرية بالأسكندرية

٣٠٠ ياوران وحرس

٤١٢ أساتذة وتراجم وطلبة

ففي ١٤ مايو انتهى القتال والعداء . ولولا تألب الدول بقواتها بعد ذلك على مصر لعرف هذا اليوم بأنه اعظم يوم في تاريخ مصر الحديث ولكان يوم تأليف الأمبراطورية العربية من جبال طوروس إلى بحر الهند فخط الاستواء ولكي يقف القارئ المصرى على بطولة ابراهيم ننقل عن الموسيو دوين شهادة أحد مارشالية فرنسا في حروبه قال :

« ان حملة ١٨٣٢ تشرف ابراهيم وتعلو شأنه و يقينى أن الملمين بالشؤون العسكرية والخبيرين بها يعترفون معى بأن تلك الحملة لا يتناولها أقل انتقاد وان قيادتها بنيت على أسلوب حكيم وقاعدة متينة وهمة عالية والنقد الوحيد هو انه في المعارك الثلاث الكبرى بينه وبين الترك استخدم منذ بدء القتال صفوفه الثانية وجيوشه الاحتياطية ولكن يدفع هذا اللوم عنه ويجعله في جانبه يقينه برداءة نظام الجيوش التركية .

وقد وفق ابراهيم في الحوادث المفاجأة كما وفق بكفاءة سليمان بك (الكونل

سيف) صاحب الدراية العالية في تسيير الجيوش » اهـ

لم يضع اتفاق كوتاهية حداً للمشاكل بين محمد على والباب العالي بل كان هذا الاتفاق في وقت واحد هدنة حربية و فاتحة مشا كل جديدة أولها الحدود وقد أثارها ارسال ابراهيم باشا جنوده إلى اورفا — الرها — لصد غارات البدو من الصحراء على البلاد العامرة وثانيها الاتاوة التي يدفعها محمد على عن البلاد التي ضم حكمها إلى حكم مصر . وقبل أن تنبسط في وجوه الخلاف نعود إلى الأصل أى إلى الاتاوة التي كان يدفعها محمد على ذاته عن مصر .

ففي سنة ١٨٠٦ صدر فرمان السلطاني بتعيين محمد علي والياً على مصر
إجابة لطلب علماء مصر واعيانها وتعهد محمد علي يومئذ بأن يدفع للباب العالي
مبلغ أربعة آلاف كيس في السنة — والكيس ٥٠٠ قرش — أى أنه تعهد
بدفع عشرين الف جنيه . ولكن الولاية كانت تسمى في ذاك الحين ولاية
القاهرة . وولاية القاهرة كانت تشمل الوجه البحرى ومصر الوسطى فقط .
لان صعيد مصر كان مقسماً اقساماً عديدة وكل قسم يتولى حكمه مملوك من المماليك .
وكانت الاسكندرية والشطر الاكبر من مديرية البحيرة ولاية مستقلة يعين
لها الباب العالي واليها من استامبول . فلما طرد محمد علي الانجليز من رشيد
والاسكندرية في سنة ١٨٠٧ رضى الباب العالي أن يضم إلى ولاية القاهرة
— أى إلى ولاية محمد علي — ولاية الاسكندرية ولم يكن دخل ولاية محمد علي
سوى ١٧٥ الف جنيه ولكنه صمم على توحيد حكم البلاد كلها سياسياً ومالياً
فتخلص من المماليك في سنة ١٨١١ ونال فرمان ولاية الصعيد وزاد الاتاوة
التي يدفعها للباب العالي عن مصر كلها الى ١٢ الف كيس أى إلى ستين
الف جنيه وهكذا كون محمد علي مصر وهكذا جعلها تحت حكم واحد .
ولما رأى الباب العالي نمو ثروة مصر بفضل أعمال محمد علي واصلاحاته
طلب في سنة ١٨١٤ أبان حرب الوهابيين وفي سنة ١٨٢٤ أبان حرب المورة
زيادة الاتاوة مع ان مصر تحملت النفقات لتوظيف حكم السلطان في بلاد العرب
والبلقان حتى قالوا ان حملة المورة وحدها كلفت محمد علي عشرين مليون فرنك
وثلاثين الف رجل فوق نفقات الأسطول ورجاله ، كذلك قل عن كريد التي
أخذ محمد علي ثورتها ثم تولى منذ ١٨٣٠ حكمها والانفاق على حاميتها وهى من
٨ آلاف إلى ٩ آلاف مقاتل .

فلما عقد اتفاق كوتاهية أرسل الباب العالي إلى مصر مندوبه أدهم افندى

ليتفق مع محمد علي . فقبل محمد علي أن يدفع للباب العالي ٣٢ ألف كيس في السنة ابتداء من مايو ١٨٣٤ فاستصغر الباب العالي المبلغ وقال إنه لا يتفق مع دخل مصر وسوريا وجزيرة كريد ، فأجاب محمد علي أنه متنازل عن جزيرة كريد فأخذ الباب العالي بهذا القول ولكن فرنسا وانكلترا وروسيا أقنعته بالایتمسك بعرض محمد علي و بان يدفع كل شيء على حاله .

وكانت مالية محمد علي مرهقة في ذاك الحين لكثرة المال الذي أنفقه على حملة سوريا . فقد أنفق عليها مليوناً ونصف مليون جنيه . وكانت ميزانية مصر في سنة ١٨٣٣ في عجز كبير فهبطت إلى ٨٢٥ ألف جنيه وفي ١٤ مايو تم الاتفاق بين أدهم أفندي ومحمد علي على أن يقبل محمد علي أن يدفع عن مصر ما تعهد بدفعه وعلى أن يدفع عن ولايات سوريا وكريد ما كانت تدفعه قبل أن يتولى حكمها وهو :

٢٠٠٠ كيس عن كريد

١٨٠٠٠ كيس عن سوريا وأدنه

وأن يكون مجموع الاتاوة التي تدفعها حكومة مصر عن البلاد التي تحكمها ٣٢ ألف كيس أو ١٦٠ ألف جنيه . ولكن هذا الاتفاق لم يرض الباب العالي الذي كان يطلب ٩٠ ألف كيس أو ٥٠٠ ألف جنيه مقابل الاتاوات التي تأخرت ابان الحروب . ولأجل تسوية الحساب على هذه القاعدة أرسل الباب العالي إلى الاسكندرية الدقتردار فوصل اليها في ٣٠ يوليو وكان محمد علي غائبا في زيارة كريد .

وقد غادر الاسكندرية في ٢٧ يوليو فوصل إلى تلك الجزيرة في ٣ اغسطس وبعد المفاوضات الطويلة تم الاتفاق في شهر اكتوبر على أن يدفع محمد

على الباب العالي ٣٢ الف كيس وعلى أن يسحب ابراهيم باشا جنوده من اودنه
وكان الباب العالي قد أبرم مع روسيا معاهدة بل مخالفة تجعل تركيا تحت
حماية القيصر فبعد هذه المعاهدة أراد الباب العالي نكث عهده والغاء اتفاق
كوتاهية ولكن اللورد بونسوبى قاوم هذا الرأى ليظل مستنداً على مصر لتقوية
نفوذ في الاستانة فأبلغ الباب العالي « أن محمد على يدفع الآن للباب العالي
أكبر مبلغ يصل اليه من جميع ولاياته وأن من مصلحة السلطان الآن أن
يستبقى مودة هذا الوالى وأن ولاية محمد على تنتهى بانتهاء حياته وأن من
مصلحة هذا الوالى ألا يدع سلطة روسيا تبسط على استامبول وقد لا يكون
الوقت الذى يحتاج فيه السلطان إلى جميع قوات السلطنة بعيداً ليصون استقلاله
من روسيا . فمن حسن السياسة أن يربح السلطان مودة محمد على له سواء كان
بالانعامات أو بسواها استبقاء لثقتة »

ولما قدم ترجمان السفارة الانكليزية هذه النصائح في ٢٩ مايو لريس
افندى قال له هذا « أنا أعلم ان فرنسا وانكلترا هما صديقتا الباب العالي وأنا
ابوح لك بأنى لا أفهم كيف صار عدونا القديم روسيا صديقنا المخلص لنا اليوم
وأمد محمد على فانه لا يكون في حجر السلطان إلا الشعبان الذى يدفأ في
هذا الحجر .

وهذا القول يدل على الدسائس التى أخذ الباب العالي يدسها لمحمد على
في بلاد سوريا وعلى جده في استعادة قوته . ولكن فكرة الامبراطورية العربية
كانت متأصلة في نفوس العرب وفي نفس ابراهيم حتى كتب الكولونل تايور
قنصل انكلترا في بغداد الى الكولونل كامبل قنصل انكلترا في الاسكندرية في
٦ نوفمبر ١٨٣٣ من بغداد يقول « إن هذه الولاية هى الآن في أشد حالات
البؤس والضيق تحت حكم على باشا الذى كان قبل مجيئه إلى بغداد والياً على

حلب . وانظار الشعب العربي متجهة في هذه المحبة نحو ابراهيم « والحقيقة ان سياسة ابراهيم منذ الساعة الأولى كانت غير سياسة محمد علي حتى كتب بروكس أوستن إلى الكونت مترنيخ في ١٦ يوليو ١٨٣٣ يقول :

« ان أسباباً عديدة تثبت أن فكرة تأليف الأمير طرية العربية لا تزال حية ولا تزال موجودة ولكني أرى إلى جانب العقل المدبر عقل محمد علي ، المطامع الواسعة والهمة العالية في صدر ولده وخليفته . فابراهيم ابن هذا العصر وقد تربى تربية عصرية عالية وتنزه عقله عن الانطباع على الخضوع للسلطان بحكم المبادئ الدينية وإني لأرى إلى جانب ضعف الباب العالي وهزاله جيشاً عربياً قوياً ممرناً على أحدث مبادئ القتال ، وأرى أسطولاً قوياً . وكلا الجيش والأسطول يسهل مضاعفتها . أضف إلى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سباتها ، فمحمد علي يتمتع بحسن السمعة والصيت الحسن في جميع الأقطار العربية والظاهر أن مندوب النمسا استند إلى تقرير قدم إلى محمد علي قبل ذلك وهذا التقرير وجد في سجلات وزارة خارجية انكلترا وهو بنصه :

« ان أصدق ترتيب وأفضل تنظيم هو أن تؤلف المملكة العربية من مصر وبلاد النوبة وسنار ودارفور وكردوفان في افريقية ومن بلاد العربية كلها حتى الخليج الفارسي ومن الشاطئ الشرقي لنهر الفرات مع دخول سوريا كلها في هذه المنطقة »

« فإذا تم ذلك يحيمكم العالم العربي كما يحمي الشائر للخلافة الاسلامية وللخلفاء الراشدين وكما يحمي الرجل الذي أرسله الله لا تقاذا الاسلام وكل عربي ينظر إليه اليوم كمتجه أمانيه وآماله .

« وهذه الروح الدينية والسياسية قد تحولت كل التحول عن الانسانية اليكم وهذا شريف مكة هو أول المعجبين بقوتكم وعظمتكم والرأي العام يرافقكم

ويؤيدكم بأصدق أمانيه ودعائه ولا ريب ولا شك في أفضلية وسائلكم على ما عند الباب العالي .

« ولبلوغ الغرض يجب النداء بمفاوضة أعيان بغداد وزعماء الشعب على الشاطئ الشرقي من الفرات والانكليز لا يعارضون بالتقرب من الأئمة في الخليج الفارسي وتستطيع سعادتكم بتوطيد نفوذكم هناك في حماية التجارة والصناعة والدين ونحن نتق بقرب حلول نكبة في استامبول ، فانكلترا وفرنسا لا تستطيعان الحيلولة دون ذلك والنمسا وروسيا لا تريدان هذه الحيلولة

ومن أجل ذلك تكون خطة سموكم الدفاع فتدع تركية أوروبا وشأنها وما هو واقع وراء جبال طوروس لما تقرره أوروبا .

ومما لا شك فيه ولا ريب الآن أن الباب العالي يحاول أن يستعيد سوريا . لذلك كان محتما عليكم العمل السريع .

وجيشكم في الشام تنقصه الآن معدات الدفاع . فهو محتاج إلى ٢٠ بطارية وفرقتين من المهندسين و ٣٠٠ مستشفى وعدد من الأطباء كاف وأن يكون عدد الجيش العامل ١٣٠ ألفا ماعدا العربان المتطوعين والواجب التمسك بصداقة رشيد باشا والولاية الآخرين » اه

الفصل التاسع

بعد اتفاق كوتاهيه — أعمال ابراهيم باشا في البلدان التي فتحها

بعد اتفاق كوتاهيه الذي أسميناه « هدنة للحرب وفتح للمشا كل السياسية » عاد ابراهيم باشا إلى أنطاكية واتخذها مركزاً له يشرف منه على بلاد الأناضول ليرقب حركات الترك لأنه كان واثقاً من إقدام الباب العالي على الدسائس وعلى استعادة قوته لسلب محمد علي و ابراهيم ما أعطاه مكرها ولولا سياسة أوروبا ضد مصر خوفاً من أن تؤلف الأمبراطورية المصرية فتحرم أوروبا مغانم الاستعمار بالشرق لكان حكم الناموس الطبيعي في نظر علماء أوروبا ذاتهم أن تخلف مصر في ذاك الحين تركيا وأن تقوم في العالم الاسلامي مقامها . فأوروبا ساعدت تركيا للحيلولة دون حكم الناموس الطبيعي أن يسير سيره وإليك نص الحديث الذي ألقاه ملك فرنسا لويس فيليب إلى الدكتور كلوت بك مفتش صحة الجيوش المصرية في مقابلته له في ٢٨ نوفمبر ١٨٣٢ . قال كلوت بك في مذكراته عن ذلك الحديث :

« بعد محادثة خاصة بشؤون مصر انتقل الملك إلى الكلام في الحرب الناشبة بين ابراهيم باشا والباب العالي فقال : « إنه كان يعتقد مع فولني — المؤرخ والجغرافي الشهير — ان الثورة التي تهدد وجود تركيا لا مندوحة عن اشتعالها في مصر التي هي الطريق الطبيعي إلى استامبول . فمحمد علي لم يكن إذن إلا الأداة في قبضة الحوادث الطبيعية المتوقعة والتي لم تكن عنها مندوحة » إلى قوله

« ولما ساح الدوق دورليان في أميركا قابل هذا الباحث المدقق فولني وحدثه

في ذلك . وكان الفرنسيون يحتلون يومئذ مصر فأعرب له فولني عن هذا الرأي
بيقين قوى لأن مصر هي البلد الوحيد الذي احتك بالمدنية الأوروبية الحديثة
دون بلاد الشرق . وهي البلد الوحيد القادر على أن يستمد من المدنية الحديثة
قوة تزلزل عرش استامبول . وسوف تعمل مصر كل شيء لهضم هذه المدنية
الأوروبية الحديثة » . ثم قال الملك « فليس إذن غريباً أن نرى اليوم ما هو واقع
بين مصر وتركيا ولا مندوحة عن الوصول إلى النهاية بعد أربع أو خمس سنين
على الأقل وإذا لم يكن ذلك فالنهاية لا يشك فيها أحد لان الهيئتين السياسية
والدينية اللتين كانتا دعامة عرش استامبول ، قد فسدتا والقوة العسكرية التي كانت
تسند العرش والمنبر معاً قد تضعضعت . وهذه روسيا تتقدم في عشرين سنين خطوة
نحو البوسفور وكل خطوة تخطوها لا تقل عن ٥٠ مرحلة ؛ فيوم استقلال الولايات
البعيدة عن استامبول قد دنا وحقيقة الواقع أن مصلحة الدول تقضى عليها ببقاء
تركيا ولكنها في النهاية ستحل لأنها فقدت الدين والدنيا معاً ومصر في مركز
مادى وأدى وفي حال تقضى بخروجها من تحت النير التركي إما آجلاً وإما عاجلاً
وعند ما تحرر ضفاف النيل لا تلبث ضفاف الفرات أن تحذو حذوها وتؤلف الثنتان
بعد ذلك ، المركز الذي تقوم فيه الخلافة الجديدة وقد جدت شبابها بملوم
أوروبا وقوتها »

وقبل أن تنبسط في أعمال ابراهيم باشا في سوريا مع رقابته تديرات تركيا
في الأناضول ننظر إلى معاملة جيشه للأهالي . فقد بسطها سليمان باشا الفرنسي
رئيس أركان حرب ابراهيم بكتابه إلى البارون دي فارين وكيل السفارة
الفرنساوية في استامبول وكان قد كتب البارون إليه يستحلفه باسم فرنسا قبل
اتفاق كوناويه في أن يقنع ابراهيم باشا بايقاف الزحف فرد عليه في ١٧ يناير
سنة ١٩٣٣ يقول :

« لقد أصبت في حكمك على . فاني أحب فرنسا وأجلها فلا أسمع مرة اسم وطننا الجميل دون أن أحس في طيات نفسي بهزات ذكراه المجيدة . وقد تكلمت في موضوع كتابك مع الأمير القائد العام ، والظاهر أنه لا يستطيع أن يتحمل تبعه إيقاف الزحف بمحض إرادته والذي كتبه إليك هو كل ما يستطيعه (وكان ابراهيم باشا قد رد على البارون دي فارين الذي طلب منه إيقاف الزحف لأن الباب العالي قد أوفد إلى الاسكندرية خليل باشا - بأن ذلك فوق حدود سلطته ومخالف للأوامر التي تلقاها وأنه قائد عام فقط ومهمته الأعمال العسكرية)

« فالأمر يود الوصول إلى الصلح من صميم فؤاده وقد أمضه أن يرى وقوع هذه الحروب ويسره أن يرى الأمة متحدة باخلاص وسائرة في طريق المدنية التي عمل والده للوصول إليها كثيراً جداً

« ولم أستطع أن أكلم الأمير عن العبارات التي يفوه بها الباب العالي بشأنه لعلني أنه لا يعاب هذه الصيغ البالية من صيغ الاستبداد العتيق ، لأن الأمير يحب الحرية ويضحى حياته وثروته في سبيل الوصول إلى أن تحكم بلاده بأحكام القوانين التي تنظم بلادنا الجميلة فرنسا

وهل تظن أن القائد العام يرضى أن يدل الشعب على مصالحته مع الباب العالي بمظاهرات خلافة كاذبة ؟ فانا أؤكد لك أن هذا إذا وقع ، لا يكون له أقل تأثير في الولايات لأن جميع سكان الولايات في قنوط ويأس شديدين من أعمال الجيش التركي الذي لا نظام له ولا قانون . فهو ينهب ويحرق ويقتل الخ

أما جيشنا فهو على عكس ذلك ، لأنه خاضع لنظام صارم كنظام جيش فرنسا فهو يدفع ثمن كل شيء يأخذه نقداً وهو يحترم كل الاحترام أموال الناس وأملاكهم وهو قد نال بين الأهالي سمعة حسنة يعد من الخطأ إضاعتها ببلاغهم أنهم باقون تحت النير التركي الخ »

هذا ما كان يعمل به جيش ابراهيم في البلاد التي اجتازها . ولا أجل هذا أحبه
الأنهالى لأنهم قابلوا بين مسلحه ومسلك خصمه . وكان ابراهيم ينشط الزراعة
ويشجع الأعمال الصالحة . والآن ننظر إلى الاصلاحات التي أجراها ابراهيم في
إدارة البلاد ولا تزال آثارها باقية حتى الآن . فقد ذكر كلوت بك أن جيشه
الذي كان عدده ٨٥ ألفاً وزعه على ١٧ معسكراً « وأوقف أكثره على حدود
تركيا ولم يبق معه سوى ١١٥٢ جندياً فجعل حامية أدنه ٦٤٧٩ جندياً
وأناطكية ٢١٣١ جندياً وحلب ١٣١٣٠ جندياً وحماه ٤٢٩٧ ودمشق ٣٤٨٩
ومرعى ٥٢٣٨ الخ

أما التنظيم الإداري فانه جعل القاهرة السلطة العليا وكان ابراهيم جامعاً
بين القيادة العليا للجيش والحكم العام لسوريا وكيلىكيا . وضم فلسطين إلى
ولاية دمشق وجعل واليها شريف بك الذي كان قبل ذلك حاكماً لسوريا كلها .
وجعل متسماً لعكا الشيخ حسين عبد الهادى من أعيان نابلس وولى سليمان
باشا الفرنساوى ولاية صيدا لصاتها ببيروت وصلة بيروت بالتجار الأوربيين
واسماعيل بك من أولاد عمه ولاية حلب واحمد منكلى باشا ولاية أدنه الخ .
وعين يوحنا البحرى مديراً لحسابات الولايات كلها والى في كل مدينة عدد
سكانها عشرون ألفاً فما فوق ديواناً للمشورة ينتخب أعضاؤه من أعيان المدينة
وتجارها ويمثلون جميع المذاهب وسن لهم نظاماً للعمل دقيقاً وجعل قراراتهم
نافذة إلا إذا هي استؤنفت إلى المجلس الأعلى اما في دمشق أو عكا . ويجوز
تمييزها بعد الاستئنف إلى القاهرة .

وأبطل الاقطاعات في أنحاء البلاد .

وكان ابراهيم باشا في أول الأمر شديد انوطاة على الموظفين الذين يحميدون

عن جادة العدالة .

واتبع في تنظيم القضاء طريقة فرنسا ولكنه أبقى سلطة القاضى الشرعى فى الشؤون الدينية والشخصية فكان قاضى المدينة ينظر فى القضايا الجزئية والمعاملات التجارية ويسجل العقود وكانت القضايا الكبيرة تحال إلى المحاكم العليا وهى مؤلفة من قاضيين أو أكثر وكانت الأحكام تستأنف إلى قاضى القضاة . أما اختصاص المشورة فكان النظر فى الأموال الأميرية وقضايا ملكية الأراضى واعطاء المقاولات والالتزامات ووضع النظم للمالية والجمارك وسواها . ويقول الميسولانى ترجمان قونصلاتو النمسا فى مصر ان مركز ابراهيم فى داخل البلاد كان النجاح مضموناً له . فهو فضلاً عما كان له من السلطة والهيبة قد تمكن من أن يضم إلى جانبه الأسر صاحبات النفوذ فى البلاد والتي كانت قبل عهده مهضومة الجانب بان قدم عليها خصومها

اضرب مثلاً لذلك أسرة عبد الهادى فى جنوب سوريا فقد كان لها النفوذ الكبير على تلك البلاد الكثيرة الاضطراب فأنزلت من مقامها ورفعت فوقها أسر أخرى من نابلس إلى أن جاء الحكم المصرى فصارت مدينة باستعادة منزلتها إلى إبراهيم باشا . وحديثاً عند ما مات الشيخ حسين مدير ايالة صيدا عين إبراهيم باشا أخاه محموداً خلفاً له ورقى ابنه صالحاً إلى رتبة أميرالاي فى الحرس وأسدى إلى جميع أفراد هذه الأسر المناصب والرتب حتى صارت مخصصة للحكومة المصرية

وتركت الحكومة المصرية لحليفها الأمير بشير الشهابى استقلاله فى إدارة لبنان . ولبنان ظل فى كل وقت بفضل طبيعته الجبلية وحزم سكانه وشدة مراسيم ملجأ للحرية المضطهدة وحامى الاستقلال . فهو فى سوريا مثل يعموتى فى ايطاليا فالأمير فخر الدين المعنى (١٥٨٥ - ١٦٣٥) كان قبل الأمير بشير أول

من أوجد وحدة حكم لبنان الكبير وأقنذه بالحيلة واللين والدهاء من حكم الباب
العالى باستناده إلى أوروبا

أما الأمير بشير فانه وجه نظره إلى مصر أم المدنية ومهد النهضة الحديثة
في الشرق « اهـ

ولقد ذكرنا في فصل سابق تأليف ديوان المشورة في دمشق من ٢٢ عضواً
يمثلون جميع المذاهب أما ديوان مدينة بيروت فكان مؤلفاً من ١٢ عضواً مراعاة
لعدد السكان وهم ستة من المسلمين عبد الفتاح حماده ناظر الديوان وعمر بك بيهم
وأحمد العريس وحسن البربير وأمين رمضان وأحمد جلول وستة من المسيحيين
وهم جبرائيل حمصى . وبشاره نصر الله . والياس منسى . وناصر مطر .
ويوسف عيروط . وموسى بسترس

وكان لكل مدينة متسلم يتولى إدارتها ويقوم بأعمال قاضى الصلح والمجلس
البلدى ثم مباشر يتولى وظيفة مدير المال



الفصل العاشر

الفن والموراث في فلسطين وسوريا - أسبائها وتناجها

اتحاد انجائرا مع تركيا ضد محمد علي والدولة المصرية

إن نقصان دخل البلاد ابان الحروب وكثرة النفقات على الجيوش أحوج محمد علي إلى الأموال . ثم إرسال الباب العالي رشيد باشا إلى حدود سوريا من جهة الأناضول وحشده الرجال والاتيان بالسلح ، أحوج محمد علي إلى الرجال فأخذ بالبحث عن هذين الموردين لأن مصر أعطت كل ما كان بإمكانها إعطاؤه . ففكر في عقد القروض في أوروبا ولكن أصحاب الأموال والدول اشترطوا أن يوافق الباب العالي على تلك القروض لأن محمد علي كان والياً على مصر وسوريا فلا يكون القرض صحيحاً إلا بموافقة السلطان ولا يأمن أصحاب المال على مالهم إلا بتقديم الضمانة وهذا أيضاً ما كان يطلبه أصحاب الأموال ولا يسلم به محمد علي وكانت الأموال التي يتوصل إليها محمد علي من الخارج هي عبارة عن « ساف » على القطن . فمحل بريجس وثوربون ومحل غوتيه وباستره هي المحلات التجارية التي كانت تقدم السلف على القطن المصري . فمحل باستره قدم لمحمد علي سلفة ٣٠٠ ألف ريال ابان حصار عكا . ولما عرضت فرنسا في سنة ١٨٣٣ تقديم قرض كبير مقابل ضمانات يقدمها محمد علي أبي تقديم الضمانات لأنه كان يطلب سلفاً لمدد قصيرة لا قروضا لمدى بعيدة طويلة لذلك رفض ما عرضه عليه روتشلد وهو إقراضه مئة مليون فرنك . وعرض عليه قرض آخر على أن يكون ضمانته دخل الحكومة فرفض أيضاً . وأصدر أمره إلى إبراهيم باشا بتحصيل الأموال وتجنيد الرجال من البلاد التي

فتحتها وتولى حكمها . فغالى الولاة والحكام فى ضرب الضرائب وطلب التجنيد فكان ذلك سبباً للفن والثورات فى تلك البلاد بل قد لا ترجع تلك الفن إلى سبب واحد إنما إلى عدة أسباب :

الأول إزالة نفوذ أصحاب الاقطاعات فى تلك البلاد وحكمها حكماً نظامياً أغضبهم لأنه قطع أرزاقهم وسلطتهم على الشعب

الثانى — وقوف رشيد باشا بجيشه الجديد على الحدود وإرساله الرسل إلى أولئك الناقمين وحثهم على الفن لاستعادة سلطتهم بمساعدة الباب العالى والدول الثالث — ثقل حمل الضرائب والرسوم وإفراط الحكم بالتحصيل وتجنيد الشبان بالقوة

الرابع — خلف الوعد مع اللبنانيين بترك سلاحهم لهم وعدم التعرض لاستقلالهم وعدم زيادة الضرائب والاصرار على تجنيد الدروز وإهانة شريف باشا شيوخهم

الخامس — ظهور الانجليز بمظهر العداء لمصر ونشرها الدعوة ضد محمد على الخ ...

أما الضرائب التى ضربت فهى احتكار حاصلات الحرير فى سوريا كاحتكار حاصلات القطن فى مصر . فطلبت انكثرا من الباب العالى إصدار أمر بالغاء هذا الاحتكار فزاد ذلك فى الاضطراب . ثم ضريبة الفردة وهى ضريبة يدفعها كل رجل من سن الخامسة عشرة إلى سن الستين وأقلها ١٥ قرشاً على الفقير و ٥٠٠ قرش على الغنى وصدر الأمر بعد ضربها بأن تحصل على سنتين ثم رسم الدخولية بين ٦ ونصف و ١٢ بالمتة على البضاعة التى ترسل من مدينة أخرى ورسم التسريح على الحاصلات المحلية التى تنقل من بلد إلى بلد آخر ورسوم المواشى كالغنم والمعزى والجمال وضريبة الشونة وهى أن يقدم الأهالى

للجيش في جهتهم كل حاجاته ثم رسم الطاحون . على أن إبراهيم باشا لم يكن راضياً عن ثقل الضرائب ولكنهم كانوا يكتبون إليه من القاهرة بأن الضرورة تقضى بذلك ولا مرجع عنه ومع ذلك لم يكن دخل سوريا يكفي للاتفاق عليها أما التجنيد فلم يكن أهل سوريا قد ألفوه ، لأن الحروب والاشتراك بها كانت على وجه عام دائمة ولكنها كانت حروب محلية ولما تقرر التجنيد أخذوا ينفذونه بالقوة بحصار المدن والقرى ، والتقاط الشبان ، كذلك نزع السلاح من الأهالي .

كانت الفتنة الأولى في فلسطين فان إبراهيم تلقى أوامر والده وهو في يافا مع أركان حربه بضرب الضرائب التي ذكرناها فأذاع ذلك بمنشور وأوامر أصدرها إلى الحكام فاتفقت أسرة طوفان وأسرة الجزار من جبال نابلس مع أسرة أبي غوش بين القدس ويافا على مقاومة ذلك . وسبب اتفاق هذه الأسر أن الأولين كانوا الحكام على عهد الترك فاسقطهم إبراهيم وأحل محلهم آل عبد الهادي وأما أسرة أبي غوش فكانت تقطع الطريق على الحجاج وسواهم وتأخذ منهم (الخوة) وهي ضريبة على كل مار بالطريق بمنافر أو بمواشي ما بين يافا وغزة و بئر سبع فضرب إبراهيم على أيديهم وأبطل تلك المظالم وسجن في سجن عكا كبيرهم

ولما بلغ إبراهيم تأمرهم أسرع إلى القدس وطلب أعيان البلاد وحتم عليهم تنفيذ الأوامر فوعدوا ببلاغ قومهم ذلك ، وانصرفوا ولكنهم انصرفوا لاضرام نار الفتنة وإذاعة الأخبار عن زحف جيش رشيد باشا من سيواس ، فانتفض العربان في جهة البحر الميت ، و قبيلة أبي غوش وأهالي جبل نابلس وتخرج موقف الحامية في القدس . ولما أرادت الانسحاب إلى يافا اعترضتها في الطريق قبيلة أبي غوش فأكرهتها على العودة إلى القدس والاعتصام بالقلعة . وأرسل

ابراهيم باشا الايا من يافا امداداً للقدس فصدّ عن غرضه . ووصل إليه في الوقت ذاته أن الثوار فتكوا بحامية الخليل وانهم مقبلون لحصار القدس وقد نهبوا قمام من يافا بستة آلاف مقاتل ، فقهروا في طريقه قبيلة أبي غوش ودخل القدس وظل القتال دأراً بين الثوار وجيشه إلى أن وصل محمد علي إلى يافا في ٢٩ يونيو سنة ١٨٣٤ ومعه جيش قوى فغنى ابراهيم الفرصة وتغلب على الثوار بالوسائل السياسية .

— وكان أهالي صفد قد ثاروا ونهبوا أموال اليهود وأملأهم وفتكوا بهم فطلب محمد علي من الأمير أمين ابن الأمير بشير الذي أوفده والده لتحية محمد علي عند وصوله إلى يافا أن يبلغ والده أن يسير إلى صفد رجاله ويؤدب ثوارها ويرد المسلوبات لليهود فنهض الأمير إلى صفد وقبل أن يدخلها قابله قاضيها وعرض عليه طاعة أهالي صفد ووعدهم برد الأسلاب فقبل طاعتهم وأرسل إلى صفد الأمير افندي حاكم راشيا ليستلم قلعتها ويعيد المسلوبات إلى اليهود فنفذ أمر الأمير وقبض على الذين اعتدوا على اليهود وسلبوا أموالهم ، وأرسلهم إلى سجن عكا .

— وكان ابراهيم باشا قد أَرْضَى أسرة غوش باخراج زعيمها من سجن عكا وتعيين ابنه متسماً للقدس وسار ابراهيم باشا إلى جبال نابلس فأخذ الفتنة وقبض على كثيرين من الثوار ثم سار إلى الخليل وقاتل الثوار وكسره ثم اتجه إلى الكرك والسلط وأخذ الفتنة وعاد محمد علي إلى مصر في ٢٩ يوليو أي بعد أن استتب النظام في فلسطين وعاد الأمير بشير إلى لبنان .

وظل ابراهيم يطارد زعماء الثوار الذين لجأوا إلى عرب عنزه فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة ليسلموا زعماء الثورة وأهمهم الشيخ قاسم احمد فسلموهم وحكم عليهم بالاعدام .

ووصل ابراهيم بجيشه إلى دمشق فبلغه من شريف باشا حاكما أنه لما بلغ أهلها خبر فتنة فلسطين بدت عليهم علائم الاضطراب فأرهبهم بالقبض على المهيجين وجمع منهم نحو خمسة آلاف بندقية وسيف . وافر ابراهيم بمضاعفة الطلب وظهرت بوادر الفتنة في طرابلس حيث اكتشفوا مؤامرة على حاميتها وعددها ٤٠٠ جندي فأرسل محمد علي قبل سفره من يافا إلى الأمير بشير أن يرسل ابنه الأمير خليل ليتحد مع المتسلم سليم بك على تاديب الثوار ولما وصل الأمير خليل برجاله إلى طرابلس ، قبض على ٢٥ رجلا من الجانحين إلى الفتنة واعتقلهم بالقلعة . ووصلت الأوامر من ابراهيم باشا وهو في دمشق بأعدام زعماء الثورة فأعدم ثلاثة عشر منهم واتجه الأمير خليل ومتسلم طرابلس إلى بلاد عكار وصافيتا فقبضوا على الزعيمين أسعد بك المرعب وأسعد بك الشديد وعلى ولدين من أولاد محمد بك القدور وعلى ٣٠ شخصا من الأعيان وهكذا فعلوا في جهة صافيتا واللاذقية فهدأت الفتن في هذه الجهات .

بعد أن انتهت فتن فلسطين وصافيتا وعكار للأسباب التي بسطناها وعلى الوجه الذي بيناه وصل إلى ابراهيم باشا ، وهو في المزيريب قاصداً إلى دمشق ، أن النصيرية هاجموا آلايا من جيشه وهو ذاهب من اللاذقية إلى حلب فهزموه وقتلوا بنصف رجاله في كمين كمنوه له في الطريق وأكرهوه على التقهقر إلى الساحل وانهم هاجموا بعد ذلك مدينة اللاذقية فنهبوا أملاك الحكومة والمسيحيين وحصروا المتسلم سعيد آغا العينتابي في داره فأصدر أمره إلى سليم بك بأن يقوم بقوته من طرابلس إلى اللاذقية لتأديب العصاة وكتب إلى الأمير بشير الشهابي بأن يرسل أحد أولاده بقوة لبنانية لاختاد الثورة فأرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليل على رأس جيشه وأرسل بعض أبناء عمه الأمراء مع رجالهم من وادي التيم للغرض ذاته . ولما وصل الأمير خليل إلى قرية

البهلولية فر النصيرية من وجهه فغنم مواشيهم وما يملكون وأحرق ١٥ قرية من قراهم وتقدم سليم بك من هناك فصدمه الثوار صدمة شديدة فارتد عنهم وأرسل إلى الأمير خليل لينجده فأرسل إليه النجدات وعلى رأسها أحد أولاد عمه الأمير جهجاه فقهروا الثوار وأحرقوا ثلاثين قرية من قراهم ثم تقدم الأمير خليل ومعه فرسان العرب المصريين من عرب الهنادى فطاردوا الثوار مطاردة شديدة اضطرتهم أن يلجأوا إلى قلعة صهيون حيث جاءتهم الامداد فضيق عليهم الأمير خليل حتى اضطروهم إلى طلب الأمان وأرسل الأمير بشير ٥٠٠ رجل من أهالي زحلة وبسكنتا نجدة لابنه فقابل النصيرية تلك النجدة وكانت معركة شديدة عند جسر السن وصل خبرها إلى الأمير خليل فأرسل قوة لاتخاذ اللبنانيين فأنقذتهم وطردت النصيرية وطاردتهم في كل مكان حتى خضدت شوكتهم وقدموا جميعاً طاعتهم وكان ابراهيم باشا قد وصل إلى حمص فأمر باعادة اللبنانيين إلى بلادهم وباعادة الجنود إلى مرابطها وهكذا انتهت الفتن التي قامت في سنة ٣٣ و ٣٤ وكان أشدها ثورة بلاد النصيرية .

كان الباب العالي هو الذي حرك هذه الفتن في سوريا لأنه كان ينوى استخدام معاهدته مع روسيا لاستعادة تلك البلاد من محمد علي بقوة الروس . ويحدثنا اندكتور محمد صبرى في كتابه « الأمبراطورية » المصرية عن أعمال الباب العالي فيقول : ان رشيد باشا الذى أرسله الباب العالي إلى سيواس لحشد الجيوش بحجة إخضاع القبائل الكردية حشد الجنود وجمع المدافع على الحدود السورية استعداداً للهجوم على المصريين وهو فى الوقت ذاته كان يدس الدسائس لاتارة الاضطرابات والقلق فى بلاد تسهل فيها إثارة الفتن المتفكة مع طبائع أهلها ولما وصل خبر انتقاد الفتن إلى استامبول فى شهر يوليو اتفق رأى السلطان ورأى بعض رجال الديوان على أن يرسلوا الأوامر إلى رشيد باشا ليساعد الثوار

السوريين وقرروا في نفس الوقت إرسال الأسطول التركي لمهاجمة محمد علي بجرأ
وأكد ريس أفندي لسفيرى انجلترا وفرنسا أن روسيا لا تشترك في القتال في
سوريا فأجاب اللورد بونسونبي والأميرال روسين أن السلطان إذا أقدم على قتال
محمد علي يعرض تاجه وعرشه للخطر . فهذا القول حمل السلطان على التردد ولكنه
ظل يرسل الأموال إلى رشيد باشا . وادخل سفير انجلترا في صدر السلطان
الوسواس بقوله له ان من مصلحة روسيا أن يقوى محمد علي لأن ذلك يعود بالوهن
والضعف على تركيا وأيد ذلك في صدر الباب العالي والسلطان رد روسيا على
الباب العالي ، وقد طلب منها مساعدته لتأييد الثوار السوريين ، بأن المعاهدة
بينهما معاهدة دفاعية وأنها لا تستطيع امداده إذا كان هو المعتدى والمهاجم

أما محمد علي فانه كان يرى ذلك كله ولا يخطو خطوة واحدة للتحرك
بالباب العالي وقد روى قنصل فرنسا في الاسكندرية في كتابه إلى وزير الخارجية
« أن محمد علي يشبه السلطان برجل يحمل على رأسه اناء من الفخار فهو إذا ظل
يمشي وحده قد لا يقع الاناء الى أن يصطدم بأى شخص أو يدنو منه أى شخص
فيقع الاناء ويتحطم » فمحمد علي لا يريد ان يحطم ذلك الاناء ولكنه لا يريد
أن يضمن سلامته وكل ما يريده الآن أن يكون بمعزل عن أى عمل سياسى
أو غير سياسى في الشرق

ولكن السلطان ظل مجداً في سعايته ضد محمد علي . فأرسل في ١٣ سبتمبر
١٨٣٤ أمير ساموس فوغوريدس بك إلى سفير انجلترا ليحرب له عن رغبة
جلالته في أن تكبره انجلترا وفرنسا محمد علي على التضحية وعلى أن يكتفى
بولاية مصر و باشاوية عكا »

فهذه الأعمال كلها كادت تدعو محمد علي إلى العودة لطلب الاستقلال

التام فكتب إلى ابنه ابراهيم في ٢٤ أغسطس يذكره بمسعى الباب العالي لدى
الدول لا كراهه على ترك سوريا وأذنه وبالأستعداد للهجوم عليه ابان الثورة
السورية « إلى قوله

« ولنا الأمل بأننا إذا فهمنا الدول الأوروبية سوء نية الباب العالي وخطته
العدائية نتمكن من تحطيم هذا القيد ، قيد العبودية الذى نحمله الآن فى أعناقنا »
وينبهه فى هذا الكتاب إلى اتخاذ الحيلة والاستعداد للأزمة التى قد تقع فى المستقبل
فرد ابراهيم باشا على والده يحذره من كل مسعى يسعاه فى هذه الظروف
للوصول إلى الاستقلال مخافة أن يتخذ الباب العالي ذلك وسيلة للهجوم عليه
لا من أجل الفتن فى سوريا كما كان يريد ، بل من أجل مسلكه معه وأن الجيش
المصرى ، بعد طول الحرب ومكافحة الفتن ، قد تولاه التعب والملل فهل هو يستطيع
الآن منازلة الجيش التركى؟؟ وهل الحالة السياسية العامة موافقة لطلب الاستقلال ؟
إلى قوله فى ذلك الكتاب

« إنك تقول لى فى كتابك المؤرخ ٣٠ سبتمبر ١٨٣٤ انه يجب علينا الآن
أن نتمكن من تحطيم هذا القيد قيد العبودية الذى نحمله الآن بأعناقنا » وأن
نحمله نحن لرجال استانبول « فهل تذكر ياوالدى ومولاى أنى ابان الحرب الأولى
طلبت منك أن تاتى نير العبودية فاجبتنى أنك تكتمنى باسم محمد على ؟ فاذا كنت
ترى أن الوقت قد حان الآن لالقاء هذا الغل من أعناقنا فانا أرى أن هذا
المسعى ليس من السهل تحقيقه بل أرى الأمر على عكس ذلك أى انى أراه
صعباً جداً . فعند الترك رجال أبطال كرجالنا أو هم أكبر بطولة ومهاجمة أسطولهم
للسواحل تضربك أكثر من اضرارها بى »

فلم يرتح محمد على إلى هذا الجواب وعزاه فيما كتبه بعد ذلك إلى ابراهيم ،

إلى تعب أعصابه تبعاً قضى عليه بالا يدرك مغزى كتابه ومرماه فلم يعن فكرته قبل الجواب . فأجاب ابراهيم بما يلي

« تقول لى فى كتابك فى ٢٧ سبتمبر ان عبارتك كانت منحصرة فى ضرورة تحطيم نير التبعية . وإنى أنا فى كتابى عزوت اليك لا حب تحطيم القيد بل دفعه على أعناق الترك وأن هذا الخطأ منى مرجعه إلى عدم فهمى كلامك

» والحقيقة انى أدركت فهم الفاظك وعبارتك وإذا كنت قد زدت عليها كلمة « تحميل القيد لأعناق الترك » فأنى قد تعمدت ذلك واليك البيان والسبب « ان السلطنة التركية تدعى تبوء عرش الخلافة لأنها تملك الأرض المقدسة والحرمين الشريفين على أن الحجاز فى قبضة يدنا الآن فاذا نحن نلنا استقلالنا سقطت حجة تركيا من تلقاء نفسها وسقطت الخلافة عنهم لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا بعد ذلك فى المساجد عن السلطان انه خادم الحرمين الشريفين لأن الحرمين والأراضى المقدسة تكون فى أيدي الحكومة المصرية وحينئذ وعلى هذا الوجه أجزت لنفسى أن أقول « يحمل الترك نير العبودية بدل مصر »

وليس تبادل الكتب بين محمد على وولده ابراهيم منذ البدء فى حملة سوريا على ما اطاع القراء إلا الدليل على اختلاف طريقة الابن عن طريقة الأب . فابراهيم كان يقول منذ الساعة الأولى بالعمل الحازم وبوضع أوروبا أمام الأمر الواقع قبل أن تسترد نفسها وتعمل فكرتها وتنظم خطتها . ومحمد على كان متردداً يرقب جو السياسة ولا يريد أن يخطو خطوة واحدة غير آمنة العاقبة وزيادة على ما تقدم لتأييد هذا رأى نورد نص كتاب ابراهيم إلى والده يزيد فيه التبسط فى الموضوع الذى أغضب محمد على قال :

« تذكر ياوالدى أنى عند ماوصلت إلى قونيه الحيت بكل خضوع بأن نكسب الفرصة لاعلان استقلالنا فرددت على فى الحال بانك تكتفى « باسم محمد

على « وكنا في ذاك الحين منتصرين وكانت الفرصة سانحة فلم ترد ، فهل بعد سنتين من تسوية المسألة وإقامة الحدود تطلب الاستقلال ؟ ان الترك أبرموا في هذه الفترة معاهدة مع الروس وشروط هذه المعاهدة تقضى بان كل خطوة نخطوها وراء الحدود تعتبرها روسيا اعتداء تدفعه عن تركيا ولكنهم لم يشترطوا منع تركيا عن الاعتداء علينا . فالترك عندهم الضمانة منا ولكنهم أحرار في أن يهاجمونا ولا تعترض دولة من الدول عليهم

« ولما وثقت الآن من أن الباب العالي يوقد الثورات في سوريا جنحت إلى الاستقلال مع أن الظروف غير موافقة وهذا الاعلان الذي تعلنه أتم افساد الصلات بيننا وبين الترك مع أنى كنت قد وجهت نظرك إلى خطورة مثل هذا العمل فاكثفت بان رددت على بأنك « أعلنت إرادتك بالاستقلال » « وغرضي الوحيد من ذكر ماتقدم هو تذكر الاخطاء الماضية حتى لا تتسرع في المستقبل بأى عمل من الأعمال وحتى تقدر لكل عمل من أعمالنا نتائجها »

وسبب هذا الكتاب الذى أرسله ابراهيم باشا بهذه اللهجة هو أن محمد على أبلغ الدول سراً أن في نيته اعلان الاستقلال التام في الوقت الذى أخذت فيه تركيا تستعد وتكسب عطف الدول عليها بينما الجيش المصرى منهوك القوى من الحروب والخزانة في عجز

فلما رأى محمد على أن الباب العالي يثير الفتن ويحشد الجيوش ويستنجد روسيا لاجراجه من سوريا أبلغ الدول انه عزم على طلب الاستقلال وأرسل إلى ابنه ابراهيم ليكون على استعداد وأهبة فلم يقر ابراهيم هذا رأى كما ذكرنا . وهما هو نص الكتاب الذى أرسله بوغوص بك الذى كان يتولى إدارة ديوان الخارجية إلى قنصل النمسا .

« لا شك في أنك عرفت الميول العدائية التى أظهرها الباب العالي حديثاً

ضد مصر. فهو يجمع مندبضة شهور وبدون سبب ظاهر جيشاً ضخماً في سيواس بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا مع أن سموه أرسل مندوبه لاتمام المباحثات بشأن الجزية التي تدفع وبشأن الجلاء عن أورفا التي أمر ابراهيم باحتلالها مؤقتاً ليصد بعض القبائل البدوية المتمردة. وفي خلال ذلك أخذ الباب العالي يوزع الأموال بواسطة عبد الله باشا الذي كان حاكماً في عكا لاثارة الثورات والفتن في جبل نابلس وخیل الرحمن والقدس وقد عمت الثورة تلك الجبال وتطالب إخمادها مجهوداً استنفد ثلاثة أسابيع. ولما وصل إلى محمد علي باشا خبر هذه الحركات العدائية أبلغ قناصل الدول أنه قد يرى نفسه مضطراً لإعلان استقلاله لأن الباب العالي لا يرضيه إلا هدمه سياسياً والجميع يعرفون أن سموه لم يطلب في حين من الأحيان استقلاله ولكن التفرقة التامة والدائمة بين الوطنين العربي والتركي هي الآن الضمانة الوحيدة للعاصمة من النتائج المهلكة من جراء الحرب الأهلية الدائمة ومن غزوة أجنبية.

« وإذا اعترف باستقلال سموه فانه يستطيع بعد هذا الاعتراف أن يمحصر همه في تنظيم ماليته وحشد ١٥٠ ألف مقاتل منظمين تنظيماً تاماً فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهي المبادرة لانقاذ تركيا من روسيا » ولما اطلع مترنيخ وزير خارجية النمسا على هذا الكتاب كتب إلى سفيره في بطرسبورج « إنا نستنتج من اعتراف محمد علي انه يريد أمرين : استقلاله التام عن الباب العالي وإنشاء الدولة العربية » وكان إنشاء الدولة العربية هاجساً مقارناً من هواجس مترنيخ فكان يطلب اتفاق الدول الأربع للحيلولة دونه ولكن انكثرت كانت ترفض كل ارتباط دائم يحول دون حريتها عملاً بسياساتها التقليدية ولكن نظرها شرراً إلى محمد علي بدأ من يوم فتح الحجاز والين وطرده الانكليز من مخا وازداد بعد اتفاق كوتاهية ولم تجب محمد علي الذي طالب

محالفتها ووضع جيشه قيد إرادتها ولا أجابت على عرضه أن يفتح قناة للتجارة من القاهرة إلى السويس ولا على طلب مشورتها في إرسال حملة ضد أحد ضباطه الذي ثار في بلاد اليمن وأخذ السفن الانكليزية مع الوعد بأن يعيد تلك السفن وكان صمتها عن كل ذلك فصيحاً

والذي يبين لنا وجهة نظر الانكليز تقرير قنصلهم فارن في دمشق في سنة ١٨٣٤ فقد قال في هذا التقرير ان تجارة انكلترا لا تتمتع في بلد من بلاد العالم تتمتعها في تركيا وان الرعايا الانكليز لا يميزون في بلد تميزهم في بلاد السلطان وان محمد علي وحكومته لا يمكن أن يعطوا الانكليز هذه الامتيازات وفوق ذلك ان محمد علي ينشئ المعامل وهو الآن يورد مصنوعات إلى سوريا وكذلك من الوجهة السياسية فان الاتفاق مع الباب العالي أفضل

وهكذا اتحدت انكلترا مع تركيا منذ سنة ١٨٣٤ لمكافحة محمد علي وطلبت منه انكلترا خدمة لتجارتها في مذكرة قدمها إليه الكولونل كامبل في ٢١ أكتوبر ١٨٣٤ بأن ينشئ طريقاً للمركبات من انطاكية إلى الفرات بطريق حلب وأن ينشئ مستودعاً للبضائع في ازمير وأن يأذن بعض الانجليز بإنشاء حياض على الفرات في الجهة التي يختارونها وبأن يعين ألياً لحراسة الحياض والمستودعات و بأن يرسل من لدنه من يوثق صلات المودة مع قبائل البدو حتى لا يعتدوا على المراكب الانكليزية التي تنقل البضائع

وكان رئيس العمل أحد ضباط الطوبجية الانكليزية يريد نقل قطع مركبين حربيين من انطاكية إلى الفرات ، ومعهما شحنة من الجنود الانكليز مع إنشاء طابية وحصون في بيرة جك ، فرد محمد علي بواسطة وزيره بوغوص أن المسألة خطيرة والواجب أن يستأذن السلطان بشأنها لأن محمد علي لا يزال تابعاً له فسعى الانكليز سعيهم لدى السلطان فأصدر لهم فرماناً بذلك ولكنه اشترط في هذا فرمان أن يكون والي بغداد

ووالى سوريا حرين مخيرين بالتنفيذ ، ولما صدر هذا فرمان مال محمد على إلى تناسى كل شىء بينه وبين الباب العالى والاتفاق معه للحيلولة دون مشروع الانكليز واحتلالهم العسكرى . وإليك رأى ابراهيم باشا فى الرد على كتاب والده فى هذا الموضوع العظيم الشأن :

« مما لاشك فيه انه إذا توصل الانكليز إلى إقامة المعادل والحصون على مجرى الفرات وحققوا الأمر الذى نخشاه كثيراً جداً ، فقد يعرف الحقيقة القليل من الناس ويدركون انك لست السبب فى ذلك . ولكن عامة الشعب الاسلامى الذى يجهل بواطن الأمور سيقولون ان هذه الأعمال التى تمت على حدودنا إنما كان اتمامها برضانا وتسليمنا . وأما الاتفاق الآن مع الباب العالى على ذلك فهو من الأمور المستحيلة لأن الحرب حفرت هاوية بيننا وبين الترك وقلوبهم ملاءى بالحفيظة علينا ، زد على ذلك أن طلب الاستقلال الذى وجهته إلى الدول إبان ثورة جبال نابلس ، قد أزال من نفوسهم كل مابقى من الثقة بنا فهم يرفضون كل اتفاق معنا وهم يقولون « إذا نحن اتفقنا مع الانكليز بقيت لنا على الأقل بورصة واستامبول ولا تهدم السلطنة العثمانية ، أما الاتفاق مع محمد على فهو الفناء التام فلم يبق إذاً من شك فى أن الباب العالى يخشى على وجوده وكيانه من وراء الاتفاق معنا » ويقول الدكتور صبرى فى كتابه « الأمبراطورية المصرية » ان محمد على لم ينتصح بنصيحة ابنه ابراهيم بشأن الاتفاق مع الباب العالى على مقاومة المشروع الانكليزى الذى يمس الاسلام فى الصميم . فوسط الروس بينه وبين الباب العالى فغرم الباب العالى الفرصة وأبلغ مسعاه السرى إلى الانكليز ليوقع بينه وبينهم إذ كتب بوتنيف سفير روسيا فى الاستانة إلى زميله الانكليزى بونسونبى فى ٦ نوفمبر ١٨٣٥ انه قدم للباب العالى باسم محمد على اقتراحاً سرياً بالمعنى الآتى —

« ان محمد علي يعان أنه مستعد لأن يقيم العراقيين بكل ماله من الوسائل ليحول دون نجاح البعثة الانكليزية إلى الفرات على شرط أن يأمره الباب العالي بذلك »

« وهذا البلاغ مصدره السر عسكر ومن الممكن الوثوق به دون أقل حيلة » .

ولم يفلح المشروع الانكليزي لأن أمره افتضح لدى الدول حتى كتب بونسو دي بورغو إلى سفير روسيا في الاستانة في ٥ ديسمبر ١٨٣٢ يقول كما جاء في سجلات الباب العالي « إن هذا المشروع الانكليزي شديد الخطر على السلطان لأنه إذا سمح بتسيير المراكب الانكليزية على الفرات تبع ذلك طلب آخر يحتم حق استخدام وسائل حماية تلك المراكب وهذا يتطلب إقامة المعامل والحاميات ولا تكون هناك مندوحة عن ذلك لاسيما إذا نحن نظرنا إلى ما يملكه الانكليز من الوسائل في بلاد الهند

» أما إذا سمح باشا مصر للمراكب الانكليزية أن تأتي إلى السويس فانه لا يعرض نفسه وبلاده لأقل خطر لأنهم مضطرون للوقوف على الساحل ولكن الأمر في الفرات على الضد لأن شواطئه وما حوله من البلاد تؤخذ وتمتلك في المستقبل »

وهكذا أظهر الانكليز العداء الكامن في نفوسهم نحو محمد علي وهكذا ظهرت مقاصدهم في أن يملكوا طريق الهند قبل حفر قناة السويس . وقد حدث أمر آخر وهو احتكار محمد علي لحرير سوريا حتى يغذى بهذا الحرير معامل القاهرة ودمشق وحلب وقرر أنه بعد تناول هذه المعامل حاجتها يصير بيع الباقي حراً لتجار أوروبا وعين التجار والخبراء لتحديد سعر الحرير ودفع ثمنه نقداً فأثار عليه الانكليز الثوائر بحجة انه احتكر الحرير لنفسه ، ولما

اعترض الكولونل كامبل على ذلك أمر ابراهيم باشا في أول سبتمبر ١٨٣٥ بأن تكون تجارة الحرير حرة من كل قيد ونال الانكليز بعد ذلك فرمانا من السلطان بالغاء احتكار الحرير وغنموا فرصة صدور هذا فرمان ليحطوا من شأن محمد علي أمام الشعب وليثيروا عليه تأثيرته

وحدث أن شاه ايران أراد توثيق الروابط الودية مع محمد علي فأرسل إليه مع سفير خاص ميرزا جعفر كتاباً يحيي فيه « هادم الاحاد وخادم الأماكن المقدسة والخرمين الشريفين » وزاد الشاه على ذلك أنه يهنئه « بميوله وأفكاره المضمرة » أي الاستقلال

فلم يرق عمل الشاه في نظر سفير انكلترا فسعى لدى الشاه ليعدل عن إرسال مندوبه وكتابه إلى محمد علي وعلل ذلك في كتابه إلى حكومته « بأن مطامع الشاه هي أن يوسع أملاكه بالاتفاق مع محمد الطامع الطمع ذاته » ولما أراد ابراهيم احتلال بيرجك على مجرى الفرات ليحول دون غزو البدو كتب فارن قنصل انكلترا في دمشق في ٢٢ أكتوبر ١٨٣٥ « ان هذا الاحتلال يجعل لمحمد علي النفوذ الكبير على بلاد العراق وإذا هو وصل العراق بدمشق بمرا بط عسكرية فانه يضع لحاماً للقبائل »

وأرسل الكولونيل تايور من بغداد يقول « ان الدير شطر من ولاية بغداد » وتلت ذلك كله حملة صحف لندن على وزارة الخارجية لأنها ساعدت محمد علي أو سمحت له بأن يوسع دائرة حكمه وقد جاء في وثائق دار السفارة الروسية في الأستانة أن اللورد بالمرستون ندم على خطأه الذي أخطأه بترك محمد علي وشانه

وقد كان محمد علي في كل ما عرضه على الأنكليز يريد اتقاء عداءهم حتى لآمه قنصل النمسا عند ما عرض على انكلترا وضع جيشه تحت إشرافهم لأنه

يصبح تابعاً صغيراً لهم بدلاً من أن يكون وزيراً خطير الشان في تركيا فاجابه محمد علي : « ان هناك مغامرة خطيرة ولكني رأيت أنه لا مندوحة عن المرور بهذا الخطر »

أما الانكليز فانهم كانوا على أشد الحذر منه وقد كتب قنصلهم في الاسكندرية يصف محمد علي وإبراهيم بقوله :

« أما إبراهيم فانه يعتمد في كل أعماله على القوة والعمل الفاصل ليلبغ غرضه وأما محمد علي فانه عند الاضطرار يستخدم المال والمداهنة والوعود الخلابه والدسائس والحيلة المفتعلة وهو ينبوع لا ينضب في كل مازق وخرج وهو قادر على التملص مهما ساء موقفه حتى موقف اليأس »

منذ اتفاق كوتاھية أخذت انكلترا تقف في وجه محمد علي لتحول دون تأليف الدولة المصرية الكبيرة من شطر من آسيا وآخر في أفريقيا ولكن القلوب كانت تهوى إلى مصر من كل جانب فقد عرفنا أنهم بذلوا كل جهدهم ليحولوا دون مجيء رسول الشاه إلى مصر يحمل رسالة الود والولاء من مولاه وحدث قبل ذلك أن اللورد بلمرستون كتب في أول يوليو ١٨٣٣ إلى الكولونل كامبل قنصل انكلترا في مصر كتاباً يقول له فيه :

« أرسل إليك مع هذا كتاباً من المستر فرازير قنصل انكلترا في بونا وقد أرسله إلى وزارة المستعمرات وهو يتعلق بعريضة وجهها - على ما يقال - سيدى على بك مغتصب طرابلس الغرب إلى محمد علي يطلب مساعدته فانا أكل إليك أن تتخذ الوسائل لتعرف هل هذه العريضة أرسلت إلى محمد علي أم لا ؟ فاذا كانت قد أرسلت إليه فوجه إلى محمد علي التنبيه حتى لا يتدخل في هذا النزاع

ولما أراد محمد علي في سنة ١٨٣٧ معاقبة الحبشان الذين اعتدوا على

الأراضي المصرية في السودان وتوسيع ملكه في تلك الجهة تلقى من انكلترا انذاراً تقول له فيه « إن الحبشة هي المملكة المسيحية الوحيدة في أفريقيا وقد أعلنت انكلترا مراراً وتكراراً الأهمية الكبرى التي تعلقها انكلترا على بقاء هذه المملكة سليمة من كل مساس »

أما من جهة العراق وسوريا وبلاد العرب فقد تلقى الكولونل كامبل من اللورد بالمرستون في ٨ ديسمبر ١٨٣٧ البلاغ الآتي :

« إنى أكلفك بأن تبلغ باشا مصر بان حكومة جلالة الملكة تلقت التقارير عن حركات الجنود المصرية في سوريا وبلاد العرب وهي تدل على أنه ينوى أن يبسط سلطة مصر إلى جهة الخليج الفارسي وولاية بغداد فأبلغ الباشا بكل صراحة أن الحكومة الانكليزية لا تستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ مثل هذه المشروعات

وفي ٢٠ يناير ١٨٣٦ قال ريس أفندي للموسيو بونتيف سفير القيصر « إن الباب العالي أدرك في الأيام الأخيرة كل الادراك أنه يستطيع الاعتماد في المستقبل على مساعدة انكلترا لوضع شكيمة لمطامع باشا مصر فبادر بارسال التعليمات إلى نوري أفندي عند سفره إلى لندرة في سنة ١٨٣٥ بالسعى لتسيير انكلترا في هذا السبيل » ولم تقتصر تركيا من يوم احتلال محمد علي سوريا من إرسال الوفد تلو الوفد والمندوب تلو المندوب إلى لندرة لتستعين بها ضد محمد علي أما فرنسا فأنها تحولت إلى محمد علي تقدم له ما يحتاج من المساعدة وكان كل منهما النهائي أن توفق بين محمد علي والباب العالي فكان الباب العالي يتظاهر بموافقتها على أن يعطى محمد علي حكم مصر ويجعله في سلالته ويترك له قوة كافية من الجيش. ولكن الظاهر أنه كان يقصد مخادعتها بدليل أن وزير خارجية تركيا أرسل في ١٠ أكتوبر ١٨٣٦ إلى سفير تركيا في باريس تلغرافاً يقول فيه عن

اقترح سفير فرنسا والتظاهر بقبوله « ان الغرض من هذا التظاهر مجاراته وإرضاءه فقط دون أن نطلعه على خفايا نفسنا فنحن قد نسلم باعطاء محمد على صيدا وعكا إذا كان هذا الاعطاء يرفع يده عن البلاد الأخرى على شرط أن يرضى ذلك الانكليز ولكي نزيد في إخفاء ما نضمرة قد أرضينا سفير فرنسا بتوقيع الاقتراح الذي اقترحه »

« وعلى انتظار حل هذه المسألة نخادع محمد على ونداهنه جهد الطاقة »
وللوصول إلى هذا الغرض أرسل إلى محمد على باشا صارم افندى ليفاوضه في ما يرضيه وقد كتب خلوصي باشا عن مهمة صارم افندى يقول « إن القصد الوحيد من إرسال صارم افندى هو الوقوف على مقاصد محمد على ولكنّه لم يؤذن له بأن يتفق معه أو يفاوضه إنما أفهمه تلميحاً أن الباب العالي قد يرضى بآبائته في حكم مصر مضافاً إليها عكا ولكنه ظهر أن محمد على يريد البقاء في جميع البلاد التي يحكمها »

ولما ظهرت لمحمد على مهمة صارم افندى قال لأحد القناصل « إن رجال الباب العالي هم الذي أرسلوا يفاضوني ولكنهم يريدون أن يظهروا للملأ أنني ارتميت على أقدامهم لأطلب منهم بعض الشيء فما فتحته بسيفي لا ينازعني فيه منازع لا أنا ولا ابني أما سلاتتنا فانها تعمل ما يكون بإمكانها للمحافظة على حقوقها »

وكتب سفير فرنسا إلى حكومته يقول : « ان غرض الانكليز الآن هو أن يستولوا هم على مصر وهذا لا يتفق مع مصلحة فرنسا لأنهم إذا هم احتلوا مصر استحال على فرنسا أن تظل في الجزائر فمن مصلحة فرنسا حل مسألة مصر باعطاءها لمحمد على وسالته بعده »

هذه كلها هي الأسس التي بنيت عليها سياسة الدول في ذلك الحين
وظهرت آثارها اليوم

كل هذه المشاغل والمتاعب السياسية لم تشغل محمد علي وبراھيم عن تنظيم
بلاد سوريا فأول هم ابراھيم كان توحيد شعب سوريا بإزالة الفوارق الدينية ففتح
أبواب دمشق للأوروبيين وكان دخولها محرماً عليهم وقرر المساواة بين المسلمين
واليهود والنصارى فأعلن الأهالي أن اليهود والنصارى ليسوا أحط من المسلمين
مقاماً حتى ينزل النصارى عن دابته إذا قابل في الطريق أى شخص مسلم ولا
أن يحرم عليهم لبس الخداء الأحمر ولا أن يكرهوا على ارتداء الملابس السوداء
والزرقاء وأذن للتجار الأجانب بأن يبتاعوا ويبيعوا في داخل البلاد وقد كان
محظوراً عليهم الاتجار مع غير بعض الموانئ في الساحل وأمر بإحصاء الأهالي
ليعرف حاجاتهم والأعمال التي يقدرّون على القيام بها فكان عددهم على وجه
التقريب نحو مليوني نفس وهو :

٩٧٧٠٠٠ مسلم

٣٤٥٠٠٠ ارثوذكسى

٢٦٠٠٠٠ كاثوليكي وماروني

١٧٥٠٠٠ يهودى

٤٨٠٠٠ درزى

٤٢٠٠٠ نصيرى

١٥٠٠٠ متوالى ويزدى

وأخذ ابراھيم يولى غير المحمدين الوظائف في الحكومة وألف المحاكم
المدنية كما ألف دواوين المشورة من الأعيان ووجه نظره إلى القضاء على وجه

التخصيص حتى كتب الكولونل كامبل قنصل انكلترا في الاسكندرية إلى
حكومته في سنة ١٨٣٧ يقول :

« ان القضاء في سوريا قد سار في مدة قصيرة سيرته في مصر بعد طول
الاختبار فيها فقد كان القاضي الشرعى يحكم في جميع القضايا وكان الباب العالى
يعين المفتى في كل سنة والمفتى يعين القضاة وهؤلاء يحكمون بأحكام الشريعة
ولا تقبل شهادة المسيحي إلا في حالة عدم وجود الشاهد المسلم ولا يستطيع
الانسان أن يتصور الفساد والرشوة حتى أنهم كانوا يعرفون في استامبول قهوة
لشهود الزور يقول الواحد منهم على شهادته وعلى مدة الأيام التى يستخدم فيها
لأداء هذه الشهادة وقد يتمكن المفتى في مدى السنة التى يعين فيها من جمع
ثروة طائلة لأن تعيين القاضي لبس بالجدارة والاستحقاق بل بالثمن وإذا لم
يكن بإمكان محمد على إزالة ذلك كله دفعة واحدة إلا أنه خفف منه كثيراً
جداً وأكبر عمل عمله هو انه لا يسمح للمحكمة بنظر القضية إلا إذا تلقت إذناً
بذلك من الحاكم فالى الحاكم تقدم مذكرة بموضوع القضية وهو يصدر بعد
ذلك الاذن والحاكم لا يمنع نظر أية قضية ما عدا القضايا الجنائية . أما قضايا
الأحوال الشخصية وقضايا الملكية والمذهب الخ فان الحاكم يدرس مذكرتها
ثم يحيلها إلى القاضي بقرار يلخص فيه الموضوع أما قضايا الضرائب والتجارة
والديون الخ فانها تحال على ديوان المشورة »

وكافح ابراهيم الرشوة بما أحله بالقضاة من العقاب حتى استقام أمرهم وساروا
على منهاج العدالة والانصاف ولم يكن للقضاة رواتب فقرر أن يعطى القاضي في
العام من ٥٠ إلى ٦٥ جنيهاً وعين الرواتب لجميع الموظفين وكانوا يتناولون أجورهم
من أصحاب القضايا وعمم مجالس المشورة في عكا ويروت ودمشق وحلب
وعنتاب وكلليس وجعل الديوان العالى في دمشق وكان بحرى بك رئيس هذا

الديوان الذى ينقض الأحكام أو يقرها بأمر الحاكم شريف باشا ولم يتخذ ابراهيم لنفسه مقراً ثابتاً لأنه صمم على أن يشرف بنفسه على جميع الشؤون فكان ينتقل من بلد إلى آخر وكان يطلع فى كل بلد على شؤونه ورقابة حكامه والموظفين فيه وكان يعامل الموظفين الكبار إذا خرجوا عن جادة العدالة بكل صرامة « اهـ وإليك ما كتبه المستر فيرى قنصل انكلترا فى دمشق إلى حكومته :

« ان ابراهيم باشا قتش أثناء إقامته هنا أعمال الحكومة والحكام فوجد فى أعمالهم ما يوجب المؤاخذه والعقاب فطرد عدداً كبيراً من الموظفين وأنزل رتب البعض وحكم على أحد حجاب شريف باشا الحاكم العام بالسجن خمس سنين فى عكا وذهب بنفسه إلى ديوان المشورة ولم يسمح لأعضاء هذا الديوان بأن يغادروا عملهم مدة عدة أيام إلى أن أتموا الأعمال التى كانت متراكمة فيه »

ولما قامت فتنة فلسطين وجبال نابلس فى شهر يونيو من سنة ١٨٣٤ قصد محمد على إلى تلك البلاد ليباحث ابنه ابراهيم فى تنظيم إدارتها وليقف منه على كل شئ وليعاونه على إخماد الفتن ولكنه لم يبق هناك سوى شهر واحد أى من ٢٩ يونيو إلى ٢٩ يوليو وعاد إلى مصر وواصل ابراهيم عمله فى إخماد الفتن فى الجهات الأخرى يعاونه الأمير بشير الشهابى . وألف محمد على مجلساً لإدارة الشؤون فى مصر مدة غيابه برياسة عبدى بك أحد المتخرجين من مدارس فرنسا العليا فى التدبير السياسى وجعل أعضاء هذا المجلس العالى من رؤساء الدواوين ومن اثنين من كل مديرية وأن يقسم المجلس أقساماً فيختص كل قسم بما خصص له أعضاؤه وينفذ الرئيس القرارات

وبعد أن أطفأ ابراهيم الفتن استدعاه والده من سوريا ليستريح وليتفقد معه على إدارة شؤون تلك البلاد ولا سيما مسألة جبل لبنان فأقام ابراهيم فى القاهرة من يناير إلى أغسطس ١٨٣٥ وبعد عودته إلى سوريا أخذ ينفذ الخطة

التي اتفق عليها مع والده وهي تجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم لأنه وإن كان الأمير بشير حليف محمد علي، إلا أنه كان يخشى اللبنانيين إذا ظلوا مسلحين فطلب إبراهيم باشا من الأمير بشير ١٨٠٠ شاب من الدروز ليجنّدوا فأبى الدروز تقديم شبانهم وأوهم المسيحيين أنه سيعفيهم من التجنيد ونزع السلاح . وجاء حنا بحري لاقتناع الدروز بتسليم السلاح فلم يقنعوا فزحف إبراهيم باشا بجيش كبير فأرسل الأمير بشير أولاده وأحفاده ليجمعوا السلاح من الدروز وبعد ذلك طلب السلاح من النصاري وترك دروز حوران وشأنهم وكان الكثيرون من شبان الدروز قد غادروا لبنان إلى حوران وانتهى الأمر بعد أخذ سلاح الدروز والنصاري بأنه أمر بارسال ٦٠٠ شاب من الدروز إلى عكا ومصر ليدير بواعلى الأعمال العسكرية ثم أخذ إبراهيم باتمام تنظيم الشؤون في أنحاء تلك البلاد تنفيذاً للبرنامج الذى حمله من مصر وهو يتناول كل فرع من فروع الحياة القومية فى تلك الاقطار وكان مذهب إبراهيم فى إدارة تلك البلاد هو مذهب نابليون « بأن الشورى للجماعة والتنفيذ للفرد » لذلك حاول أن يكون حوله جميع الذين يستطيعون الخدمة وخدمة المصلحة ولكنه حال دون مرامه أمران: الأول فقر البلاد بالرجال الصالحين لتولى العمل والثانى فساد الموظفين وأخذهم بالطرق القديمة وقد كتب عنه المستريانس فى كتابه تاريخ مصر الحديث « إن هذا الأمير كان محباً للعدالة ولما كان متولياً أمور سوريا لم يهمل وسيلة من الوسائل لكبح جماح الموظفين ووقع فسادهم فأنزل قيمة الفوائد المالية والربا الذى كان يحصله الصراف والمرابون وفتح بابه لكل سائل ومتظلم وكان الناس يغنمون فرصة خروجه من باب ديوانه ليبسطوا له ظلاماتهم ودون شاهد عيان أن جبلياً اعترض إبراهيم باشا فى طريقه ليبسط له ظلامته فلما ضاق صدر الباشا قال له : « يا عزيزى لقد طالعت اليوم مائتى عريضة وأود أن ارتاح قليلاً فثق بأن

عريضتك ستكون موضوع عنايتي » وحدث مرة أخرى أن أهالي الناصرة
تظلموا من سلب الحاكم الأموال ، فأمره ابراهيم بان يقدم حساباته بلا إبطاء
فظهر له أنه زاد مبلغ ٦٠٠ قرش على الضرائب ولما كان هذا الموظف لم يصرف
في الخدمة سوى ١٢ شهراً فأمر بسجنه في سجن عكا ١٢ شهراً كاملاً

وكتب الكولونيل كامبل إلى حكومته سنة ١٨٣٤ يقول : « كان من
عادة أعيان سوريا أن يقدموا في شهر رمضان الهدايا للولاة والحكام ، وقد
أمر ابراهيم بمنع هذه الهدايا لأنها لا تخلو من معنى الرشوة ، وكان ابراهيم
يجب الزراعة فأنشأ المصرف الزراعي لإعطاء الفلاحين ما يحتاجونه من المال
لزرع أرضهم ووقاهم شر البدو الذين كانوا يعتدون على المزارع » وكتب إلى
حكومته في ١٥ ابريل سنة ١٨٣٤ يقول « لا تزال إلى الآن مساحة كبيرة من
الأراضي بورا ولا يزرعها ابراهيم الفلاحين على الزرع عين صرافا في حلب
وآخر في ادنه وثالثاً في دمشق ووضع تحت تصرف كل صراف ألف كيس
« ٥ آلاف جنيه » يعطون منها اصحاب الأملاك حاجتهم وبما أن غرضه
تنشيط الزراعة فانه وجه إلى الولاة اللوائح بهذا الشأن وقبل نظام ابراهيم كانت
الفائدة ٥٠ للمائة ومع ذلك فالفائدة التي يتناولها الولاة اليوم عالية لأنها
٢٠ للمائة ، وكانت نتيجة عمل ابراهيم ونظامه أن تضاعفت حاصلات تلك البلاد
ثلاثة أضعاف ، وحل اليسر محل العسر وعمرت الأرض » . وكتب هذا
القنصل ذاته في سنة ١٨٣٦ « إن ابراهيم أنفق أموالاً طائلة على الزراعة ، وقد
كان الأهالي هجروا كثيراً من القرى فعادوا إليها وزادت حاصلات الحرير »
وكتب مولينوا قنصل سردينيا في حلب « ان الفلاح السوري قد أثرى في
ظل الحكم المصري »

وكتب قنصل فرنسا في القاهرة « ان النهر الجارى من عينتاب إلى حلب قد طهره ابراهيم ونظفه فزادت مباحه الجارية ، وهو صارف جهده لتنشيف المناقع حول الاسكندرونة وسيصبح النهران اللذان يجريان بطرسوس صالحين لسير المراكب وقد أنشأ هناك الطرقات على الساحل وفي الجبال لنقل الحاصلات والأخشاب وكل الشكوى كانت من أن الفلاحين كانوا يقتلعون في الليل ما يغرسونه في النهار ، وقد عزوا ذلك إلى الجهل ولكن الميسولورين قنصل فرنسا علل ذلك بحجور الموظفين ، وقد قال في تقريره عن سنة ١٨٣٩ ان زيادة الأرض المنزرعة بلغت ٨٠ ألف فدان في سنتين ، وغرسوا آلاف من شجر التوت والزيتون ولكن رجال الميرى لم يفرقوا لجهلهم وغطرسهم بين النبت القديم والحديث فضرربوا الضرائب عليهما جميعاً ، لذلك اقتلع الأهالى الغرس الجديد ولما وصل الخبر الى ابراهيم باشا استنكر عمل موظفى الميرى ، وأمر محمد على بمعاقتهم ولكن الضرر كان قد وقع وعمل الأهالى عن الزرع » وأمر ابراهيم كما جاء في تقرير قنصل انجلترا في حلب بالغاء أخذ الخمس من الحاصلات الزراعية ووزع ٤٤٦ شميل من البذار (والشنبلى ٧٥ أقة) و ٣٢٠٤٠٠ قرش على الفلاحين ووزع ٢٤٧ ألف شجرة توت و ٥٢٤٥٥ شجرة زيتون و ٢٦٤٩٠٠ غرسة عنب ووزع ٦١١ محراثاً وكان قد وزع قبل ذلك ١٧١٨ محراثاً

وكتب بورفيل قنصل فرنسا في حلب سنة ١٨٣٦ : « ان المجهود الذى يبذله ابراهيم ليعزز مركزه في سوريا لهو مجهود لا يعرف التعب اليه سبيلاً وهو يظهر حزمًا عجيباً وإذا حدثته أظهر عطفه الكبير على الأهالى وهو يود من صميم فؤاده نشر المدنية بينهم وروى عنه القنصل كامبل عند مزاره في برية حلب وهو منهمك بآبادة

الجراد فقال وجدته نازلا في خيمة قديمة كاحد العساكر وهو في أثواب تكاد تكون رثة ويجلس على سجادة قديمة ويتكىء على سرج جواده ، ولم يكن عنده سوى كرسي واحد قدمه لي وحدثني عن الجراد فقال إنه يأمل إبادة بيضه قبل أن يفتس ويضر بالزرع وقد وزع عساكره العشرة الآلاف على عدة مناطق وقال لي انا أحرقنا حتى الآن ١٦ ألف اردب » والذي يؤخذ من تقارير القناصل ان ابراهيم أدخل زراعات جديدة في انحاء سوريا كلها وأتى بأنواع النبات والأشجار من أوروبا ولما خرج المصريون من سوريا كتب قنصل انكلترا يقول ان كل ما فعله ابراهيم قد أهمل وبار حتى القرى التي أنشأها لتحضير البدو قد تهدمت

أما الصناعة فكان تقدمها في المدن كبيرا فكتب السيوف الكنت يقول ان كل مدينة من مدن سوريا تختص الآن بنوع من الصناعة فدمشق تصنع الآن ٤٠٠ ألف ثوب من الحرير الممزوج بالقطن يبلغ ثمنها ستة ملايين فرنك وحلب تصنع المقصبات من الحرير والذهب ومصنوعاتها أفضل من مصنوعات ليون وأمتن وأرخص وطرابلس تصنع الأحزمة والزناز وأهالي القرى قد تعلموا نسج الحرير واشتهرت دمشق في كل انحاء الشرق بصنع سروج الخيل وطرابلس والقدس ونابلس ويافا والرملة تعلمت صنع الصابون والخليل تصنع المصابيح الزجاجية وانطاكية ودمشق تتقنان الآن دبغ الجلود وطرشوس تصنع أشربة المراكب التجارية ولحماية هذه الصناعات زاد محمد علي الضرائب الجمركية على مثيلاتها ٣ بالمئة بحجة أن الدول الأوروبية تحارب مصنوعات بلاده في أملاكها وقد راجت المصنوعات السورية في بلاد العرب وإيران وما وراءها وتركيها كلها ويقول الكولونل كامبل ان ما استنفدته معامل حلب ودمشق وحماة وطرابلس ودير القمر وصيدا من حرير البلاد السورية بلغ في سنة ١٨٣٦ ألفا و ٢٠٠ قنطار

وأنشأ إبراهيم معملاً لنسج الصوف في صيدا يكفى سكان الجبال الباردة حاجتهم كما أنشأ معاصر لزيت الزيتون في طرابلس وأتى بالآلات والعدد من فرنسا

واستخدم محمد علي علماء المعادن للبحث عنها في أراضي لبنان وسوريا فوكل إلى المهندسين الفرنسيين البحث عن الرخام وامثاله وإلى الانكليز البحث في لبنان وفلسطين عن الفحم الحجري وإلى النمساويين البحث عن الرصاص والفضة والنحاس والذهب والحديد في بلاد النصيرية

وزادت بعد ذلك تجارة سوريا زيادة كبيرة جداً فقد بلغت ٣١ مليون فرنك في سنة ١٨٣٣ وأخذت بالنمو حتى وصلت إلى ٤٨ مليوناً في سنة ١٨٣٥ كما جاء في تقارير قناصل الدول وأهمها تقريراً كامبل قنصل انكلترا ولورين قنصل فرنسا وصارت دمشق - وعدد سكانها ١٢٠ ألفاً - مركز تجارة الشرق ، وحلب تجارة الأناضول والعراق واهتم إبراهيم بطرق المواصلات فأنشأ الطرقات وبنى ٣٠ مراكباً للنقل من انطاكية في نهر العاصي فاتهمه قنصل انكلترا بأنه يريد من ذلك فتح بغداد ولكن إبراهيم كان يود أن يعيد لانطاكية مجدها القديم لأنها كانت عاصمة الشرق يوم كانت رومة عاصمة الغرب .

— هذا هو المجهود الذي بذله إبراهيم باشا لتعمير سوريا وتحضير البدو وتلك هي النتائج الباهرة التي وصل اليها في سنين قليلة وقد عرفنا من الوجهة السياسية ان اتفاق كوتاهية كان هدنة فقط وان سياسة انكلترا نحو مصر تغيرت كل التغيير بعد ما استخلصت تركيا من نفوذ الروس لنفسها ولنفوذها فصار ههما هدم محمد علي ونفوذه كما يستدل من نص التعليمات التي أصدرها اللورد بالمرستون الى القنصل الانكليزي في حلب بأن يثير/ثائرة الأهالي على محمد علي وبأن ينشر دعاية السلطان محمود وقد حدث اللورد بونسوني سفير انكلترا في الاستانة

في سنة ١٨٣٤ البارون ستومر سفير النمسا عن محمد علي فقال
أما الآن فاني لا أخشى محمد علي لأنه فوت الفرصة الوحيدة التي عنت له
وكان باستطاعته أن يلعب دوراً في منتهى الأهمية ، وأن يجعل نفسه رجلاً
هائلاً وهذه الفرصة التي فاتته لن تعود ولن ترجع ثانية ، فقد كان عليه أن
يأتي هو ذاته على رأس جيشه الى استامبول لا أن يرسل ابنه ابراهيم ولو انه
فعل لعزل السلطان وجلس على عرشه اذا هو أراد . وقد كان كل شيء معداً
كما تعلم أنت وأعرف أنا . لأن السخط على السلطان كان عاماً وجميع الانظار
والآمال تتجه الى محمد علي وبما أنه لم يجد في نفسه القوة للانتفاع من اقتراض
كهذا ، كانت جميع دلائله في جانبه ، فلم يبق أمامنا شيء نخشاه »

وكان يضاعف في سخط بلرستون على محمد علي انه يكاد يؤلف امبراطورية
من آسيا وافريقيا وهذه الامبراطورية اذا تركت وشأنها فانها تكون أكبر
حاجز في وجه التجارة الأوروبية والانكليزية على وجه التخصيص لأن
الأرقام دلت على ما جاء في تقرير قنصل انكلترا أن الصادرات من مصر الى
انجلترا زادت زيادة كبيرة على الواردات من انجلترا الى مصر وسوريا وهذه
الحالة في تزايد متواصل

واذا أردنا أن نعرف سبب الفتن والثورات في سوريا عدنا الى أقوال قناصل
الدول ذاتهم قبل العودة الى الوثائق المصرية . فبعد فتنة نابلس أرسلت انكلترا
قنصلها في الاسكندرية الى فلسطين للتحقيق عن أسباب هذه الفتنة فكتب
يقول ان الثوار هم في الأصل الترك من جبال نابلس بزعامة الشيخ عيسى بن عمر
وأهل جبال القدس بقيادة ابراهيم أبو غوش انضم اليهم أربعة آلاف من عرب
عزله لأن ابراهيم أبو غوش الذي سجن ابراهيم والده في عكا زوج بنت
أمير عزله وسبب سجن أبو غوش هو انه ظل يطالب الأتوة من أديرة الرهبان
في القدس رغم تحريم ذلك ولم ينقطع عن سلب الحجاج ومنهم ابراهيم

البدو من التعدي على املاك الحضر وعزل الموظفين الترك وكانوا جيشا جرارا وعين لهم الرواتب التي تكفيهم فحدث ان شابا تركيا ذهب من يافا الى نابلس حيث صنع صليبا من الخشب وصعد الى مأذنة الجامع الكبير في نابلس ويده ذلك الصليب فأخذ يصيح من فوق المأذنة : هل ذهب دين محمد وانتضى ؟ هل ارتفع الصليب على الهلال ؟ من كان منكم مسلما فليقاتل هذا النصراني ابراهيم باشا

ويقول الكولونل كامبل ان في ذلك أكبر شهادة لابراهيم لأنه حرم النهب والسلب وحمل اليهود والنصارى مما كانوا يلقون من الاضطهاد وبسط ظل الأمن في البادية

وأرسلت روسيا قنصلها دى هامل الى سوريا للغرض ذاته فقابل هذا القنصل الأمير بشير الشهابي وسأله عن سبب الفتنة فقال له الأمير « ان الباشوات الذين كانت ترسلهم إلينا تركيا لم يكونوا حكاماً وولاة ولكنهم كانوا مدمرين هدامين لهذه البلاد ، وإذا أردت برهاناً فانظر إلى هذه السهول الخصبة التي ما كان يزرعها أحد ولا يسكنها أحد وانظر إلى هذه القرى وكان قد هجرها أهلها وسكانها فابراهيم باشا يبذل الجهد ليلاً هذه القرى بالسكان من عرب البادية ومنذ بسطت حكومة مصر يدها على هذه البلاد تغيرت الحال وبدأ اليسر ولولا التجنيد الاجباري لاستطعنا أن نقول ان البلاد في غبطة وسعادة تامين »

ولقد عرف محمد علي ان الشر أيضاً في مسلك الموظفين مع الأهالي بدليل الحديث الذي نقله عنه قنصل انكاترا اذ قال له : « اني أعرف ان الشرآت من جهتين : جهل الأهالي وشراسة الموظفين . واذا عدت الى التاريخ وجدت أن الأمم الأوروبية لم تخل من هذا العيب ، ولكن هذا العيب ضوعف بأعمال

السخرة لاقامة الحصون والمعازل ومطاردة الشبان مطاردة في المنازل والقرى
وفي كل جهة

وهذا التجنيد ، مضاعفا بالأسباب الأخرى السياسية المعروفة ، كان سبب
الثورة الدرزية في حوران في سنة ١٨٣٧ . فان ابراهيم باشا دعا الحكام والولاة
الى اجتماع عقدوه في عكا وأبلغهم اوامره باجراء التجنيد العام على قاعدة أخذ
رجل واحد من كل عشرة رجال وأرسل شريف باشا الى شيخ مشايخ الدروز
يحيى حمدان فلما حضر اليه مع الوجوه طلب منه ١٧٠ شابا للجندي فاعتذر
الشيخ عن ذلك وحاول اقناع شريف باشا بأن الشبان الدروز في حوران
يدافعون عن بلادهم من اعتداء البدو فما كان من هذا على ما روى الدكتور
غالياردو إلا أن عبث بلحية الشيخ مهدداً فقال له الشيخ أنا ذاهب وسأحضر
اليك بعدد من الرجال أكبر مما طلبت ولما عاد الشيخ وأصحابه الى حوران
عقدوا جمعيتهم واتفقوا على الانتقام لشيخ مشايخهم عن هذه الالهانة وأرسلوا
الرسل الى عرب السلوط لمحالفتهم وبدأ العدوان بأن نهبوا أملاك شريف باشا
والى دمشق وبحرى بك مدير مالية سوريا . فوجه اليهم شريف باشا قوة من
٤٠٠ جندي فاجتمع قائد القوة بكبارهم في قرية النعلة فوعدهم الدروز باعادة ماسلبوه
وبتقديم المجندين في مدى عشرة أيام ولكنهم انقضوا في الليل على تلك القوة
فأفنو هاولم ينبج منها إلا ثلاثون جنديا . وكان الدروز قد انسحبوا من الحضر الى
اللباه والوعر واللباه وعر بركاني كثير التجاوير والمنعرجات لا يستطيع السائر
أن يخطو فيه خطوة واحدة دون دليل فوجه ابراهيم باشا حملة كبيرة بقيادة محمد باشا
مفتش الجهادية فاستدرج الدروز الحملة الى داخل اللباه حتى إذا ما دخلت الوعر
طلع عليها الدروز من مكائهم الخفية فقتلوا محمود باشا وبعض القواد ومزقوا القوة
وعنموها ما معها فذهب شريف باشا وجمع شتات الحملة وطلب ابراهيم باشا من

من والده إرسال احمد باشا المنيكلي لتولى رئاسة الحملة لانهما كه هو باخذ
التدابير اللازمة لمواجهة الترك الذين كانوا يتأهبون على الحدود . فدخل احمد باشا
الاجاه للبحث عن الدروز فظهر أمامه بعض طلائعهم . فأمر باقتفاء أثرهم .
فاستدرجوه إلى الوعر فخدع كما خدع محمد باشا وكان نصيب جيشه نصيب
جيش محمد باشا وكان هذا الانكسار الثاني وسيلة لنشر الدعاية ضد قوة
الجيش المصرى ونهض دروز وادى التيم ولبنان لشد ازر اخوانهم وقطع
طرق المواصلات ، فأرسل الأمير بشير بعض الأمراء لتأمين المواصلات ،
فنهض شبلى العريان قائد دروز وادى التيم لمقاتلة الأمير سعد الدين شهاب
فى حاصبيا وانضم إليه أميران من أمراء الشهابيين لأنه كان من عاداتهم المرمية
أنه لا يجوز أن يحارب الأمراء غير الأمراء وبعد قتال طويل أرسل الأمير
بشير ولده خليلا فانسحب شبلى العريان إلى حوران وانضم رجاله إلى الثوار ،
وأرسل ابراهيم باشا إلى والده يطلب الجنود الأرناؤوط لمحاربة الدروز
فى الوعر لان الجنود النظامية المصرية لم تألف هذا الضرب من القتال وعين
سليمان باشا الفرنساوى قائداً للحملة فترى سليمان باشا إلى أن يحل فصل القيظ
ويقل الماء فى مغاور الاجاه والوعر فيضطر الدروز إلى الخروج لانتجاع الماء
ولكن الدروز ظلوا يشنون الغارة على الطرق وعلى قوافل الذخيرة وبنوا احدى
الحملة ليلا ففتكوا بها

ولما وصل الأرناؤوط فى شهر ابريل سنة ١٨٣٨ تولى ابراهيم باشا القيادة
وقسم جيشه أربعة أقسام أحاطت بالاجاه وصرفت همها إلى الاستيلاء على المياه
ودامت المعارك حول المياه نحو شهرين ولما اشتد الضيق بالثوار توجه شبلى
العريان من حوران مع مائتى مقاتل إلى راشيا فقتل المتسلم والجنود ليحول
ضغط قوة ابراهيم عن الاجاه ووجهت اليه قوة من الشام فانتصر عليها وضيق

على الجنود في القلعة فخرجوا ولكنه لحق بهم واستولى على أسلحتهم وذخائرهم وانضم إليه عدد كبير من دروز لبنان فكتب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير يطلب ارسال أربعة آلاف رجل من نصارى لبنان مع ابنه خليل لقتال شبلى عريان على أن تبقى لهم أسلحتهم طول الحياة ، وجاء ابراهيم باشا ذاته إلى راشيا وجرت معركة بين الدروز والجيش في وادي بكا فانكسر الدروز وارتدوا إلى سفح جبل الشيخ فأمر ابراهيم باشا الأمير خليل الشهابي بالزحف على الجبل ولكن الدروز صدوا رجاله وهجم جيش ابراهيم باشا فتغلب عليهم فأرسلوا وجوههم إليه للتسليم فقبل تسليمهم على أن يسلموا أسلحتهم ويعودوا إلى وطنهم وأمر بمطاردة شبلى العريان والقبض عليه وانتهى الأمر بأن سلم شبلى فعفا عنه ابراهيم باشا وعينه قائداً لفرقة نظامية من الهوارة

وبعد ذلك أوفد الأمير بشير أحد رجاله جرجس أبو ديس يدعو دروز حوران للتسليم وأرسل ابراهيم باشا معه الشيخ حسن البيطار للغرض ذاته فسلموا وقدموا لابراهيم باشا ٧٠٠ بندقية من سلاحهم وألفى بندقية كانوا قد غنموها من الجيش وأعفاهم ابراهيم باشا من الجندية والسخرة لأنهم يقومون بحماية بلادهم وما جاورها من سطوبدو الصحراء ، وهكذا انتهت هذه الثورة التي ابتدأت في نوفمبر ، في آخر شهر أغسطس ، ويقدر القناصل الذين كتبوا عنها أن خسائر ابراهيم باشا كانت فيها عشرة آلاف رجل كما كانت خسائره في ثورة جبال نابلس وفلسطين وسواها أربعة آلاف نفس وأظهر الدروز من الشجاعة وحسن التدريب والشهامة ما أعجب به كبار القواد

وفي ابان ذلك وصل إلى بيت الدين مقر الأمير بشير الدكتور كلوت بك مفتش صحة الجيش المصرى فطلب منه الأمير أن يستأذن محمد علي بارسال بعض الشبان

ليتعلموا الطب في مصر فأجاب محمد الطلب على أن يكون تعليمهم مجاناً ، فكان
الوفد الأول مؤلفاً من أربعة رابعهم سليم مملوك الأمير وظلت هذه البعثات تفد
من لبنان أحداها تلو الأخرى وتتلقى علم الطب مجاناً في مصر حتى أول عهد
الاحتلال الأنكليزي فانتطعت

وكان الأمراء اللبنانيون يلبسون العمام فطالب منهم ابراهيم باشا توحيداً
للزى في جميع الأقطار الخاضعة لمحمد على طرح العمام ولبس الطربوش فأصدر
الأمير بشير أمراً بذلك إلى الأمراء أولاد عمه وأقتفى أثرهم أعيان البلاد
ولكن الأمير بشير ظل متغيراً على شريف باشا والى سوربا حتى أنه أبى
زيارته مراراً وهو في دمشق لأن شريف باشا سأله مرة « من صيرك أميراً »
فوضع الأمير يده على قائم سيفه وقال له : هذا



الفصل الثاني عشر

حرب جديدة بين الترك والمصريين — فوز إبراهيم باشا

المصير الأخير

لما نظم إبراهيم باشا سوريا أتيح للأجانب ولقناصل الدول أن يكونوا أحراراً في تلك البلاد وأن يتجروا بلا عائق ولا مانع مع أن تجارتهم كانت محصورة ببعض الموانئ ولكن القناصل الذين اتخذوا الامتيازات تسكأة لهم الفوا من أنفسهم دولة في الدولة وكانوا يعطون الحماية لمن أرادوا وبما أن متاجر الأجانب كانت تدفع ٣ بالمئة ومتاجر الرعاية كانت تدفع ٢٠ بالمئة فقد أخذ القناصل أكثر التجار تحت حمايتهم ليعفوا من زيادة الرسوم الجمرية وكان هم الانكليز على وجه التخصيص أن ينقصوا دخل الحكومة المصرية حتى لا تستطيع الانفاق على جيشها وأسطولها فتضعف فاتهمت محمد علي بأنه يحتكر الحاصلات واستصدرت من الباب العالي أمراً بمنع الاحتكار وكان بعض القناصل الذين لم يدخلوا سوريا قبل الحكومة المصرية يدسون الدسائس السياسية لهذه الحكومة كالقنصل الانكليزي فارين في دمشق وزميله فرى في حلب معتمدين في ذلك على الموظفين الترك الذين عزلوا من الخدمة وعلى قبائل البدو التي كانت تتناول قبل الحكم المصري الخوة من الحضر والقرى القريبة من البادية ومن قوافل التجار التي تمر بالبادية ومن النصاري واليهود

وفي سنة ١٨٣٤ أرسل سفير انكلترا في الاستانة إلى سوريا ترجمان السفارة ريشارد وود لاثارة الأهالي ضد الحكومة المصرية فلما وصل إلى لبنان

اتخذ الخورى ارسانيوس الفاخورى أستاذاً له ليلقنه اللغة العربية وكان ذلك الخورى (القسيس) من علماءهم المشهورين . واتخذ كسروان فى وسط لبنان مركزاً لعمله فصرف هناك سنتين كاملتين فى تلقى اللغة العربية فى الظاهر وفى دس الدسائس فى الباطن . وتربة لبنان كانت معدة لذلك ، لان ابراهيم لم يف بوعده للبنانيين باحترام استقلالهم فضرب عليهم الضرائب ونزع سلاحهم فغضبوا لاستقلالهم القديم ولما هيا الأفكار انتقل إلى جهة أخرى للغرض ذاته ولكن هاله توطيد مركز حكومة محمد على فى سوريا فكتب إلى حكومته يقول : « ان كل يوم ينقضى يزيد فى قوة محمد على فلا مندوحة عن الاسراع فى العمل لاضعافه وهدم سلطته » ولكن محمد على كان بعد إخماد قنن سوريا مصمماً على اعلان استقلاله لانه « لا يفهم كيف يكون التابع أقوى من متبوعه ويظل خاضعاً لارادته أو كيف يقبل أن يؤلف ملكاً عامراً ثم يتركه لأحد الولاة يأتى من استامبول بعد مدة فيهدمه » وكان محمد على قد تعهد بأن يدفع للباب العالى عن الاملاك التى يملكها ٣٢ الف كيس ولكنه لم يدفع شيئاً من هذه الجزية فسافر إلى السودان فقالوا إنه فعل ذلك ليتهرب من دفع الجزية وليبحث عن معادن الذهب فلما عاد من السودان قالوا إنه وعد الباب العالى بدفع ثلاثة ملايين جنيه إذا هو اعترف باستقلاله وكانت فرنسا تقول معه بهذا الاستقلال وان يكون الحكم وراثياً فى بيت محمد على

ولكن انكلترا اقترحت على الدول - فرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا - أن تتفق كلمتها جميعاً على أن تمنع محمد على عن أى عمل يقدم عليه ضد سلطة السلطان محمود ولما أذنته الدول قال انه يقصر طلبه على أن يكون الحكم وراثياً فى أسرته ولكن الباب العالى الذى كان يستند إلى ذراع انكلترا اقترح على

الدول أن يعين لمحمد علي معاشاً كبيراً مدى الحياة وأن يعطيه قصرًا للسكنى على ضفاف البوسفور

ولكى تم انكلترا تطويق قوات محمد علي بعد انذاره بالألأيمس بلاد الحبش ، وبالأأيتفق مع والى طرابلس الذى عصا الباب العالى احتلت فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ فرضة عدن لتكون هى فى الشمال وتركيا فى الجنوب وتبعده عن بلاد وسواحل البحر الأحمر ، وعد فرنساويون هذا الاحتلال بمثابة المقدمة لاحتلال مصر عند ما يحين الوقت ، وفى ذلك الحين عرضت انكلترا على الباب العالى إبرام معاهدة ينص فيها على أن انكلترا تنضم إلى الباب العالى إذا كان محمد علي أو أحد خلفائه يقدم على إعلان استقلاله أو يقوم بعمل عدائى ضد الباب العالى .

وبينما كانت السياسة الأوربية فى شغل شاغل لمنع الحرب والقتال كان الباب العالى يحشد قوته منذ سنة ١٨٣٤ فى جهة سيواس .

وكان يتولى تدريب هذا الجيش الجديد الضباط البروسيون ملباخ وفيشر وفون ونك والبارون فون مولتك وآخرون ويتولى القيادة العليا محمد رشيد باشا الذى قهره ابراهيم فى قونيه وأخذه أسيراً . أما ابراهيم فانه - كما قلنا - جعل أكثر قواته على الحدود ليرقب القوات التركية ، وحدث أن الكرد ثاروا على الترك فهض رشيد باشا بقسم من جيشه لاختصاصهم فتوفى بحمى التهاب النخاع الشوكى فخلفه فى قيادة الجيش التركى حافظ باشا الذى أخضع الثوار ولكن الباب العالى ظل يرسل الامداد تباعاً ، فأدرك ابراهيم ومحمد علي موطن الخطر فأخذ محمد علي يرسل الامداد لولده ويعد الأموال اللازمة للانفاق حتى أنه حول إلى نفقات الجيش المال الذى أعده لانشاء مصرف زراعى .

وبداً حافظ باشا يتحركك بابراهيم بمنعه القوافل من اجتياز خط الامتياز

- أى الحدود - وتحريم المعاملات التجارية مع سوريا وفى ٢٣ ابريل اجتزت ثلاثة الآيات تركية نهر الفرات إلى بيره ، وأخذت تحفر الخنادق فى بيره وهى على مسيرة بضع ساعات من خط الامتياز ، فأرسل ابراهيم الخبر إلى والده وأرسل إلى الأمير بشير بأن يتولى حفظ الأمن وخطوط المواصلات فى جهة حمص وأرسل قوة إلى عينتاب لرقابة الترك . وأرسل محمد على وزير جهاديته أحمد المنيكلى باشا مع الامداد اللازمة لابراهيم ولما أُلح القناصل على محمد على بأن يحافظ على السلم ويدفع الجزية المتأخرة للسلطان ويظل فى طاعته ، رد عليهم بأنه يجب الطلب ويعيد ابنه ابراهيم إلى دمشق إذا انسحبت عساكر حافظ باشا من بيره وتقهقر جيش هذا القائد إلى ما وراء ملطية وضمنت له الدول السلم وساعدته على أن يكون الحكم وراثياً فى سلالته بعد أن تجيب الدول هذه المطالب يسحب ٨٠ ألفاً من جيشه المعسكر فى سوريا ، ولكن المسعى لم يجد نفعا فان حافظ باشا زحف بجيشه على الأراضى السورية وعبر الفرات فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ وعسكر فى ضواحي نصيبين ثم ارسل قوة من الفرسان احتلت بعض القرى السورية ، وتقدم القائد العثمانى الثانى سليمان باشا ، واحتل قرى عينتاب حول القلعة المعسكرة فيها الحامية المصرية ، ثم أخذ القواد العثمانيون يحرضون السوريين على الثورة ضد ابراهيم ويوزعون عليهم السلاح والذخائر والمال .

واجتاز الترك نهر الساجور وهاجموا ٥٠٠ فارس من عرب الهنادى المصريين بقيادة معجون محمد ، فانهزم فرسان الهنادى تاركين بيد الترك ٧٠ أسيراً ما عدا القتلى فنهض ابراهيم من جانب ومعه سبع فرق من الخيالة و١٢ بطارية سيارة وأرسل إلى سليمان باشا الفرنساوى بأن يلحق به مع جيشه وهو ١٣ فرقة من المشاة و ١٥ بطارية .

وفى ٣ يونيو وصل ابراهيم إلى قبالة القرى التى احتلها الترك من الأراضى

السورية فأخلوها بلا قتال فكتب ابراهيم باشا في ٨ يونيو سنة ١٨٣٩ إلى حافظ باشا قائد الجيوش التركية كتاباً قال فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تقيمتم الأمر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال في بث الدسائس وتمريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهللوا إلى ميدانه بصراحة وإقدام وأملئ أن لا يفوتكم في هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالاً لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلوبهم . أما الدسائس التي تمضون في تديرها فانها ليست مما يطاق احتماله طويلاً »

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارات منمقة ولكنه حاذر أن يبدى رأياً صريحاً .

أما محمد علي فانه كتب الى ولده ابراهيم في ٩ يونيو يأمره بأن يسارع الى طرد الجنود التركية من الأراضي السورية وألا يتردد في منازلة جيشهم الكبير حتى اذا ما انتصر عليه يواصل الزحف الى ملطية وخربوط واورفا وديار بكر وبعد وصول هذا الكتاب الى ابراهيم أصدر أمره الى سليمان باشا بأن يسرع للحاق به وكان سليمان باشا على ٢٤ ميلاً من حاب فجدت قوته بالسير حتى لحقت بابراهيم باشا على مجرى نهر الساجور

أما قوتا الجيشين فكانتا متقاربتين لأن جيش حافظ باشا كان مؤلفاً من ١٧ فرقة من المشاة وجيش ابراهيم باشا من ١٤ فرقة وفي جيش حافظ باشا ٩ فرق من الفرسان وفي جيش ابراهيم ٨ فرق وفي مدفعية حافظ باشا ٣٠٠ رجل وفي مدفعية ابراهيم باشا أربع فرق ومدافع حافظ باشا ١٤٠ ومدافع ابراهيم ١٦٠ وفي جيش حافظ باشا ٦٠٠٠ من المتطوعة وفي جيش ابراهيم باشا ٢٠٠٠ على ان حافظ باشا صرف شهراً كاملاً في حفر الخنادق وإقامة المعادل والحصون وممرن جيشه على الدفاع والهجوم في تلك المنطقة وشتان بين من

يقف للدفاع ومن يكلف الهجوم . ولكن جيش ابراهيم باشا كان أتم نظاما
وأكثر ممارسة للقتال وكان ابراهيم باشا ورئيس أركان حرب سليمان باشا
على رأى واحد . أما حافظ باشا ورئيس أركان حرب مولتك فقد كانا على
رأين متباينين وكان ضباط ابراهيم باشا يحترمونه ويهابونه وجميعهم قد نالوا
رتبهم عن جدارة واستحقاق أما ضباط جيش الترك فان أكثرهم كان
من صنائع الحكام والوزراء فى استامبول

وإذا كانوا قد قدروا عدد جيش حافظ باشا بضعفى عدد جيش ابراهيم
باشا فلأن الترك كانوا ينشرون جيشهم على خط طويل ليهاجم سوريا من كل
جهة . أما القوتان اللتان تنازلتا فى ميدان نصيبين وحده فهما ما ذكرنا . ومن
الحكايات التى تعطى صورة صحيحة عن هذين الجيشين ان حافظ باشا سأل
أسيراً من جيش ابراهيم رآيه فى المعسكرين فقال له الأسير المصرى بعد أن
أعطاه حافظ باشا الأمان « ان معسكر ابراهيم باشا معسكر جنود أما معسكركم
فهو كمضارب الحجاج . فى معسكر ابراهيم لا ترى سوى الجنود بسلاحها والى
جانب خيولها ومدافعها أما فى معسكركم فقد رأيت اليهود والتجار والعلماء
والفقهاء فرأيت البعض منهم كما بالبيع والشراء والآخر مشغلا بالتسبيح والدعاء
وهذا الذى يجعل معسكركم أشبه بمضارب الحج »

وصل خبر احتكاك الترك والمصريين إلى أوروبا بعد اجتياز الترك نهر
الفرات إلى الأراضى السورية وبعد احتلالهم عينتاب وتأهب ابراهيم باشا
لصد غارتهم فأوفدت فرنسا رسولا إلى الباب العالى وآخر إلى محمد على للوقوف
عن القتال فوصل كايه إلى مصر وقابل محمد على وأخذ منه كتابا إلى ابراهيم
ليقف موقف الدفاع ووصل فولتز إلى استامبول فلم يعط جواز السفر إلى
الأناضول ولم يشأ سفير انكلترا أن يؤيد زميله سفير فرنسا فى مسعاه لايقاف

القتال بل أظهر له أنه إذا هو تآقى أمراً من حكومته في ذلك فانه يخالف ذلك الأمر ويعمل على الضد ولم يصل كايه بكتاب محمد على إلى ابراهيم إلا بعد المعركة وانتصار ابراهيم على جيش الترك . وإليك البلاغات الرسمية عن تلك المعركة الأخيرة التي استند فيها الترك على ذراع الانكليز والنمساويين الذين حرضوهم ووعدوهم بأنهم لا يخسرون شيئاً في حالة الانكسار ويربحون كل شيء في حالة الانتصار

خلاصة تقارير ابراهيم باشا إلى والده عن تلك المعركة
التقرير الأول - ٢٠ مايو سنة ١٨٣٩ - كان الجيشان في هذا اليوم في عينتاب على مقربة من بعضهما وكانت الجنود المخالفة تحتل المدينة بقيادة سليمان باشا وإلى مرعش وكانت جواسيس حافظ باشا وأعوانه يحرضون الأهالي على الثورة والعصيان وجنوده لا تكف عن العدوان ، فكان الجيشان في حالة حرب ولكننا اتبعنا أوامرهم وآراء قناصل الدول فلم تقابل القوة بالقوة ضابطين نفوسنا مخالفين ميولنا بالوقوف بلا عمل تلقاء ما يبيديه المخالف (العدو) من الاعتداء والخطرة

وفي ٢٢ مايو غادرت توزل مع فصيلة من الفرسان وبعض بطاريات خفيفة وأربع أوطر مشاة لمداجمة قوة العدو بالقرب من مزار على نهر الفرات وعند وصولنا حمل الفرسان على العدو وألزموه الفرار فغنمنا أربعة عشر مدفعاً وخزانة المال وفيها خمسون ألف قرش وأسروا ٧٠٠ ثم التقينا فيما بين مزار ونسبي بفرقة من المخالفين فاكرهناها على التراجع إلى مقر جيش حافظ باشا
وفي ٢٤ رتبنا جيشنا في صفوف القتال تجاه الجيش العثماني في ضواحي قرية نصيبين بالأراضي التابعة لبلاد الشام وعلى مسافة بضعة فراسخ من

الفرات وكان جيشنا مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي نظامي وكان جيش العدو مؤلفاً من تسعين ألف نظامي وغير نظامي

وارتكب المخالفون خطأ كبيراً جداً لأنهم لم يوجهوا الينا في الصدمة الأولى سوى الفرسان فقصرنا مهمتهم على مهاجمة المصريين في كل مكان وعلى طول الخطوط فلم تلبث طلقات البنادق أن فرقهم وأكهرتهم على التقهقر نحو صفوف المشاة فأوقعوا الخلل في تلك الصفوف وأدرك الفرسان المصريون ذلك فقاموا بمناورة موفقة وتحرك في الوقت ذاته الجناح الأيمن من المشاة فلم يسع الصف الأول من مشاتهم إلا أن يلحقوا السلاح ويتفرقوا في كل ناحية وصوب حينئذ وقع الهلع في العسكر كله فلم يسمع إلا صوت المناداة بطلب النجاة وترك المخالفون جميع مهماتهم . ولم تكن الساعة التاسعة حتى كنا متحكمين في معسكر العدو وقد عثرنا في خيمة حافظ باشا على فرمان السلطاني الذي يقلد فيه ولاية مصر

واقفني فرساننا أثر الهاربين فأسروا أورطا بأكلها وسلم كثير من الضباط وسبعة باشاوات والمقدر ان حافظ باشا ذاته لا ينجو من أيدي الفرسان والذين أخذناهم أسرى في ساحة القتال خمسة آلاف ومنهم سليمان باشا والى مرعش وجيشه بأكله فخيرناهم بين الرجوع الى وطنهم وبين الانخراط في سلك جيشنا فقبل خمسة آلاف دخول جيشنا فسيرناهم في الحال الى الاسكندرية واتجه شطر من الجيش المخالف الفار الى نهر الفرات وقد فات حافظ باشا ان يمد القناطر على مجرى ذلك النهر فمات ١٢ الفا غرقا وهم يعبرونه سباحة واعتصم قسم كبير من هذا الجيش في جبال عينتاب فقتلهم البدو والكرد والتركمان . أما جيشنا فانه سار متجها نحو مرعش وملطية وديار بكر »

من خيمة حافظ باشا - أكتب هذه الأسطر وأنا في خيمة حافظ باشا

التي لم ينقل العدو منها شيئاً وقد استولينا على الأمتعة والمدافع والخزانة وأسرونا عدداً عظيماً من العساكر وإني أود أن أقتني أثر الأعداء ولكني لا أجد أمامي أحداً منهم لأن تفرق هذا الجيش كان تاماً وسريعاً بعد معركة دامت ساعتين وكان هجومنا عليه من كل ناحية في وقت واحد وكان على قيادة الميمنة أحمد باشا وعلى الميسرة سليمان باشا أما أنا فإني كنت أتولى قيادة القلب وقد أعاد إلي هذا النصر السريع الكامل ما كنت عليه - وأنا في العشرين من عمرى - من الانشراح والقوة وسأوافيكم بالتفصيل »

تقرير سليمان باشا - يعد العسكرون معركة نصبيين من أكبر المعارك الفنية يدل عليها التقرير الذي أرسله إبراهيم باشا إلى محمد علي بقلم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) هذا ملخصه .

« في ١٨ يونيو خرجنا من معسكر دوبيك فوصلنا بعد يومين إلى مزار الواقعة على مسيرة ساعتين من معسكر الجيش العثماني وكان زحفنا مواجهة على خمسة صفوف متطاوله من المشاة وصفين من الفرسان . وفي ٢١ قمنا باستكشاف موقعة في ١٥٠٠ فارس من البدو وأربعة آلاف من الفرسان وبطاريتين من المدافع السريعة فثبت لنا أن موقعه في منتهى المناعة فلا يمكن الهجوم عليه لا مواجهة ولا مجابهة وكانت تحمي واجهته من الخلف أكام محصنة وعلى قممها المدافع وأمامها ثلاثة معازل كبيرة وميمنته تستند إلى ربوة عالية وضعت فيها أورطة من المشاة وفيها معقل وفي أسفل هذا المعقل بطارية مدافع وميسرته تستند إلى ربوة باستدارة التدى وعرة المنحدرات فكان الهجوم في هذه الحالة من الواجهة وعلى الجناحين عملاً محفوفاً بالمصاعب ولا مندوحة معه من خسارة كبيرة بدون نتيجة مرضية فرأينا في الحال القيام بحركة التفاف بالعدو من ميسرته وبالزحف عليه زحفاً جانبياً .

وفي صباح ٢٢ زحف الجيش زحفاً جانبياً بصفوف متطاولة . فبعد مسيرة عشر ساعات وصلنا إلى قنطرة هركون وكان الترك قد أرسلوا بعض الأورط والمدفعية نحو ميسرتنا واحتلت ربوة مستديرة على ميمنة جنودنا وأرسلت الايا من المشاة وآخر من الفرسان إلى ميسرة الزحف الجانبي فاتخذوا موقفهما في اتجاه جانبي الفيلق التركي فلم يسع هذا الفيلق إلا الانسحاب فاستأنف الجيش المصري الزحف بسكون واطثنان إلى أن اتخذ موقفه في قنطرة هركون .

وانقضى يوم ٢٣ يونيو في اعداد معدات القتال . وقبيل منتصف ليلة ٢٤ جاء العدو ببطاريتين من مدافع القنابل المستطيلة فألقى على معسكرنا من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ قنبلة فأوقعت بعض الخلل وقتل جواد الميرالاي محمد بك (أحد ياوران سليمان باشا) . والظاهر أن العدو تمكن من معرفة خيمة سليمان باشا فصب في اتجاهها ناراً حامية فذهب سليمان باشا إلى النقط الأمامية وأمرها باطلاق نارها فانسحب الترك بعد ما منيوا بخسارة فادحة .

وعند الصباح استأنف الجيش سيره الجانبي منفصلة أورطه وفرقه بعضها عن بعض . فارتد الترك إلى الورا وانتشروا على الأكام والروابي خلف معسكرهم القديم ثم اتجه المصريون إلى ربوة على ميمينتهم وغيروا اتجاه الصفوف ولكنهم فوجئوا بنصب بطارية كبيرة على الأكمة التي كانت عندنا مفتاح القتال وحينئذ بدأ المصريون بالهجوم على جميع الخطوط بكل قواهم وأخذت مدافعهم تطلق النار الدائمة مع الزحف المتواصل إلى الامام فانسحب الترك إلى معسكرهم القديم فلحق بهم المصريون واحتلت مدفعياتهم الروابي فكانت هزيمة العثمانيين تامة وغنمنا ١٤٤ مدفعا وصناديق ذخائرها و ٣٥ مدفعا في حصون بيده جيك وجميع الخيام من خيمة حافظ باشا إلى خيمة أصغر جندي ومن ١٨ ألفا إلى ٢٠ ألف بندقية وأخذنا من ١٢ ألفا إلى ١٥ ألف اسبر » ا هـ

وابدى الحرس السلطاني مقاومة عجيبة . ولما دعى لالقاء سلاحه والتسليم
اجاب قائده « ان الحرس السلطاني لا يلقي سلاحه امام الموت »
وقد كان سرور ابراهيم باشا بهذا الفوز عظيما حتى ضم سليمان باشا الى صدره
وقبله وكان سليمان باشا ليلة المعركة يحض الضباط ويقول لهم : ايها الاخوان
الضباط اني منذ الآن اعين لكم موعد الملتقى غدا . فعند ساعة الزوال يكون ملتقانا
تمت خيمة حافظ باشا لتناول القهوة معا ولم يخطئ سليمان باشا في ضرب هذا الموعد
لضباط الجيش المصرى

وارسل ابراهيم باشا الى كل وال من الولاية بشرى انتصاره وأمرهم باقامة
الافراح مدة اسبوع واخبرهم انه زاحف على قونيه وقال سليمان باشا للضباط « أما
فى المرة الآتية فاما ان نذهب نحن الى استامبول اويأتى الترك الى القاهرة »

وبعد يومين من المعركة وجيش ابراهيم باشا زاحف الى ما وراء جبال طوروس ،
وصل الى معسكره المسيو كايه مندوب وزير خارجية فرنسا وهو يحمل اليه كتاب
والده الذى يأمره بالوقوف فاطاع الأمر ولم يزد على احتلال مرعش وأورفا

→ وفى ٣٠ يونيو أى بعد ستة ايام من معركة نصيبين توفى السلطان محمود وكان
ضعيف البنية مصابا بالعلة الصدرية ونودى بابنه عبد المجيد سلطانا فابقى عبد
المجيد خسرو باشا فى منصب الصدارة وكان السلطان محمود قد أمر فوزى باشا
بالخروج بالاسطول لمعاونة جيش حافظ باشا على القتال فلما بلغه خبر وفاة
السلطان وابقاء خسرو باشا فى منصب الصدارة وايقن بان خسرو باشا هو الذى
يحكم لا السلطان الشاب - وخسرو باشا هو عدوه اللدود فلا يعدم وسيلة
للاتنقام منه - فر باسطوله الى الاسكندرية وانضم الى محمد على باشا

وهكذا اضاع السلطان محمود حياته وجيوشه واسطوله فى محاربة مصر
ولما رجع حافظ باشا الى استامبول عقدوا مجلسا لحاكمته لانه شرع بالهجوم

قبل ان يصل اليه الأمر بذلك فبرز حافظ باشا ككتانا من السلطان بخط يده
يامره فيه بالهجوم وهكذا كان السلطان محمود يندع السفراء بالتظاهر بالسلم في
حين كان يصدر اوامره السريه بالحرب

تقدم ابراهيم باشا بعد معركة نصيبين في ٢٤ يونيو ١٨٣٩ فاحتل اورفا
ومر عرش وعينتاب وأرسل اعيان الاناضول يهنئونه ويعربون له عن ولائهم
ولكنه وقف هناك بامر والده الذي حمله اليه كايه مندوب فرنسا كما كان قد
حمل اليه مندوب فرنسا الأمر للوقوف في سنة ١٨٣٣ في قونيه وكوباھيه
وفي ٥ يوليو أرسل السلطان عبد المجيد إلى محمد علي يعرض عليه ولاية مصر
بالوراثة فطلب محمد علي هذا الحكم بالتوراث في بيته على جميع البلاد التي كان
يتولاها يومئذ ولكن الدول تفرقت في ذلك اراؤها فروسيا ارتاحت الى ان يتفق
محمد علي والباب العالي وان كل تراأت ان تتفق الدول على نزع سوريا من ولاية
محمد علي وهي التي منعت حتى لا يمد يده الى بلاد الحبشة وطرابلس الغرب
ووضعت يدها على عدن لتقف بوجهه في اليمن وابرمت اتفاقا مع امام اليمن لهذا
الغرض وآخر مع امراء الخليج الفارسي لتحول دون امتداد سلطانه على بلاد
العربية بعد ما وصل عماله الى البحرين وهي التي حالت دون اتفاقه مع شاه ايران
الذي كان يريد محالفته وهي التي اعلنت بعد ذلك ان تحصر نفوذه في الارض
الافريقية وهي التي اقترحت على فرنسا اخذ الاسطول التركي من محمد علي
بالاكراه والقوة بعد ما سلم هذا الاسطول نفسه في ١٤ يوليو . ورأت فرنسا ان
تضع الدول الاتفاق بين محمد علي والباب العالي ليكون اتفاقا مضمونا
وانذرت النمسا الباب العالي بالايرم اتفاقا مع محمد علي دون مشاورة الدول
الخمس وكان الباب العالي قد قرر ارسال وفد إلى محمد علي يحمل اليه جوابه على
مطالبه وهذا كتاب الصدر الاعظم الذي كان قد ارسله الى محمد علي

« ان عظمة مولانا السلطان الممتلىء حكمة وعدلا من فضل الله عليه قال عند مارق عرش آبائه العظام » ان باشا مصر محمد على كان قد ارتكب أعمالا مكدره نحو ساكن الجنان والذى المعظم فوقعت بعد ذلك وقائع عديدة حتى انهم من عهد قريب اخذوا باعداد معدات العداء ولكنى لا أود تكدير صفو ريعتى وإراقة دماء المسلمين فأنا إذن أنسى الماضى وأغض عنه على شرط أن يقوم محمد على بواجبات العبودية والتابعة نحوى لينال عفوى السامى وإنى أخوله النشان العالى الشان الذى يحمله وزرائى الكرام وأخوله أن تكون ولاية مصر فى سلالته »

وكان الباب العالى يميل انى اعطاء محمد على (١) ولاية مصر بالتوارث (٢) ولاية سوريا لابراهيم باشا (٣) ولاية مصر لابراهيم بعد وفاة محمد على وحينئذ تعود ولاية سوريا للباب العالى »

وقد كان بالامكان الوصول الى الاتفاق لولا اغلاط السياسة الفرنسية التى أرادت اخراج الباب العالى من كنف روسيا فاضطرت هذه الدولة الى الانضمام لانكلترا والنمسا عدوتى محمد على حتى انتهى الأمر بأن وضعت الدول الخمس مذكرة قدمها السفراء الى الباب العالى فى ٢٧ يوليو باسم انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا هذا نصها :

« ان سفراء الدول موقعى هذا يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالى انهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بأن الاتفاق على المسألة الشرقية تام بينها فهم يطلبون منه أن يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظراً لما يكون له من المنافع التى يرونها »

فهذه المذكرة - يقول سفير انكلترا - شجعت الباب العالى وأمدته بالقوة لمقاومة محمد على والدفاع عن مصلحة السلطان وفتح الباب للحكومة

الانكازية لتعمل ما تراه مفيدا وصالحا

وانقضى شهر أغسطس بالمناقشة والجدل بين الدول وكانت فرنسا تطلب
لمحمد علي ولاية سوريا فرد اللورد بالمرستون « إنا لا نتوصل إلى تأمين السلطنة
العثمانية إلا بفصل مصر عن تركيا بالصحراء فليظل محمد علي واليا على مصر
بالتوارث » .

« وهذا كل ما كان يطلبه ولكن فلباعد بينه وبين أملاك السلطنة حتى
لا يكون احتكاك بين هاتين القوتين وأما إذا ظلت ولاية سوريا في بيت محمد
علي فكيف تستطيع أوروبا أن تقول انه لا يقع بعد ذلك حادث يقطع هذا
الخيوط الضعيف الذي ربط تلك الولايات بتركيا »

وأرسل بعد ذلك سفير فرنسا في لندن إلى وزير خارجيته عن سياسة
انكلترا مع محمد علي يقول : « انها تريد اتباع سياسة الاكراه نحو محمد علي إما ليرجع
الاسطول التركي الذي انضم الى اسطوله وأما لعله على قبول ولاية مصر وحدها
بالتوارث . وان قاعدة سياسة بالمرستون التي يكررها بلا انقطاع انه يجب اتخاذ
الوسائل التي تجعل محمد علي عاجزا عن الاضرار وعن أن يجعل ضرباته قاضية
على تركيا »

وظلت المفاوضات دائرة بين الدول بهذا الصدد حتى شهر اكتوبر ولكنهم
لم يصلوا الى نتيجة وحينئذ رأى بالمرستون أن يقرب بين نظريته ونظرية فرنسا
فاقترح على فرنسا في ١٣ اكتوبر « ان تضاف الى ولاية مصر بالتوارث باشاوية
عكا ما عدا قلعة عكا التي تظل تحت حكم الباب العالي لأنها مفتاح سوريا
وان تبتدىء الحدود من جبل الكرمل المشرف على خليج عكا الى طبريا ومن
هناك تنحني الى خليج العقبة الخ حتى تظل طريق الحج في يد السلطان
أو بالأحرى في يد الخليفة . ولكن الحكومة الفرنسية التي كان عليها أن تقبل

هذا التساهل لم تستطع قبوله في نظر الوزير فرسينه متابعة للرأى العام الفرنساوى الذى بات وهو لا يقبل قولاً في مؤازرته لمحمد على لأن انتصارات ابراهيم السريعة ملكت عليه مشاعره وأصبح اسم سوريا لا يقبل في نظر الرأى العام الفرنساوى انفصالا عن اسم ابراهيم . فكان يرى أن من الظلم الفاحش حرمانه من فتوحاته وكانوا فوق هذا كله يقدرون قوته الحربية فوق ما هي في الحقيقة فلم يحسبوا لضعف خصمه حساباً في القتال لذلك كان الفرنساويون يعتقدون بأنه مع القليل من المساعدة يلقاها من فرنسا يستطيع الوقوف في وجه أوروبا

ويقول لنا سفير فرنسا في لندن الجنرال سبستيانى انه عند ما أعرب للورد بلمرستون عن هذه الآراء أجابه هذا الوزير بقوله :

« وأنا أستطيع أن أصرح لك باسم مجلس الوزراء أن التساهل الذى أبديناه باعطاء محمد على قطعة من باشاوية عكا قد قررنا سحبه » ولما أراد السفير مواصلة البحث والمناقشة قابله الوزير الانكليزى بالصمت والاعراض وظنت حكومة فرنسا أن تغيير سفيرها في لندره بأخراً أكثر ميلاً الى محمد على قد يستطيع التأثير على اللورد بلمرستون ويجد الحجة المقنعة فأوفدت في هذه المهمة الموسيو غيزو الذى دافع عن محمد على من على منبر مجلس النواب فيكون الرأى العام راضياً عن تعيينه واثقاً به . فلما قابل الوزير الانكليزى المقابلة الاولى قال له بلمرستون « انه سيجعل في دائرة تفكيره جهد ما تصل اليه طاقته من التساهل مع محمد على ارضاء لفرنسا وليحملها على قبول مبادئ الاتفاق الذى يوضع بهذا الصدد وانه لا يقرر شيئاً تقريراً نهائياً قبل اطلاعه عليه »

وفي أول مارس سقطت وزارة المارشال سولت وقامت وزارة تيرس ولم يكن أقل ميلاً الى محمد على من خلفه فحاول السفير أن يحمل اللورد بلمرستون على التساهل واستعان بزميله سفير روسيا وسفير النمسا لأنهما كانا أقل صلابة

من اللورد بليرستون الى ان كان ٥ مايو فاقترح برأى حكومته أن تقسم سوريا بين محمد على والسلطان وأن يخطى محمد على باشاوية عكا حتى حدود باشاوية دمشق وطرابلس ، ولما قابل سفير النمسا اللورد بليرستون قال له اللورد انه يسلم باقتراح النمسا لتنضم فرنسا الى الدول فاذا أبى محمد على قبول ذلك فان النمسا تنضم الى انكلترا وروسيا لاستخدام وسائل الاكراه ولكن الميسوتيرس أجاب في ١١ مايو أن محمد على - على ما نعرف من ميوله - لا يسلم بذلك

وفي الحقيقة أن محمد على كان يقول لقناصل الدول انه لا يقبل الشروط التي يقترحونها وانه لا يتردد في مجابهة الدول فيسلم بلاد العرب لشريف مكة ويزيد جيشه مئة ألف ويصدر الأمر إلى ابراهيم بالزحف على قونيه. ولما أصدر الأمر إلى ابراهيم في ذلك رد ابراهيم باشا على والده في ٤ سبتمبر أنه لا يوجد وجه لمعاندة الدول الآن وأنه لا يستطيع الاعتماد على جيش الحجاز لما تولاه من التعب وكيف يكون بالامكان نقله إذا حصرت انكلترا السواحل فضلا عن وجود عناصر الفوضى والفتن في سوريا فاذا ظهرت مراكب الدول ضد المصريين في سواحل سوريا قطعت المواصلات عن جيشه في الأناضول

وتلا ذلك تقارير الولاية عن أن الرسل الأجانب يملأون سوريا وأنهم يحرضون الأهالي ويبيدرون الأموال على أصحاب النفوذ بغير حساب ويهربون لهم السلاح وفي ابان ذلك كله كان محمد على قد طلب عزل خسرو باشا من الصدارة لأنه عدوه الذي يحول دون مصالحته مع الباب العالي وقال « إن خسرو باشا لو لم يكن موجوداً لذهب هو ذاته إلى استانبول واتفق مع رجالها على وجوه اصلاح الدولة والنهوض بها »

فلهذا عزل خسرو باشا ارتاحت فرنسا إلى ذلك وظنت أن مصالحة محمد على مع الباب العالي باتت سهلة لأن محمد على رضى بأن يعيد الأسطول للسلطان

فاذا تم هذا تفادت الدول عن عقد مؤتمر في لندن ، ولكن انكلترا لم تنظر إلى ذلك بعين الرضا بحجة أن فرنسا تلعب دورها في الخفاء وتتجاوز عن الدول الأخرى وبذلك تكون فرنسا قد قضت على مذكرة الدول بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ وقد نالت وحدها الفوز في الاسكندرية والاستانة دون الاتفاق مع انكلترا والدول الأخرى

وهذه الأسباب كلها دعت اللورد بلمرستون إلى أن يعجل بالعمل الحاسم . فبعد الاتفاق مع زملائه الوزراء ومع سفراء الدول الأربع استدعى إليه سفير فرنسا في ١٧ يوليو وسامه مذكرة مكتوبة وقال له عند تسليمها انه لم يشأ أن يقول له ماورد في هذه المذكرة مخافة أن تبدر كلمة تخالف رأيه وفكره وهذا نص المذكرة :

« إن الحكومة الانجليزية تلقت أثناء جميع المفاوضات التي دارت في خريف العام الماضي اصدق الأدلة وأوضحها وأقطعها ليس فقط على رغبة بلاط النمسا وبريطانيا وبروسيا وروسيا على حب الوصول إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على التسوية اللازمة لتسكين الشرق بل على رغبتها - فوق ماتقدم - في اظهار الاهمية التي تعلقها هذه الدول على النتيجة الادبية التي تنجم عن هذا الاتحاد والتعاون بين الدول الخمس في مسألة ذات خطر عظيم وهي متصلة كل الاتصال بالسلام الأوروبي

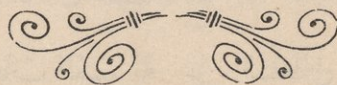
« ولكن الدول الأربع رأت مع الأسف الشديد أن جميع مجهوداتها للوصول إلى هذا الغرض كانت عقيمة مع أنها اقترحت مؤخراً على فرنسا أن تتحد معها لعرض مقترحات التسوية على السلطان ومحمد علي وهذه التسوية مؤسسة على الآراء التي ابداهها سفير فرنسا في لندن في آخر العام الماضي ومع ذلك لم تر الحكومة الفرنسية الاشتراك للوصول إلى هذا الاتفاق وعلقت

معاونتها مع الدول الأخرى على الظروف التي رأت هذه الدول أنها لا تتفق مع
صيانة استقلال الدولة العثمانية وبقائها ومع راحة أوروبا في المستقبل

« فلم يبق أمام هذه الدول إلا أن تدع لحكم المستقبل الشؤون الهامة التي
تعهدت بتسويتها وأن تقر بعجزها وتدع سلام أوروبا عرضة للأخطار التي
تزايد أو تخطو إلى الامام دون فرنسا وأن تصل بوسائلها الخاصة إلى حل
مسائل الشرق طبقاً للعهود التي قطعها مع السلطان وهي تكفل السلام

و بين هذين الموقفين ، ولا اعتقاد الدول بضرورة الحل السريع لتعلقه بالمرافق
المتعلقة عليه، رأت الدول الأربع اختيار الموقف الثاني وقد أبرمت مع السلطان
اتفاقاً لحل المشا كل القائمة الآن في الشرق

« وعند ما وقعت الدول الأربع الاتفاق شعرت بالأسف الشديد لانفصالها
موقتاً عن فرنسا في مسألة أوروبية بحثة والذي يخفف من الأسف ان فرنسا
كررت تصريحاتها بأنها لا تعترض على التسوية التي تقرها الدول الأربع وتحمل
محمد على على قبولها إذا هو ارتضاها ولا تعترض على الوسائل التي تتخذها الدول
بالاتفاق مع السلطان لا كراه محمد على باشا مصر على القبول وأن السبب الوحيد
الذي منع فرنسا عن الاتحاد هو اعتماد الدول على الوسائل الا كراهية ضد محمد على
ثم أعربت المذكرة عن الأمل بان تستخدم فرنسا نفوذها لدى محمد على
ليقبل ما سيعرضه عليه السلطان »



الفصل الثالث عشر

ثورة اللبنانيين وأسبابها - بين الدول وفرنسا

لما تلا اللورد بالمرستون باسم الدول الأربع المذكورة على سفير فرنسا بأنهم اتفقن مع الباب العالي على أن يقدم مقترحاته لمحمد علي وعلى أن يتخذن وسائل الاكراه ليحملنه على قبولها . لم يشأ أن يبين للسفير تلك الوسائل فردت فرنسا على مذكرة الدول الأربع بمذكرة في ٢١ يوليو قالت فيها :

« إنها كانت ترغب دائما في العمل مع انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا لخدمة السلام ولم تنظر إلى المقترحات التي عرضت عليها من وجهة مصلحتها الخاصة بل من وجهة المصلحة العامة لأنها دون سائر الدول منزهة في الشرق عن الأغراض . لهذا اعتبرت كل المقترحات التي ترمى إلى حرمان محمد علي بقوة السلاح المنطقة التي يحكمها الآن من أملاك تركيا مقترحات جائرة ولا تظن أن ذلك مفيد للسلطان لأنهم يعطونه ما لا يستطيع صيانتة ولا إدارته . ولا ترى أن ذلك مفيد لتركيا على وجه عام ولا للتوازن الاوروبي على وجه التخصيص لأنه يضعف تابعا يستطيع أن يدافع عن وجود الدولة دون أن ينيل المتبوع أية فائدة ، على أن المسألة مسألة أسلوب وطريقة تختلف فيها الأنظار . وإذا كانت فرنسا قد عارضت في استخدام القوة فلا أنها لم تعرف الوسائل التي تتذرع بها الدول الخمس وظهر لها أن هذه الوسائل إما أنها نافعة وإما أنها مضرّة ومع ذلك لم يقترح عليها في العهد الأخير أي اقتراح تستطيع المناقشة فيه فلا يصح أن يعزى إليها رفض ما لم يعرض عليها وعلى ذلك هي تعلن أن اتخاذ أي قرار دون التذرع بوسائل التنفيذ هو قرار ليس ثمرة التفكير بل هو قليل التدبير

كذلك القرارات دون وسائل التنفيذ أو بوسائل مترددة بين النفع والضرر
« لاشك أنهم غنموا فرصة انتقاض بعض أهالى لبنان ليجدوا فى هذا
الانتقاض وسيلة التنفيذ التى لم تبد قبل اليوم . فهل هذه الوسيلة وسيلة شريفة ؟
وهل هى مفيدة لتركيا ضد والى مصر ؟ فلم يريدون تعزيز السلام وهم فى الوقت
ذاته يبذرون بذور الفتن والثورات فى أراضى السلطنة فهم يزيدون الاضطراب
العام الشامل اضطرابات جديدة . وهل هم يقدرّون على اخضاع هذه الشعوب
بعد اثارها على والى ؟

« فهب أن محمد على أخذ الثورة وهب أنه أعاد حكمه على سوريا فهل
تكون بعد ذلك أقل تمسكا وألين شكيمه ؟ وهل إذا رفض المقترحات التى
تعرض عليه ماذا تكون وسائل الدول الأربع ؟

« إن هذه الوسائل التى صرفوا سنة فى البحث عنها لم يجدوها فجأة وفى
هذه الحالة يكونون قد أوجدوا خطراً جديداً أشد من سواه وهو أن محمد على
الذى أثاروا حفيظته والذى ساعدت فرنسا على ايقافه قد يتجاوز طوروس
ويكرر تهديد استامبول . فماذا تفعل الدول الأربع فى هذه الحالة وما هى
وسائلها لدخول الأراضى التركية لاعانة السلطان ؟ ان فرنسا ترى أنهم أعدوا
لاستقلال تركيا وللسلم العام خطراً أشد من خطر مطامع والى مصر

« فاذا كانت الدول الأربع لم تنظر إلى هذه النتائج فإنها تكون قد انتهجت
طريقاً مظلماً وخطراً . وأما إذا كانت قد نظرت إلى الوسائل والنتائج فالواجب
عليها أن تعلنها لاوروبا وفرنسا على وجه التخصيص وهى لا تزال تطلب منها
استخدام نفوذها الأدبى فى الاسكندرية

« وفرنسا تعتبر ان ما بذلته من النفوذ الادبى كان فرضاً عليها ، وترى أن

هذا الفرض محتم ايضاً عليها في الموقف الذي وقفته الدول الاربع الخ «
ولما سلم سفير فرنسا هذه المذكرة للورد بلمرستون وسأله عن سبب اهمال
فرنسا اجابه ان حكومتكم لم ترض ان تكون حدود حكم محمد على خليج عكا
وأجابتنا ان محمد على لا يسلم باى تقسيم لبلاد سوريا فاعتبرنا ذلك من حكومة
فرنسا قراراً حاسماً فانصرفنا لغرضنا وزاد على ذلك قوله : انهم لا يحصرون
السواحل لأن محمد على ليس سيد البلاد وليست له صفة المحارب فحق الحصار
للسلطان وحده فهو سيعمل كل ما يستطيع عمله بقوته ونحن لا نتعرض للمصالح
التجارية ولا لحقوق المحايدين «

ولا شك في ان ثورة اللبنانيين — كما جاء في مذكرة فرنسا — كانت السبب
الأول الذي دفع الدول الاربع للاقدام على الاسراع بعملها بعد ان عملت لاعداد
تلك الثورة منذ زمن بعيد حتى ان حزب المحافظين في انكلترا — وكان يعارض
سياسة بلمرستون — أوفد إلى سوريا اثنين من نوابه لدرس الحالة فلما عاد اللورد
اجرتون واللورد الفونيلي قدما تقريراً عن اعداد الثورة اللبنانية التي تجعل مركز
ابراهيم باشا ضعيفاً جداً

بدأت هذه الثورة في أواخر مايو سنة ١٨٤٠ وكانت لها أسباب عدة أولها
تخريض قناصل الدول في بيروت لما كان بينهم وبين ابراهيم باشا من النزاع على
السلطة . والثاني انتشار رسل الانكليز والنساويين وتوزيعهم الاموال على الناس
واغرائهم على الثورة . والثالث ادخالهم في وهم الأهالي ازالة حكم بلادهم من يد
امرائهم وشيوخهم وتجنيد شبانهم ونزع سلاحهم ثم قرار الدول على أن ترسل
جيوشها إلى لبنان، حتى ان أولئك الرسل كانوا يؤولون أقل حركة تبدو تأويلاً

يوغر الصدور كتأويلهم نقل مركز سليمان باشا الفرنساوى من صيدا إلى بيروت
بأنه لتجنيد اللبنانيين والاستشهاد على ذلك بتجنيد بعض الطلبة اللبنانيين الذين
كانوا يتلقون العلم في مصر وكتأويلهم وصول مركب من مصر إلى
بيروت مشحوناً بالملابس العسكرية بأن هذه الملابس للشبان اللبنانيين الذين
يجندون ، وضاعف في هذه الدعاية اضعاف سلطة الأمير بشير والأمراء
وطلب الفردة (وهى الضريبة الشخصية عن سبع سنين مقدماً . والفردة أن
يدفع كل شخص من سن الخامسة عشرة فصاعدا ضريبة اقلها ١٥ قرشاً
واكثرها ٥٠٠ قرش) وعن الاحياء والاموات المقيمة اسمائهم بالدفاتر
وكانوا يدفعون المال لأميرهم ، أضف إلى ما تقدم سخط اصحاب الاقطاعيات
الذين زال نفوذهم . ولما وصلت في أثناء ذلك قوة من الجيش المصرى إلى
بعلبك وأخرى الى طرابلس أولوا مجيئها بأنه لا كراه اللبنانيين على تسليم
السلاح وعلى دفع الفردة عن سبع سنين وعلى تجنيد الشبان . فدارت المفاوضة
بين النصارى والدروز على ما يجب عمله . فقرر زعمائهم فى اجتماع عقدوه فى دير القمر
مقاومة ابراهيم باشا اذا هو حاول أخذ جندى واحد منهم وأنشأوا صناديق
لمشتري السلاح وكانت كل مقاطعة قد انتدبت اثنين للنياحة عنها واتفق
الجميع على بث دعوة العصيان ووجهوا إلى أعيان البلاد رسالة قالوا فيها ان
ابراهيم باشا أمر بجمع السلاح وانهم بسطوا له الرجاء مراراً ليمتثل لهم السلاح
فى أيديهم فرفض والمراد من نزع السلاح تحصيل فردات وتجنيد الشبان
لذلك أعلنوا العصيان خوف الغدر بهم وهم لا يقدمون الطاعة إلا لأميرهم
إلى قولهم فى تلك الرسالة :

« أمس تاريخه حضر لنا علم من صيدا بأنه تتوجه علينا عسكر وفى
النهار ذاته توجه من هذا الطرف عسكر وصحبته المشايخ بيت أبو نكد وساعة

تاريخه نهار الخميس حضرت لنا بشارة سنية بأنهم ظفروا بهؤلاء الخارجين وأخذوا منهم مئة وثمانين بارودة ولا زالوا منتظرين على جسر صيدا بانتظار العساكر التي تمر لجهتنا فترغب أن تكونوا كما نحن منتظرين سهرانين ولكم أعين بجهة نواحي بيروت وجهة الشمالية وكلما جد عندكم عرفونا حالا صحة مخصوص وبحوله تعالى أنتم الظافرون ولا يلزم أن نحكم على التيقظ كون هذا صالحه عائد للجميع نسأله تعالى أن نسمع عنكم كل ما يسر الخاطر حسب عوائدكم السابقة هذا ما لزم افادتكم والله يحفظكم

اخوتكم أهالي دير القمر

نصاري ودروز

٢٧ أيار ١٨٤٠

وهكذا بدأت الثورة اللبنانية التي اعتمد عليها اللورد بالمرستون لاعلان اتفاق الدول الأربع دون فرنسا كما قلنا

ولما بلغ ابراهيم باشا خبر اتفاق دير القمر كتب الى الأمير بشير ليجمع السلاح الذي كان قد وزعه على النصاري ليقاتلوا به الدروز ابان ثورتهم وأرسل رسالة الى الأعيان يحذرهم من الاغترار بفرض الأهالي تسليم سلاحهم

وأرسل الأمير بشير كتابا الى أعيان البلاد يقول فيه « بلغنا ان جهال دير القمر أرسلوا اليكم مكاتيب لأجل أن يغشوكم كما غشوا ذواتهم ولكم يرموكم تحت تغيير الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتهم ولكن رافة بكم وخشية لئلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار هذا الأمر اليكم نحذركم وننصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الآثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالا اطردهم وارموا عليهم القبض وارسلوهم لطرفنا »

ولما رأى ابراهيم باشا حركة العصيان وعدم تسليم السلاح أرسل قوة لجمعه من نصارى الشحار والمناصف فاستنجد هؤلاء بأهل دير القمر فذهب منهم لنجدتهم مئة شاب فاحتفى الضابط بالشيخ محمود النكدى ووصل بعد ذلك خبر قدوم سليمان باشا من صيدا الى دير القمر فذهب مائتان الى جسر الأولى وطردها العساكر من الخان وانضم اليهم أهل المعلقة وجدوا في أثر الجنود حتى أبواب صيدا وأرسلت حامية صيدا في اليوم الثاني الفى جندى جمعوا أمتعة الجنود وعادوا الى صيدا وسلب أهالى بعدا سلاح الجنود الذين كانوا قادمين من دمشق الى بيروت فاستعاده منهم الأمير حيدر وأرسله إلى الأمير بشير

وهكذا أخذت الثورة تمتد وقادها بعض الأمراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ آل الخازن وحبيش والدحداح . وبرز فيها أبو سمرا غانم ويوسف الشنتيرى فكانا من أبطالها حتى ان اللبنانيين كانوا يتغنون ببطولتهما ويقولون : « سبعين طلوعوا فى الديرى بو سمرا والشنتيرى »

ولما اشتدت حركة الثورة فى جنوبي لبنان وضيق الخناق على مدينة صيدا أرسل سليمان باشا آلايا من الجند المصرى لحراسة المطاحن وأمر الجنود ألا يتعرضوا للثوار وأرسل الى هؤلاء رسولا بأن محمد على باشا لا يطلب نزع سلاحهم منهم بل استعادة السلاح الذى وزعه عليهم ليسلح الرديف به وأكد لهم انه لم يخطر بباله تجنيدهم وأرسل الأمير بشير رسالة لتسكين الأفكار فعاد الثوار الى قراهم ولكن ظهر بجوار بيروت فى أوائل يونيو زعيان للثورة هما احمد داغر وأبو سمرا غانم فهاجموا الحامية فى مدينة بيروت وفى ٤ يونيو اجتمع أعيان اقليم المتن وكسروان وتحالفوا على العدوان ونهبوا مخازن الحكومة ومستودعاتها فأرسل اليهم الأمير بشير ولده الأمير أمينا ليخلدوا الى السكينة فأجابوه انهم يطيعون إرادته اذا أحييت مطالبهم وهى :

١ — بقاء سلاحهم بأيديهم

٢ — اعفائهم من التجنيد

٣ — اعفائهم من الفردة إلا عن الأحياء

٤ — إبطال السخرة والشغل في معدن الفحم الحجري في قرنايل
ثم طلبوا من الأمير بشير .

١ — تأليف ديوان مشورة يكون مؤلفا من اثنين من كل طائفة

٢ — أن يكون معدل الفردة ٣٠ قرشا عن كل رجل

٣ — اذا عجز مديون عن وفاء دينه لا يكلف أحد أقاربه الدفع

ولما وصل خبر امتداد الثورة الى محمد علي في أنحاء لبنان كله أرسل حفيده

عباس باشا الى سوريا ومعه اثنا عشر الفا من الجنود ووصل عثمان باشا من الشمال

ومعه ١٢ الفا وكان سليمان باشا يقود القوات المرابطة على السواحل وعددها

عشرون الفا وهذه القوات التي طوقت لبنان من كل جانب أخذت تقاتل

الثوار وأخذ الأمير بشير يبذل مجهوده لاختاد الفتن ولما جمع أعيان البلاد في بعقلين

ليعينوا موقفهم قدموا له المطالب الآتية :

١ — انهم نصارى ودروز على قلب واحد

٢ — انهم لا يسلحون سلاحهم

٣ — انهم لا يقدمون الجنود

٤ — انهم لا يدفعون الفردة

٥ — انهم لا يدفعون سوى مال واحد

٦ — انهم لا يدعون العسكر النظامي يدخل البلاد

٧ — انهم لا يحاربون أحدا من أبناء البلاد إلا اذا هو أقدم على محاربة

الأمير بشير ذاته .

وأرسل محمد على باشا الى عباس باشا وعثمان باشا باخماد الفتنة والقبض على زعمائها وارسالهم الى الاسكندرية فهاجم عباس باشا البلاد من الساحل وعثمان باشا من الجنوب وأخذ الأمير بشير يجمع السلاح وأرسل عباس باشا ٥٧ شخصا الى الاسكندرية بينهم أربعة من الأمراء الشهابيين وبعض المشايخ الدروز والنصارى ومن زعماء الثوار يوسف الشنتيرى فأبعدهم محمد على باشا الى سنار وكتب محمد على باشا الى عباس باشا انه بلغه خبر قيام الأسطول الفرنساوى والأسطول الانكليزى الى ميناء بيروت وان قيامهما ليس لقصد سىء ولكنه يجب عليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة وقال فى كتابه وان منع الدول عن التدخل لا يكون إلا بالقضاء على الفتنة والثورة

وكتب اليه ثانية بأنه سره دخول أهالى جبل الدروز بالطاعة ولكنه يجب نزع سلاح المسيحيين وسواهم وإمداد الأمير بشير بالقوة وأرسل الى الأمير بشير نيشان الافتخار المرصع والى أولاده نياشين أخرى والى جماعة من مشايخ الدروز الهبات المالية فوهب الشيخ خطاب ٣٧ كيسا وعبد السلام بك ٣٠ كيسا ونعمان بك ٦٠ كيسا ولطيف بك ٩٠ كيسا

ولما أرسلت الدول الخمس مذكرتها فى ٢٧ يونيو — وقد نشرناها فى فصل تقدم — أرسل محمد على الى عباس باشا فى بيروت يقول له « يظهر لنا من الحالة الحاضرة ان الدول متحيزة ضدنا وقرار مجلسهم فى لندره يمس مصالحنا ويخالف مقاصدنا فيجب عليكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى سائر المواقع العسكرية على سواحل مصر والشام فاذا حشدت الدول عساكرها ضدكم فقوموا بالدفاع وقد صدر أمرنا الى عمكم ابراهيم بما تقدم فالواجب السير عليه . واذا ما تظاهرت الدول بعمل ضد مصر تحضرون الينا إما براً وإما بحراً وتعيدون العساكر التى

أتت اليكم من جهة كوكبك الى مكانها والخلاصة انه يجب عليكم أخذ
الأمر بالحزم »

ولما اجتمع سفراء روسيا وبروسيا والنمسا باللورد بلرستون ليتفقوا على اكرام
محمد علي على ترك سوريا كتب محمد علي الى عباس باشا وابراهيم يقول :
« لم يعرف قرار حكومة لندرة بالضبط حتى الآن لكننا تحصلنا من كتاب
قناصل روسيا وانكلترا والنمسا انهم يرون بث الفتن في بلاد الشام ومساعدة
الاهالي بارسال ستة آلاف جندي عثماني إلى قبرص وارسال السلاح
والذخيرة لتوزيعها على أهالي سوريا وارسال فرمان سلطاني إلى الأمير بشير
بالخروج عن طاعتنا والولاء لنا وارسال رسل من لدن الدول الأربع على وابور
انكليزي ليوزعوا في بلاد سوريا لحض الناس على الخروج من حكم محمد علي .
أما فرنسا فانها تعد مئة ألف جندي فعليكم رقابة السواحل ومنع خروج الأجانب
من المراكب ومنع نشر الكتابات المهيجة واتخاذ نظام الحجر الصحي حجة لهذا
المنع واستعملوا الشدة المتناهية »

وكان محمد علي ابان ذلك يستعد ويتأهب للدفاع فألف في مصر حرسا وطنيا
بتجنيد العمال في ورش الحديد وورش المهمات الحربية وورش بولاق وتلامذة
المكاتب واستثنى عمال المصانع وتقدم من المشايخ السيد العزبي لتأليف الايين
من الرديف والشيخ حسن سرور والشيخ علي الجزار لتأليف الايين فأنعم عليهم
برتبة الميرالاي ثم استأذنه الشيخ عثمان السناري بتأليف الايين من شبان
باب الشعرية والجمالية أسوة بعلي الجزار وحسن سرور فأذن له وأنعم عليه برتبة
الميرالاي ثم ألف هذا الشيخ الايين آخرين فأنعم عليه برتبة اللواء وألف الشيخ
محمد الابراشي الايا من قسم السيدة زينب والخليفة وابراهيم عارف من الدرب

الأحمر وقيسون وعلى سعيد وسالم بدوى أربعة الايات فأنعم برتبة اللواء على الشيخ محمد الأبراشى والميرالاي على الشيخ سعيد والشيخ سالم وهكذا تألف ١٢ الايام من الحرس الوطنى ووزع هذا الحرس على الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق وجهات القاهرة وكان الاي يؤولف من ٣٥٠٠ مقاتل

ووجه محمد على رتبة قومندان الرديف الى محمد باشا ابن الشيخ الشرقاوى ومصطفى باشا العروسى ابن الشيخ العروسى

ثم أصدر أمراً بتأليف لجنة برياسة ولده سعيد باشا لتقوية استحکامات الاسكندرية وأمر ابراهيم باشا يكن ابن أخته والى اليمن بالحمىء الى مصر مع عساكره المراقبة هناك وأمر فى الوقت ذاته بتنظيم ابراج الارشادات التى كانت تقوم مقام التلغراف بين مصر والشام ولما وصلت آلايات اليمن وكل اليها تعليم الرديف أو الحرس الوطنى .

وكان محمد على يبذل جهده لاجماد الثورة اللبنانية لان تعليمات الميسيو تيرس وزير خارجية فرنسا لقنصل دولته فى الاسكندرية كانت تتضمن ذلك بقوله « يجب أن تكون خطة فرنسا ومصر واحدة لغرض واحد وهو محو النتائج التى تعلقها الدول الأربع على اتفاقها والطريقة الوحيدة لذلك اجماد الثورة فى سوريا فان الثورة التى اتقدت فى لبنان هى السبب الاصلى لاجرام ذلك الاتفاق بين الدول فما دامت هذه الثورة ناشبة فالاتفاق بين الدول الأربع يظل قائماً .

فاذا أخذ محمد على ثورة لبنان وحصن الاسكندرية وعكس وجمع قواته فى سوريا لضبطها وفى سفتح جبال طوروس ليوقف أعداءه ويهددهم بالانقضاض عليهم فانهم لايتوصلون لاجضاءه ولا يحملهم على التسليم وعلى محو اتفاق الدول الاربع لانهم لايملكون أية وسيلة من وسائل الاكراه

وكان محمد على على هذا الاعتقاد لأنه كان يقول ان كل ما تستطيعونه هو توزيع

المنشورات والنقود والسلاح فتذهب ضياعا لأن جنودى تحتل السهول والامير
بشير يحتل الاكام والروابى فاذا عاد اجبليون للثورة كانوا بين نارين ولا عون
لهم سوى ستة آلاف البانى ترسلهم تركيا »

وبينما كان ابراهيم باشا مجدا فى اخماد الثورة فى لبنان نزل خلصة على سواحل
طرابلس ديتشروود الذى كان قد صرف فى لبنان سنتين بحجة درس اللغة
العربية فأخذ بعد نزوله يدفع اللبنانيين الى ارسال العرائض للباب العالى لينقذهم
من مغارم حكم محمد على وكان قنصل انكلترا فى الاسكندرية يسهل على رجال
الاسطول العثمانى الفرار ولما سئل اللورد بلمرستون عن ذلك كله فى مجلس نوابهم
أجاب « انه يوافق كل الموافقة على كل وسيلة من شأنها إعادة رعايا السلطان
الى حظيرة السلطنة »

وكانت الحكومة الانكليزية قد أرسلت أسطولا الى بيروت بحجة المحافظة
على رعاياها فأرسلت الحكومة الفرنسية إحدى سفنها لرقابة حركة الاسطول
الانكليزى ووصول هذا الاسطول كان قد أشار اليه محمد على فى كتابه الى
عباس باشا فنصح القائد الفرنساوى للسفن المصرية بالعودة من بيروت الى
الاسكندرية فعملت بالنصيحة وفى ٧ يوليو أى بعد يومين من قيامها وصل
الاسطول الانكليزى ونزل قائده الأميرال نايبير الى البر وطاف أنحاء البلاد
وفى ٣ أغسطس غادر مياه بيروت وقبل أن يبعد بعيدا تلقى الأوامر بالعودة الى
بيروت وانضم بعض المراكب الى اسطوله وتلقى نص الاتفاق الذى أبرم بين
الدول الأربع لاجراج محمد على من سوريا وهو اتفاق ١٥ يوليو

وفى ١٢ أغسطس وجه هذا الأميرال بلاغا الى محمود بك متسلم بيروت بأن
انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا اتفقت على إعادة سوريا لحكم الباب العالى

وطلب منه أن يسلمه خمسة آلاف جندي تركي كانوا في جيش محمد علي وأرسلهم الى بيروت وطلب منه أن يعيد الى أهل لبنان سلاحهم ويحذره من أية حركة عدائية .

وأرسل الى قنصل انكلترا في بيروت ليبلغ ذلك للقناصل وأرسل الى قائد الجنود التركية في بيروت يحذره من الانتقال بجنوده فان هو فعل كان ذلك فاتحة الحرب والقتال

ونشر في بلاد سوريا منشورا ذكر فيه اتفاق الدول الأربع على اخراج محمد علي من سوريا وصدور خط شريف سلطاني لتأمين الأهالي ودعوة أهل لبنان خاصة الى خلع نير محمد علي ويعدهم بوصول الجنود والسلاح والذخائر قريبا اليهم

وأرسل رسالة الى الأمير بشير يدعوه لطاعة السلطان وأخرى الى الأمير بشير عمر الحاكم ومزاحمه يحثه على الانحياز لجانب السلطان ويعدده بأنه سيؤيده وبأن الباب العالي سيرسل اليه المدد

وأرسل الى سليمان باشا قائد الجيوش المصرية يخبره بأن الأوامر التي لديه تقضى بحجز السفن المصرية والسورية التي تنقل الذخائر والجنود والمؤن الحربية ويطلب منه وقف حركة هذه السفن في دائرة اختصاصه ، فأجاب سليمان باشا بأنه لم يتلق تعليمات في ذلك وليس لديه خبر بوقوع الحرب بين مصر وانكلترا حتى يحترم هذا الانذار الموجه اليه من قائد الاسطول الانكليزي

الفصل الرابع عشر

نص اتفاق الدول الأربع — الفصل الملحق — انذار محمد علي بترك البلاد
السورية -- موقف محمد علي وغضبه -- ضرب بيروت والسواحل السورية
انتهاء اشارة الأمير بشير

ان الاتفاق أو العهد الذي أبرمته الدول الأربع — انكلترا وروسيا وبروسيا
والنمسا — مع الباب العالي بشأن مصر ووقع في ١٥ يوليو ١٨٤٠ وأذاعت الصحف
أمره بعد توقيعه لم يبلغ رسميا لفرنسا إلا بعد مصادقة الدول عليه في ١٦ سبتمبر
وكان هذا العهد أو الملحق الذي ألحق به ، أساس الحالة النهائية في مصر ولكنهم
نصوا في البروتوكول الخاص على ان العهد والميثاق يعد نافذا من يوم توقيعه
وان الوسائل التي قرروا التذرع بها تنفذ في الحال لذلك رأينا الأميرال الانكليزي
يشرع في تنفيذها في ٧ أغسطس في سواحل سوريا أي عند وصولها اليه فيرسل
إنذاراته الى متسلم بيروت والى سليمان باشا قومندان السواحل السورية والى
الأمير بشير حليف محمد علي والى الهيئات الأخرى في بيروت وأما نص هذا
الميثاق فهو :

المادة الأولى — اتفقت عظمة السلطان مع أصحاب جلالة ملك بريطانيا
العظمى وإيرلندا وامبراطور النمسا وملك هنغاريا وبوهيميا وملك بروسيا وقيصر
روسيا على شروط التسوية التي تريد عظمته منحها لمحمد علي وهي مذكورة
في الفصل الخاص الملحق بهذا

« ويتعهد أصحاب الجلالة بأن يعملوا متحدين و بأن يوحّدوا مجهوداتهم لا كراه محمد على أن يتبع هذه التسوية ويحتفظ كل فريق بأن يعاون على بلوغ هذا الغرض تبعاً للوسائل التي يستطيع استخدامها في هذا السبيل

المادة الثانية — اذا أبى باشا مصر أن يسلم بهذه التسوية التي تبلغ اليه من لدن السلطان بمعاونة أصحاب الجلالة فان هؤلاء يتعهدون بأن يتخذوا — بناء على طلب السلطان — الوسائل المتفق عليها بينهم حتى تنفذ التسوية وقبل ذلك يدعو السلطان حلفاءه لمعاونته على قطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا وإلى منع ارسال الجنود الجديدة والسلاح والذخائر ومعدات الحرب من كل نوع ويتعهد أصحاب الجلالة بأن يصدرُوا أوامرهم اللازمة إلى قواتهم البحرية في البحر المتوسط ويعدون فوق ما تقدم بأن قواد أساطيلهم يقدمون ، طبقاً للوسائل المتوفرة لديهم للمحاربة ، كل تأييد وكل معاونة بإمكانهم وكذلك لرعايا السلطان الذين يعربون عن اخلاصهم

المادة الثالثة — اذا رفض محمد على الخضوع لشروط التسوية المذكورة ووجه قواته البحرية والبرية إلى استامبول فان المتعاقدين يلبن دعوة السلطان التي يوجهها إلى سفرائهم في الاستانة فيتذرعون بالوسائل التي يتفقون عليها للدفاع عن عرشه وجعل البوسفور والدردينيل وعاصمة السلطنة بمنجاة من كل عدوان ومن المتفق عليه ان القوات التي تعين للقيام بمهمة في مكان معين تظل قائمة بمهمتها إلى أن يستغنى السلطان عنها وعند ما يرى السلطان ان وجودها لم يعد لازماً تنسحب تلك القوات راجعة إلى البحر الأسود أو البحر الأبيض

المادة الرابعة — ومن المعلوم حتما ان التعاون المذكور في البند السابق والذي يرمى إلى وضع البوسفور والدردينيل والعاصمة التركية مؤقتاً تحت رعاية الدول

المتعاقدة ضد كل عدوان من محمد على لا يعد إلا وسيلة استثنائية متبعة بناء على طلب السلطان والغرض منها الدفاع عنه في الحالة المعينة والمتفق عليه ان هذه الوسيلة لا تخالف في شيء القاعدة القديمة المتبعة في السلطنة العثمانية وهي التي منعت في كل وقت المراكب الحربية للدول الأجنبية من دخول البوسفور والدرديل و يعلن السلطان من جهته انه مصمم ، في ماعدا الحالة المنوه عنها ، كل التصميم على أن يحتفظ كل الاحتفاظ بالقاعدة القديمة المقررة في سلطنته وانه مادام الباب العالي في سلام لا يسمح لأى مركب حربى بالمرور بالبوسفور والدرديل ويتعهد أصحاب الجلالة المتعاقدون على احترام ذلك

أما الفصل الملحق الذى وقعه المتعاقدون بشأن محمد على فهو :
« ينوى عظمة السلطان أن يمنح محمد على شروط التسوية على الوجه الآتى
وأن يبلغه هذه الشروط

الأول — يعد عظمة السلطان بأن يمنح محمد على وولاته المباشرة من بعده إدارة باشاوية مصر ويعد بأن يمنح محمد على مدة حياته باشاوية عكا وقومندانية قلعة عكا مع إدارة الجزء الثانى من سوريا الذى يحدد فى ما بعد على شرط أن يقبل محمد على هذه المنح بعد عشرة أيام من تبليغها إليه فى الاسكندرية على يد مندوب من لدن السلطان وفى الوقت ذاته يسلم محمد على إلى هذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد القوات البحرية والبرية لينسحبوا فى الحال من بلاد العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيرة كريد وأدنه ومن الأجزاء الأخرى من أملاك السلطنة الخارجة عن حدود مصر وحدود باشاوية عكا كما عينها .

المادة الثانية — إذا لم يقبل محمد على هذه التسوية فى مدى عشرة أيام

يسحب السلطان إدارة باشاوية عكا ولكن السلطان يظل راضيا بمنح محمد علي وسلالته المباشرة حكم مصر بالتوارث على شرط أن تقبل هذه المنحة في مدى عشرة أيام أخرى تالية للعشرة الأيام الأولى أى في مدى عشرين يوماً تبتدىء من اليوم الأول الذى يتلقى فيه البلاغ وعلى شرط أن يسلم محمد علي مندوب السلطان الأوامر اللازمة لقواد بحريته وبريته بأن ينسحبوا إلى حدود الولاية المصرية

المادة الثالثة - إن الاتاوة السنوية التى يدفعها محمد علي للسلطان تحسب على حسب الاملاك التى يعطى ادارتها اما على حساب المنحة الاولى واما على حساب الثانية

المادة الثالثة - فليكن مفهوماً فوق ما تقدم انه سواء كان فى الحالة الاولى أو فى الحالة الثانية ، فان محمد علي يسلم قبل انقضاء العشرة الايام أو العشرين يوماً الاسطول التركى وعساكره وسلاحه للمندوب الذى يعين لاستلامه ويشهد قومندانو أساطيل الحلفاء هذا التسليم

وليكن مفهوماً أن محمد علي لا يستطيع بحال من الاحوال أن يدخل فى الحساب أو يخصم من الاتاوة التى يدفعها للسلطان النفقات التى أنفقها على الاسطول العثمانى مدة إقامته فى الموانئ المصرية .

المادة الرابعة - ان جميع المعاهدات والقوانين فى السلطة العثمانية تنفذ فى مصر و باشاوية عكا المشار إليها آنفاً .

ولكن السلطان يرضى ، على شرط دفع الاتاوات ، بأن يحصل محمد علي وخلفاؤه باسم السلطان ومندوب معه فى الاملاك التى يتولى ادارتها ، الضرائب والرسوم المقررة شرعاً ومن هذه الضرائب والرسوم يدفعون النفقات الملكية والعسكرية فى تلك الاملاك

المادة الخامسة — القوات البحرية والبرية التي ينظمها باشا مصر وعكا تعد شرطاً من قوات السلطنة وتعتبر دائماً كأنها معدة لخدمة الدولة

المادة السادسة — إذا لم يقبل محمد علي في مدى عشرة أيام أو عشرين يوماً كما جاء في المادة الثانية المنح المعروضة عليه فان السلطان يكون حراً بسحب هذه المنح واتباع الخطة التي توحى بها مصالحه طبقاً للنصائح التي يسديها إليه حلفاؤه هـ

وبعد الاتفاق على ذلك كله أبرم الحلفاء بينهم اتفاقاً آخر بتنزههم جميعاً عن كل ربح أو مغنم

وفي ١٤ أغسطس وصل رفعت بك مندوب السلطان الى الاسكندرية ليلبغ محمد علي قرار السلطان والدول فكانت أول كلمة نطق بها عند سماع البلاغ « ان ما أخذته بالسيف لا أسلمه بغير السيف » وفي اليوم التالي قابله قناصل الدول المتحالفة وبلغوه قرار الدول رسمياً واستمهلوه عشرة أيام فطلب منهم أن يبلغوه ذلك كتابة ففعلوا وأبلغوه فوق ما تقدم ان فرنسا لا تستطيع مساعدته وان الدول مصممة على تنفيذ قرارها وان أفضى ذلك الى حرب أوروبية فأجابهم ان ما بيدي هو حق ولا أتنازل عنه حتى آخر رفق من حياتي

وفي ٢٤ أغسطس — وهو آخر الموعد الذي أعطى له — عاد مندوب السلطان ومعه قناصل الدول الأربع فأبلغوه أنه لم يبق له حق في ولاية باشاوية عكا لانه لم يقبلها في الايام العشرة الاولى وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر كما جاء في قرارها وعهدا فاحتدم محمد علي غضباً وطردهم من حضرته وقال لهم كيف أسمح لكم بأن تقيموا في بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فانصرفوا وقد أعطوه مهلة عشرة أيام أخرى لاعطاء جوابه فان لم يفعل تكون الدول المتحالفة غير مسؤولة عن النتائج .

وفي ٩ سبتمبر وصل الأميرال ستوفورد القائد العام لقوات الحلفاء إلى بيروت وكانت قوات الحلفاء هناك عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر المعروف في تركيا باسم ياور باشا وكانت قواتهم البرية ٣٣٠٠ تركي و ١٥٠٠ انكليزي و ١٠٠ نمسوي وهي جميعاً بقيادة الجنرال سميث وكانت القوات المصرية في سوريا ٨٠ ألفاً منها ١٥ ألفاً في سواحل بيروت وثلاثة آلاف في سواحل صيدا و ٥ آلاف في طرابلس وعشرة آلاف في بعلبك والخمسون ألفاً في جهات حدود الأناضول وسواها من أنحاء سوريا

قابل الرأي العام في مصر انذار الدول لمحمد علي بالسخط فازداد اقبال الشبان على التطوع بالحرس الوطني واندفع شيوخ الدين يقبحون عمل أوروبا وطربت اسنامبول لهذا النبأ وغضب الرأي العام الفرنسي والنمساوي وانشق الرأي العام الانكليزي لأن تجارهم جنوا الربح من وراء إدارة محمد علي في مصر وسوريا وبلاد العرب ورأى فريق آخر أن العمل الذي أقدم عليه بالمستون عمل ظالم ولكن رجال الاستعمار كان يهولهم شبح الامبراطورية المصرية قائمة على أقوى القواعد وأمتن الأسس الحديثة . فادارة ثمانى سنين في سوريا وأدنه ضاعفت حاصلاتها ومتاجرها أربعة أضعاف وادارة البلاد العربية ٢٥ عاماً ووطدت الامن ووثت روح التعمير في اليمن وسواها حتى سواحل الخليج الفارسي وادارة جزيرة كريد نظمت شؤونها ووطدت الامن وزادت حاصلاتها وكان الاقتصاديون حتى القناصل يصيحون من كل جانب بأن إعادة هذه البلاد إلى تركيا ماله اعاتها إلى الدمار واذا كان هناك اخطاء في ادارة ابراهيم ومحمد علي فهو واقع على الموظفين الذين كانت تدفعهم المطامع لاركاب الظلم الذي جعل الثورة اللبنانية تسكاة للدول الاربع المتحالفة يتكئون عليها لانجاح مقاصدهم لان اللبنانيين الذين كانوا خاضعين لامرائهم والذين أمدوا جيش ابراهيم بقوة كبيرة كانوا

يأبون الخضوع لغير أمرائهم ودفع الضرائب لسواهم .
والذي زاد في حرج الموقف خطأ السياسية الفرنسية قبل اتفاق كوتاهية
وبعده حتى ميثاق الدول الأربع في ١٥ يوليو دون اشتراك فرنسا فقد كانت
تحض محمد علي على القتال وتعهده بلسان مندوبها الجديد « والوسكي » بالمساعدة
ولكن هذه المساعدة ظهرت بأن يطلب محمد علي حماية فرنسا وبأن يقف موقف
الدفاع وبأن يوارى سفنه الحربية فلا يجعلها عرضة لنيران الأسطول الانكليزي
وكان رأى ابراهيم باشا أن يحتفظ والده بصدقة فرنسا حتى يوازن القوة
الأخرى التي تؤيد استامبول وكان محمد علي يكرر أثناء ذلك أوامره الى ابراهيم
بأن يلزم مكانه ولا يتجاوز جبال طوروس اما بمرستون روح المخالفة الأوروبية
فانه كان يهدد فرنسا اذا هي أقدمت على مساعدة محمد علي بالقوة والمال ، بأن
يستولى على أساطيلها ومستعمراتها وبأن يطلق يد النمسا وبروسيا في حدودها
واراد ليو بولد ملك بلجيكا التوسط بين فرنسا وانكلترا فلم يفلح وفي ١٧ سبتمبر
أرسل تيرس الى غيزو سفير فرنسا في لندن أن محمد علي سمع نصيح فرنسا
وتنازل عن كثير من مطالبه فهو يترك لاسلطان كريد والمدينتين المقدستين
ويكتفي بحكم الوراثة في مصر وبحكم سوريا مدى حياته ولكن بمرستون
أخذ يماطل ويعد القبول باقتراح تيرس مذلة للدول الأربع وكان في الوقت ذاته
يحث على القتال والضرب

وبينا الأسطول الانكليزي واقف في بيروت وصلت إحدى السفن من
مصر فأمر الأميرال ناييه بتفتيش ما فيها فوجدوا كتابا من بوغوص بك
وكيل خارجية محمد علي الى سليمان باشا يؤكده فيه ان فرنسا ستساعد محمد علي
بالجنود وانها ستستدعي قنصلها مورا من بيروت لأنه كان يساعد الثوار اللبنانيين

وان قناصل الدول المتحالفة تنوى أن تذيع في سوريا ترجمة العهد المبرم بين الدول الأربع تشديدا لعزم الثوار مع ارسال الجنود والذخائر وابلاغ الأمير بشير إزالة حكم محمد علي وان محمد علي أبي الرضوخ لا نذار الدول الخ كل هذا وأمثاله دعا الانكليز إلى التعجيل بما كانوا يضمنونه فقرر الأميرال روبرت ستوفورد القائد العام لقوات الحلفاء في سوريا بأن يبدأ بالأعمال الحربية بالنزول في جونه ليتصل باللبنانيين ويوزع عليهم الأسلحة ويقطع الاتصال بين الحاميتين المصريتين في بيروت وطرابلس وفي ١٠ سبتمبر قام الاسطول الانكليزي بمظاهرة أمام بيروت ثم لم تلبث السفن ان اتجهت الى جونه وأنزلت الجنود هناك وكان الأمير بشير قد أرسل حفيديه الى هناك وحرم على الأهالي الاتصال بالافرنج وهدد من فعل منهم بالقتل فوقع أمر الأمير بشير في يد أحد الدعاة الانكليز فأرسله الى الأمير وأخذ الأهالي يقدون على جونه لاستلام السلاح وهو السلاح المحفوظ عندهم حتى الآن وهم يطلقون على البندقية المصرية اسم البرهومية نسبة الى ابراهيم وعلى البنادق الانكليزية « انكليزية » والنمساوية نمساوية والمجرية « مجرية » وهي أفضل البنادق في نظرهم وكان عثمان باشا يحتل كسروان ثمانية آلاف مقاتل فلم يتعرض للأساطيل التي أنزلت الجنود الى البر ومعها سليم باشا قائد السفن التركية فاحتلوا ميناء جونه وأرسل الأميرال الانكليزي مركبين الى نهر الكلب لهدم الطريق حتى لا يمر بها جيش ابراهيم باشا وذهب ريتشروود الانكليزي المستشرق وأكبر دعاة الثورة الى غزير ومعه ٥٠٠ جندي ففر من وجهه الأمير عبد الله الشهابي وفي اليوم الثاني سلم هذا الأمير وهو ابن أخى الأمير بشير فعدوا تسليمه أمراً كبيراً وكان ابراهيم باشا ابان ذلك يطارد الثوار في جبال كسروان والمتن ويحرق قراهم ولكن عساكر الحلفاء كانت تثبت اقدامها في السواحل . وفي

وفي ١١ سبتمبر أرسل قائد الأسطولين الانكليزي والنمساوي إلى سليمان باشا أن يسلمهما بيروت فلم يجب فأخذت مراكبهم باطلاق القنابل على المدينة والابراج فاحتج سليمان باشا عليهم احتجاجاً شديداً لأن قنابلهم أصابت النساء والأطفال والمستشفى وكان عليهم أن يطلبوا تسليم المدينة قبل ضربها من ابراهيم باشا أو محمد علي باشا أما هو فأمور بالدفاع عنها فقط ثم أمر جيشه بالارتداد إلى الحازمية في ضواحي بيروت .

وفي ١٢ و ١٣ سبتمبر هاجم أسطول الحلفاء قلعة جبيل وحاول انزال الجنود فردتهم الحامية ولكن الثوار اللبنانيين دخلوا القلعة ليلاً فانسحبت منها الحامية وفي الصباح سلمها اللبنانيون لعساكر الحلفاء . ومن جبيل تقدم الحلفاء إلى البترون — وكان السلطان قد ولى عزت باشا ولاية سوريا ، بعد ما ألقى مشايخ استامبول بمنح محمد علي من الحكم والولاية كلها ، فنزل في جونية وأرسل إلى أبو سمرا غانم من زعماء الثوار ليحضر إليه من جنوب لبنان ويتسلم منه السلاح فوصل معه ٥٠٠ نفر فسلمه خمسة آلاف بندقية فتوجه بها إلى بلاد جبيل والبترون حيث اجتمع عليه نحو أربعة آلاف رجل زحف بهم على الأمير مجيد الشهابي في جهة اليمونة في أعالي لبنان فارتد الأمير إلى الجيش المصري في عيناتا وأبوسمرا يتعقبه إلى أن اشتبك بمعركة مع الجيش وفي الليل دهمه الجنود المصريون فارتد إلى جهة بشرى حيث جمع الرجال واستأنف القتال مع الجيش فكسره وأكرهه على الارتداد إلى بعلبك وكان المستر ريتشر دوود قد وصل مع الثوار إلى جهة الدامور وصيدا فاستولى الحلفاء عليهما بمعاونتهم

ولما كانت صيدا مركز الحاكم وفيها حامية قوية وجها إليها ثمانية مواكب حربية ضربتها ضرباً شديداً وقاومت حاميتها قتال المستميت إلى أن قتل قائدها

حسن بك وعدد كبير من رجالها وبلغت خسائر الهاجين نحو أربعة آلاف فلما
وصل خبر سقوطها إلى ابراهيم باشا كبر عليه الأمر وأرسل إلى الأمير بشير
ليوافيه إلى بعلبك حيث عقد مجلس من الأمير وشريف باشا وبحرى بك وكان
رأى الأمير بشير أن يرجع السلاح إلى اللبنانيين فلم يقر ابراهيم باشا هذا رأى
فظهر على الأمير بشير الوهن والضعف وذهب ابن عمه الأمير بشير قاسم إلى
معسكر الحلفاء في جونية وانضم اليهم فأرسله قواد الحلفاء لقيادة الثوار الذين
يقاتلون عثمان باشا في ميروبا وأرسلوا إلى الأمير بشير يندرونه ويعدون بولاية
لبنان بالوراثة في ذريته إذا هو سلم قبل مرور ثمانية أيام فأجاب بعدم التسليم
معتذراً بأن أولاده وأحفاده في عسكر ابراهيم باشا ولما انقضت الأيام الثمانية ولما
الأمير بشير قاسم على جبل لبنان فسار هذا الأمير لقتال عثمان باشا وكان قد
صدر إلى هذا أمر ابراهيم باشا بالانسحاب من جبل كسروان إلى بعلبك فسار
الامير بشير قاسم في أثر عثمان باشا وأخذ من جيشه ثلثمائة أسير
وكان الحلفاء قد عزموا على مهاجمة جيش سليمان باشا من البر والبحر .
فأدرك سليمان باشا الخطر فأجلى عن بيروت في ليل ٩ أكتوبر وسار جنود
الحلفاء إلى مقاتلة ابراهيم باشا في بحر صاف ومعه ثلاثة آلاف مقاتل فردهم على
أعقابهم فطلب الأميرال ناييه من الأمير بشير قاسم الأمير الجديد على لبنان
بأمر الحلفاء أن يقدم برجاله إلى مؤخرة ابراهيم باشا ليهاجمه هو ومن الأمام
فرحف الأمير برجاله وحال دون وصول فرقتين مدداً لابراهيم باشا وكانت
معركة بحر صاف معركة شديدة أسرف فيها الحلفاء من جيش ابراهيم ٧٠٠ أسير
بمعاونة الأمراء اللبنانيين وارتد ابراهيم باشا وسليمان باشا إلى البقاع وفي ١١
أكتوبر سامت الحامية المصرية الباقية في بيروت

ولما رأى الأمير بشير ما حل بالجيش المصرى وعدم قبول رأيه وتعيين ابن عمه أميراً على لبنان مكانه وقد انفض عنه اللبنانيون وانضموا إلى الحلفاء قال لبحرى بك « قم واذهب إلى ابراهيم باشا وقل له لم تبق أقل فائدة . فالبلاد صارت الآن كلها صوتاً واحداً » وفى ١١ أكتوبر غادر الأمير بشير مقره فى بتدين بعد أن استدعى احفاده من محافظة البلاد وابنه من جيش ابراهيم باشا ونهض إلى صيدا ومعه أولاده الثلاثة وزوجه وحفيده الأمير سعد وأبلغ خالد باشا متسلم صيدا أنه أتى إليه مستسلماً فأمر خالد باشا أن تصطف العساكر بموسيقاها لاستقباله وأن تؤدى له التحية وقابله بالاجلال والاحترام وطالب منه قواد الحلفاء فى صيدا أن يتوجه إلى بيروت وأعدوا سفينة بخارية لركوبه فركبها إلى بيروت مع ابنه الأمير أمين وحفيده الأمير محمود ولما وصل إلى بيروت أبلغه عزت باشا الذى عين والياً على سوريا أن يختار لنفسه محل الإقامة ماعدا مصر وفرنسا وسوريا فاختار جزيرة مالطة فوافق قواد الحلفاء على طلبه ووعدوه بتأمين احماده وأولاده وفى ١٦ أكتوبر ركب الأمير بشير الذى كان يعرف بالأمير بشير عمر الثانى الباخرة الانكليزية من صيدا ومعه زوجه وأولاده وزوجة ولده الأمير قاسم وحفدته الخمسة أولاد الأمير خليل وحفيده الأمير رشيد وسكرتيه بطرس كرامة ونحو سبعين رجلاً من أتباعه وخدمه وأقلعت بهم الباخرة إلى مالطة وهكذا انتهت أمارته بعد حكم طويل المدى كثير الحوادث والأطوار

وبعد تسليم الأمير بشير انسحبت الحاميات المصرية من طرابلس واللاذقية وادنه بدون قتال ولم يبق من مدن السواحل فى أيدي المصريين سوى عكا

الفصل الخامس عشر

موقف فرنسا - الأسطول الانجليزى يترك مصر - خسارة

المصريين - اتفاق ناييه ومحمد على - انسحاب الجيش المصرى .

يصور لنا الوزير الفرنساوى الشهير فرسينيه الحالة بعد ضرب بيروت والسواحل السورية فى كتابه « المسألة المصرية » بقوله : « إن الحالة تطورت بسرعة فوق سرعة تبادل الآراء بين فرنسا وانكلترا فالأسطول الانكليزى - جريا على عادته بالمباغثة - ضرب بيروت فى ١١ سبتمبر وأنزل فيها الجنود التركية المعدة للعمل فى سوريا . والسلطان نفذ بكل شدة أحكام الفصل الملحق بعهد الدول الأربع فأسقط فى ١٤ سبتمبر من الحكم محمد على وولى عزت محمد باشا خلفاه . ووصلت هذه الأخبار إلى باريز فى ٢ أكتوبر فأحدثت تأثيراً كبيراً . فاجتمع مجلس الوزراء اجتماعاً فوق العادة ووكّل إلى المسيو غيزو فى ٨ أكتوبر أن يقدم مذكرة إلى اللورد بالمرستون بعبارات موزونة ولكنها حازمة . وختم هذه المذكرة يشعر بأن فى القضية سبباً للعداء وذلك بقولهم « وإنا مستعدون لأن نشترك بكل تسوية مقبولة يكون أساسها بقاء السلطان وبقاء محمد على ، وفرنسا تكتفى بأن تعلن الآن بأنها لا تستطيع أن ترضى من جانبها بتنفيذ حكم خلع محمد على الصابر من استامبول »

ولما وصلت هذه المذكرة إلى لندن شعرت حكومتها بأنها أغرقت فى التطرف فأرسل اللورد بالمرستون فى ١٥ أكتوبر إلى اللورد بونسوبى سفير انكلترا فى الأستانة « بأن من المستحسن أن يوصى سفراء الدول الأربع المتحالفة

عظمة السلطان بكل الحاح بأنه إذا أظهر محمد علي في الحال خضوعه لعظمته وتعهده بأن يعيد الأسطول التركي وبأن يسحب جنوده من سوريا كلها وأدنة وكريد ومن المدينتين المقدستين فإن السلطان من جانبه لا يكتفى بإعادة محمد علي والياً على مصر ولكنه يمنحه الولاية بالتوارث في بيته »

ولكن هذه الترضية لم يجدوها الرأي العام الفرنسي كافية لما كان عليه من الهياج والسخط لمحمد علي ولأنه كان بعد ميثاق الدول الأربع في ١١ يوليو تالفاً على فرنسا وذلك هو السبب الذي دعا حكومة الملك فيليب لأن تعد معدات الحرب والقتال فزادت سفنها الحربية واستدعت لحمل السلاح مرتبتين من مراتب الجيش المستحفظ وطلبت فتح اعتماد بـ ١٠٨ ملايين فرنك على أن يطلب من مجلس النواب الموافقة عليه عند اجتماعه

ولكن الحكومة الفرنسية مع ارضائها الرأي العام بالتذرع بهذه الوسائل استدعت الأسطول من مياه الشرق لأنه هناك « مادة قابلة للالتهاب » وحشدت هذا الأسطول في طولون ليكون على قدم الاستعداد للسفر إلى الاسكندرية إذا ماهاجم الحلفاء تلك المدينة . ولكن هذا العمل الذي يجمع بين حسن السياسة وحسن الخطة الحربية وصف بأنه « الفرار » من وجه الانكليز كما وصف بأنه « ترك » سوريا وبين هذه الآراء المتناقضة أو بين اختلاط الحابل بالنابل ، دعى مجلس النواب للاجتماع في ٢٨ أكتوبر . ويقول الميسو غيزو : ظهرت وقتئذ وتجلت الأخطاء التي ارتكبتها السياسة الفرنسية منذ ظهور المسألة المصرية لانا لم نجد في ظرف من الظروف أو في حالة من الحالات موقفاً معيناً وكنا دائماً موزعين بين العاطفة والعقل فنحن جعلنا مسألة محمد علي مسألتنا دون أن نبين لذلك حدوداً تكون ضمنها وداخلها حمايتنا . وتملكتنا الذكري ففسينا الضرورات القائمة . وبين تلك الهالة الرائعة من المجد الذي كنا

نصفه لمحمد على لم ننظر نظرة صادقة إلى مقدره على مخالفة إرادة أوروبا . ففي أبان المفاوضات صممنا على أن نعطي له الترضية كاملة تامة ولم ننظر إلى ما كان ممكناً أن يكون لو رفضت هذه الترضية وتناسينا أن المزامين العديدين لا يسمحون بأن يكون لنا التفوق في مصر وسوريا وأن نتحكم بمصير الشطر الأكبر من أملاك السلطنة التركية وما رفضت انكلترا أن تقبله من روسيا لم يكن بالامكان أن تقبله وترضاه من فرنسا ، فلما انقضى عهد الأحلام بات من اللازم النظر إلى الحقائق وجهاً لوجه واتخاذ موقف نهائى فاما إلى الحرب وإما إلى التقهقر وكلا الموقفين صعب عسير .

أما قوات الحلفاء في سواحل سوريا فلم يبق أمامها في تلك السواحل سوى حصن عكا فقط ، فأصدرت انكلترا أوامرها إلى الأميرال روبرت ستونفورد في أواخر أكتوبر بمهاجمة هذا الحصن فجمع القوات البرية البحرية لهذا الغرض وتقدم عمر بك قائد قوة صيدا إلى رأس الناقورة بألفى مقاتل ، وذهب سليم بك بثلاثة آلاف مقاتل بحرا من بيروت ، ماعدا تواير الشغالة والهندسة . وفي ٢ نوفمبر اجتمعت القوات البرية والبحرية حول ذلك الحصن ، وكان أسطول القتال مؤلفاً من إحدى وعشرين سفينة حربية ولم تكن حامية عكا تزيد على خمسة آلاف وفي الساعة الثامنة بعد ظهر ٣ نوفمبر وجهت السفن الحربية مدافعها إلى تلك المدينة وظلت النيران تصب من فوهات ٤٧٠ مدفعاً حتى خيم الظلام والحامية تدافع دفاعاً مجيداً ، وكانت المنطقة التي تنصب عليها نيران المدافع لا تزيد على ١٥٠٠ قدم عرضاً ولا على ٣٣٠٠ قدم طولاً . ورووا أن مركباً واحداً من مراكب الانجليز أحرق في إلقاء القذائف النارية على عكا ١٦٠ برميلاً من البارود .

وكان من الذين تولوا تحصين عكا بأمر محمد على أحد المهندسين الطليان .
فقبل أن يبدأ الأسطول بضرب الحصن لجأ هذا المهندس إلى الأسطول الانجليزي
وسلمه خريطة الحصن فكان الأسطول يضرب نيرانه إلى المكان الحيوى منه
إلى أن تمكن من إصابة مخازن الذخيرة وكانت مخازن كبيرة جداً فانفجرت
انفجاراً ارتجت له الأرض فى تلك البلاد وسمع دويه إلى أقصى جهات سوريا
وفلسطين وهلك بذلك الانفجار ١٥٠٠ جندي من الحامية ودمرت الحصون
والأبنية ولم يبق أمام الحامية إلا الخروج لأن المدينة تحولت إلى قطعة من جهنم
حتى قال أحد الشعراء .

قالوا بأن جهنما تحت الثرى مالى أراها فوق عكة تضرم
لوم تكن دار الشقاوة عكة ما أمطرتها بالشرار جهنم
وانجلى هذه المعركة عن القى قتيل وجريح من الحامية المصرية فى تلك
المدينة وعن ثلاثة آلاف أسير وبين الأسرى رئيس المهندسين يوسف أغا وهو
رجل بولونى كان اسمه الأصلي الكولونيل سولتز وبعد الاستيلاء على هذا
الحصن أقام الأميرال الانجليزي فيها حامية تركية عددها ثلاثة آلاف رجل
وحامية صغيرة أوروبية عددها ٢٥٠ رجلاً وأبقى فى مائها سفينتين حربييتين
وأخذوا بالتحصين والامتناع فيها لأنهم كانوا يخافون هجوم ابراهيم على السواحل
فى فصل الشتاء لاستخلاصها من أيديهم عند ما تصبح الأساطيل عاجزة عن
القتال وعن مقاومته .

وبعد الاستيلاء على عكة اتجه أسطول الحلفاء إلى يافا واستلمها بلا قتال
ولتخوف الانجليز من حلول فصل الشتاء قبل انتهاء المسألة أرسلوا الأميرال
نايبيه إلى مياه الأسكندرية بأسطول كبير ليضغط على محمد على فوصل هذا
الأسطول فى ٢١ نوفمبر يقود ست سفن كبيرة وفى يوم ٢٢ وجه رسالة إلى

بوغوص بك وكيل خارجية محمد علي يقول له فيها : « إن اسكندرية ليست
أمنع من عكا وأن الفرصة سانحة لمحذ علي أن يؤلف امارته وحكم الوراثة في
أسرته » فرد عليه بوغوص بان تبعة الحرب في سواحل سوريا لا تقع على
محمد علي بل هي تقع على الحلفاء الذين أرسلوا إليه بلاغهم باسم السلطان فرد
عليه بأنه خاضع للسلطان وبأنه يسلم بأن يكون حكم مصر له ولسلالته من بعده
كما عرضوا عليه ولكنه التمس في الوقت ذاته من السلطان أن يمنحه حكم
سوريا مدى حياته وأن يضيف إلى منحته الأولى المنحة الثانية لا اعتقاده بأن
سوريا إذا ظلت تحت ادارته تدر الخير والبركة على السلطنة ، فبدلاً من الرد على هذا
الطلب قابله بحكم الخلع من الحكم وبالعدوان في كل جهة فغنم ناييه فرصة هذا
الجواب لفتح باب المفاوضات بالصلح والاتفاق مع محمد علي : لأنه وجد في لهجة
الجواب ميلاً صحيحاً إلى الاتفاق ، وقد كان الأميرال ناييه من الانجليز المعجبين
بمحمد علي والمعترفين بحسن ادارته فوضع نصب عينيه الوصول إلى الاتفاق معه
معتمداً في مؤازرته على جماعة كبيرة من الانجليز كانوا يقولون باكتساب صداقة
مصر المستقلة بدلاً من إعادة مصر لحكم الباب العالي وبدلاً من جعلها مستعمرة
انكازية تكون عبئاً على عاتق انكلترا فضلاً عن أن مصر تخرج بهذه الطريقة
من يد فرنسا وترتمى في حضن انكلترا .

على هذه القاعدة بدأ الأميرال ناييه مفاوضاته مع محمد علي وعلى هذه
القاعدة توصل إلى الاتفاق المعروف باتفاق ٢٧ نوفمبر دون استشارة رئيسه الذي
كان يقاوم ذلك كل المقاومة واتفاق ٢٧ نوفمبر هو الذي يجعل حكم مصر
والسودان وراثياً في بيت محمد علي .

→ بعد استيلاء الحلفاء على سواحل سوريا بمعاونة الثوار في لبنان وبعد تنازل
الأمير بشير عن الحكم وانضمام خلفه إلى الحلفاء ، ظل ماثلاً أمام عيونهم شبح

الفشل (١) من قوة ابراهيم التي حشدتها كلها بين لبنان ودمشق ، وهي لا تقل عن ٥٠ ألفا (٢) مذكرة فرنسا إلى الحلفاء في ٨ أكتوبر بأنها تعتبر حرمان محمد علي من ثمرة انتصاراته والاقدام على تنفيذ قرار السلطان بعزله مدعاة للحرب (٣) قرب فصل الشتاء واضطرار الأساطيل إلى الانسحاب من مياه سوريا ومصر (٤) ظهور الانقسام في دول الحلفاء مخافة أن تقع الحرب في أوروبا ويقع حملها على النمسا وبروسيا وحدهما خدمة لمآرب انكلترا التي تريد الاستيلاء على مصر (٥) اشتداد ميل الرأي العام في أوروبا كلها نحو محمد علي و ابراهيم واستنكار معاملتهما بذلك الظلم الصارخ / لذلك كان مشروع فرنسا وتنفيذه هو وحده المنقذ من ذلك الموقف المحفوف بالخطر وهذا المشروع هو الذي يبقى على السلطان وحكمه ، بالرغم من انهيار ملكه ، لحفظ التوازن في أوروبا ، ويبقى على محمد علي وحكمه بمصر في سلالته لأنه اكتسب ذلك بياعه وذراعه ولأن حكمه حكم اصلاح وتقدم ورقى على أحدث الاساليب ومبادئ الحضارة

أما محمد علي فقد كان يقضى عليه بقبول ما ارتأته فرنسا وترك سوريا (١) خروج حليفه هناك الأمير بشير من الميدان وظهور الأمير بشير قاسم الذي ولته الدول بمظهر العداء (٢) حرمان جيشه من السواحل كلها حتى تعذرت المواصلات مع ابنه ابراهيم (٣) قلة الأموال حتى تأخرت رواتب الجنود أكثر من سنة ولم يجد في فرنسا من يمد إليه يد المساعدة (٤) تعب الجيش والأمة من حروب لا تنتهي منذ ثمانى سنين (٥) اعتبار الدول الأربع المتحالفة مع تركيا خامستهم أن كرامتها جميعاً معلقة على تنفيذ الانذار الذي أوحته إلى السلطان

فهذه العوامل كلها حملت الانكليز وحلفاءهم على أن يرحبوا فرحين باتفاق

٢٧ نوفمبر أى اتفاق نايبير ومحمد على بأن محمد على يرضى بأن يخرج من
المعركة مكتفياً بحكم مصر فى سلالته بعده . وحملت محمداً علياً على أن يرضى
بذلك الحل الذى كان يرفضه ويأباه

ولكن اتفاق نايبير ومحمد على كان غامضاً مبهماً وخلاصته « ان الدول
الأربع المتحالفة تبذل كل مجهودها لدى السلطان لينح محمد على وذريته
بعده حكم مصر بالوراثة وان محمد على يبادر بطلب العفو من السلطان ويعلن
استعداده لارجاع الأسطول العثمانى وسحب جنوده من سوريا والبلاد العربية
وانه يفوض مستقبله للمراحم السلطانية »

وقد عرفنا أن السلطان استصدر فتوى العلماء بجمع محمد على من الحكم فى
١٥ أكتوبر وأعلن تعيين عزت محمد باشا خلفه فى حكم مصر وسوريا وذلك
بموافقة الحلفاء بعد انقضاء مهلة العشرين يوماً التى أعطيت له .

فاصرار محمد على « على أن لا يعيد بغير السيف ما أخذه بالسيف » هو
الاعلان الذى انتصر وفاز لأنه الغنى وأبطل الحكم الذى صدر بخلعه وعزله
كما أن موافقة الحكومة الانكليزية على اتفاق نايبير قضى على عناد سفيرها
فى الاستانة اللورد بونسونى الذى حاول مراراً وتكراراً انكار ذلك الاتفاق
وحمل السلطان على رفضه جرياً على سياسة بالمرستون وزير الخارجية
ولما وافق محمد على على اتفاق نايبير نشر فى البلاد منشوراً عاماً وجهه إلى
الحكام والعلماء والنواب قال فيه :

« انه حضر إلى ميناء الاسكندرية جناب الأميرال نايبير قائد السفن
الحرية الانكليزية بالبحر الأبيض وعرض لنا اتفاق دول أوروبا باجابة طلبه
مصر لنا بطريق التوارث ، وبذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين
وصدر الأمر للسر عسكر وكافة القواد بترك الشام والاذن بحضورهم لمصر

بالجيوش التي يبلغ عددها ٧٠ ألفاً « ثم أذيع في الأمة منشورا آخر عمومي هذا نصه :

« إن العوارض تعرض للعالم منذ بدء الخليقة إلى اليوم والحروب تتقد بين الأمم لأسباب وعوامل لا تدركها العقول ومن هذه الحروب معركة نصبيين فكانت نتيجةها سفك الدماء ومواصلة القتال دون أن يظهر من وراء ذلك أمارات السلم والسلام واستتباب الراحة وظل روح العدوان ساريا حتى الآن ، ولكنه حضر إلى ميناء الاسكندرية قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر الأبيض الأميرال نايبير وعرض علينا وقوع الاتفاق بين دول أوربا على احالة حكم مصر بطريق التوارث إلى ولي النعم محمد علي باشا وبذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين الأمر الذي ترتاح إليه النفوس . وبناء على ما تقدم أعطيت الأوامر لدولة سر عسكر الجيش المصري ولكافة القواد بترك ولاية الشام وأدنه والرجوع بالجيوش إلى مصر وصار نشر ذلك اعلانا للسورور » وأصدر محمد علي بعد ذلك أمراً بأعداد منزل لنزول الأميرال نايبه وأن يكون في ضيافته مع تعيين مهمندار له

ولما وصل الاتفاق إلى استامبول حاول سفير انكلترا احباطه وانقاد اليه الباب العالي ولكن سفراء النمسا وروسيا وبروسيا ألحوا بوجوب تنفيذه وفي ١٠ يناير ١٨٤١ قدموا للباب العالي النصيحة بأن تمنح محمد علي حكم مصر بالتوارث في ذريته فماتل الباب العالي وسوف واضطرهم إلى أن يقدموا له مذكرة رسمية في ٣٠ يناير قالوا فيها :

« إن الدولة تطلب من عظمة السلطان أن يظهر بمظهر السماحة نحو محمد علي لا لابطال قرار خلعه من الحكم فقط بل بالوعد فوق ذلك بأن يكون

خلفاؤه في الحكم من سلالته من المذكور على التوالي كلما خلا منصب الحكم بوفاته الحاكم .

« والدول الأربع التي تبذل نصيحتها للباب العالي بان يمنح محمد علي هذه المنحة لا تبدى رأياً جديداً بل هي تذكر فقط عظمة السلطان بالنيات التي اعرب عنها من تلقاء نفسه عند بدء الأزمة الشرقية وهي النيات التي كانت أساساً لاتفاق ١٥ يونيو سنة ١٨٤٠ .

« وفوق ما تقدم ان الدول الأربع يبذلها النصيحة للباب العالي وبتكرارها النصيحة بهذه المذكرة تعتقد بأنها لاتنصحه بأن يعمل ما يخالف حقوق السيادة أو سلطة السلطان الشرعية ولا اتخاذ وسائل مخالفة لواجبات باشا مصر كتابع لعظمة السلطان يدعوه عظمته لأن يحكم باسمه إحدى ولايات السلطنة ، وهذه الحقيقة ليست مثبتة فقط بالمواد ٣ و ٥ و ٦ من الفصل المفرد الملحق باتفاق ١٥ يوليو بل هي مثبتة أيضاً بتعليمات الدول إلى سفرائهم في استامبول عقيب مباحثات ١٥ أكتوبر . وفي الواقع انه منصوص في الميثاق المشار إليه أن جميع المعاهدات وجميع قوانين السلطنة العثمانية الحاضرة والمستقبلية تنفذ في باشاوية مصر كما تنفذ في الولايات العثمانية الأخرى

« وهذا الشرط الذي تعتبره الدول الأربع لازماً لامندوحة عنه هو في نظرهم الصلة الوثيقة التي تربط مصر بتركيا وتبقيها شطراً منها غير منفصل عنها » وفي الفقرة السادسة من الميثاق ذاته ان القوات البرية والبحرية التي تؤلفها مصر والتي تكون شطراً من قوات السلطنة يجب أن تحسب معدة للخدمة العامة » اهـ

فهذه المذكرة التي جعلت مسألة مصر دولية اضطرت الباب العالي أن يصدر في ١٣ فبراير فرماناً ينسط المبادئ الواردة في هذه المذكرة ويؤيدها

أما ابراهيم باشا فانه رأى بعد سفر الأمير بشير من لبنان وحلول أمير آخر محله ، وقد جمع أربعة آلاف رجل لمقاتلة جيشه وقطع مواصلاته ، أمر قواده بالانسحاب من أنحاء لبنان إلى زحله والرياق فاجتمع من ذلك الجيش نحو ١٥ ألفاً وأرسل المرضى والعاجزين عن القتال إلى دمشق ووقف الأمير بشير قاسم ورجاله في حمانا إلى أن يرسل الحلفاء إليه النجدة والسلاح مخافة أن ينقلب جيش ابراهيم باشا لسحقه وتبديل شمل رجاله ولكن جيش ابراهيم لم يكن يرغب ذلك بعد ما انتهى من قتال الثوار في كسروان والمتن والقاطع وأحرق في مروره بكسروان بقعاتا وميروبا ووطا الجوز وحراجل وفاريا وفيترون وأحرق في المتن عين علق وبيت شباب ولم يتعرض لقرية بكفيا لان الشيخ حردان الجميل وفياض علوان من مشائخ بكفيا قصدا إليه وهو في المروج فعرضاً عليه خضوع أهل بلدتهم فأمر بالعفو عن بكفيا

وتدل جميع الظواهر على أن انكفاف ابراهيم باشا عن لبنان وعدم تعرضه للحلفاء في السواحل وتركهم وشأنهم كان يقصد منه تدبير الجلاء عن سوريا لأنه قبل وصول والده إلى الاتفاق مع الأميرال نايبير وقبل وصول أمر والده إليه بالجلاء جميع جيشه في دمشق وأخذ يعد الأهبة لذلك دون أن يتعرض لفشل الانكسار أو لقطع مواصلاته . ونقص جيش ابراهيم في لبنان وسواحله عشرة آلاف مقاتل وظل الجيش وهو ينسحب من شمالي سوريا إلى دمشق حافظاً على نظامه كل المحافظة ونظم ابراهيم في كل بلدة أخلاها وجهة أجلي عنها جيشه وعماله وجعل الحكم بيد أحد أبناءها ولم يتعرض الجيش إلا للمعرة لأن أهلها أبوا أن يعطوه حاجته ، وكذلك حمص لأن أسواقها أقفلت في وجه الجيش وأبى أهل المدينة أن يقدموا للجيش حاجته ولما شك الأهل إلى قائد الجيش أنزل العقاب الشديد بالجنود الذين ارتكبوا النهب .

ولما احتشد الجيش كله في دمشق هطل مطر شديد مدرار دام بضعة أيام فاضطر الجيش أن يدخل المدينة وأن يحتل الخانات والقهوات والدكاكين والجوامع ما عدا الجامع الاموى وجامع السنانية ووضع يده على المطاحن والأفران ليعد الزاد اللازم له في الرحيل وأمر ابراهيم باشا بجمع الأموال المتأخرة من دمشق وقراها حتى يتمكن من الانفاق على جيشه أبان رحيله وانفصل عن الجيش أكثر اللبنانيين والسوريين الذين كانوا يحاربون في صفوفه وعادوا الى أهلهم وقرباهم ، وشعر ابراهيم باشا ببعض الحركات العدائية في دمشق بتحريض الترك فنكل بالحرصين واعترض بعض العربان والدروز في سمسع قوافل المؤن والذخائر فأدبهم تأديباً شديداً .

في ٢٧ نوفمبر ١٨٤١ وضع الاتفاق بين الاميرال نابيير ومحمد على على أن يعيد محمد على الأسطول التركي وعلى أن يدع سوريا ويكتفى بحكم الوراثة بأولاده المذكور ، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ إلا في شهر يناير وبعد محاولات ومماثلة من الباب العالي ووزارة خارجية انكلترا وسفيرها في الاستانة لأن الوزير بالمرستون والسفير بونسوبى كانا يطلبان هدم حكم محمد على فلم يصدر محمد على الأمر إلى ابراهيم بغير حشد جيشه في دمشق فجمعه هناك وأوحى عمال الانكليز والترك إلى الامير بشير قاسم اللبناني خليفة الأمير بشير عمر حليف محمد على بأن يهاجم جيش ابراهيم باشا فطلب منهم المدد فلم يمدوه فتقدم مع الثوار إلى جهة دمشق وذهب الزعيم الثائر أبوسمرا غانم إلى جهة المجدل للغرض ذاته وأرسل الأمير أسعد شهاب إلى قرية خربة ريجا لقطع طريق ابراهيم باشا في وادي التيم في حالة جلائه الذي كان منتظراً وسافر الامير بشير برجاله إلى بلاد صفد ثم إلى يافا للغرض ذاته لان الاميرال سترانفورد تلقى الاوامر بأن

يظل على مواصلة أعماله العسكرية ضد ابراهيم وجيشه فأمر جاكوموس الذي كان يقود جنود الحلفاء بأن يجعل نصب عينه تجريد جيش ابراهيم من سلاحه ، لذلك وضع قوة من اللبنانيين في وادي التيم وصفد ويافا على طريق ابراهيم إذا سار هو بجيشه من دمشق على طريق القينطرة ووضع قوة أخرى في القدس وثالثة على طريق بئر سبع بقيادة القائد التركي حسن باشا لان قيادة الحلفاء كانت تعتقد أنه ليس أمام جيش ابراهيم باشا طريق آخر غير فلسطين

مثل هذه التدابير اتخذت قبل أن يرد جواب الباب العالي على اتفاق نايبير ومحمد علي ولما وصل الرد ظهر ان السلطان لا يمنح محمد علي الحكم المتوارث في مصر فظهر أن سفير انكلترا كان يدبر ذلك الجواب وكان يتوقع القتال ولكن الدول الاخرى لم تكن على هذا الرأي فأمرت الدول الاربع سفراءها بتقديم المذكرة التي ذكرناها في الفصل السابق فأمر السلطان باجابة مطالب الدول فانتدب الاميرال نايبير ليشهد تسليم الاسطول التركي في الاسكندرية وأرسل محمد علي رسوله إلى ابراهيم باشا ومعه أحد الضباط الانكليز ليسحب جيشه من دمشق مع تبليغ قواد الحلفاء تسهيل أمر الجلاء والسماح للنساء والاطفال والجرحى والمرضى بأن يعودوا إلى مصر بجرأ

ولما تلقى ابراهيم أمر والده في ٩ ديسمبر عقد مجلساً في مدينة دمشق من أعيان المدينة ليختاروا الحاكم الذي يسلمه مدينتهم فاختاروا حسن بك الكحالة ثم خطب فيهم حاثاً على حفظ النظام والامان وألا يمسوا النصارى واليهود بسوء فاذا هم لم يراعوا أوامرهم يرتد اليهم بقوة من جيشه ويحل بهم أشد العقاب وعرف ابراهيم ما يضمرونه له في طريقه رغم الاتفاق ، فوضع خطة الرجوع لجيشه

وفي ٢٩ ديسمبر أصدر الامر إلى جيشه المؤلف من ٥٥ ألف جندي ومعهم

١٥٠ مدفعاً بالجلاء وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف نفس من العائلات والاتباع

— وبعد ستة أيام من خروج ابراهيم باشا من دمشق وصل اليها الجنرال جو كوموس وأعلن إعادة حكم السلطان وتولية احمد أغا اليوسف وسار مع الثوار يناوش مؤخرة الجيش وانضم اليهم نحو ٧٠٠ من المتطوعين بجيش ابراهيم فذهبوا مع رفاقهم للانضمام إلى جيش الأمير بشير قاسم الشهابي في طبريا وهدم الجنرال جو كوموس جسر بنات يعقوب حتى يعرقل سير الجيش المصري

وفي المزيريب ارتاح الجيش ثلاثة أيام وكان البرد شديداً فقسم ابراهيم جيشه خمسة أقسام أحدها بقيادة سليم باشا والثاني بقيادة احمد باشا الدرهملي والثالث بقيادة احمد باشا المنيكلي والرابع بقيادة سليمان باشا الفرنساوي والخامس بقيادته هو ذاته وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن إلى غزة والعريش وللثاني طريق الحيج ومعان فالعقبة ومنها إلى النخل والسويس أما هو وكان قسمه مؤلفاً من الحرس وفرسان الهنادي والباشبوزق فجعل وجهته غزة ليتركب منها البحر إلى مصر وتمكن ابراهيم بحسن خطته ودقة نظام جيشه ونشاط ضباطه من أن يلعب بقواد الحلفاء الذين كانوا يتربصون له في الطريق وأن ينفلت من بين أيديهم حتى قالوا في وصف ارتداده ورجوعه سالماً انه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد لأن الجنرال جا كوموس جمع على طريقه كل ما يمكن جمعه من القوات بما فيها قوات الثوار - وهي اشد خطراً على الجيش المرتد من الجيش النظامي - ووقف بها في جهة جنين وجسر الجامع وقطع الطرقات الأخرى ولكن ابراهيم باشا كان يتظاهر بالزحف في فلسطين ثم يسير بعيداً شرقاً نهر الأردن والبحر الميت على ان جيشه تحمل من أجل ذلك متاعب كبيرة جداً لا يتحملها جيش آخر لأنه كان يسير في الصحراء القليلة الماء والزاد حتى اضطر

الجيش الى أكل لحم الخيول والمواشى وأن يعيش أياما على عشب البرية وكانوا قبل وصولهم الى السواحل كغزة والعقبة يكافحون الجوع والعطش ولصوص البدو وفي ٢٥ يناير وصل القسم الأول من جيش ابراهيم باشا الى غزة أما جيش سليمان باشا فانه سار على طريق الحبحج وكان يحسب انهم يرسلون اليه من مصر بطريق صحراء السويس الزاد والماء ولكن هذا الأمل خاب . غير أنه وفق للعثور على الآبار ونجا وأوصل المدافع المئة والخمسين بخيولها سليمة الى مصر ووصل ابراهيم باشا الى غزة في ٣١ يناير وأرسل الى والده ليوافيه بحاجات الجيش فأرسل اليه ما طلب وبلغ عدد الجيش الذي وصل الى مصر ٤١ ألفا منهم ٣٠ ألفا عن طريق غزة والباقي عن طريق العقبة والسويس وكان آخر جندي غادر غزة في ١٩ فبراير سنة ١٨٤١

أما اللبنانيون الذين كانوا في مصر فان محمد علي اتفق مع الأميرال نابيه في ٣٧ نوفمبر على إعادتهم الى وطنهم كما اتفق معه على إعادة الذين كان قد نفاهم الى سنار في سنة ١٨٤٠ ومما يذكر عن هؤلاء المنفيين وعددهم ٥٧ أميراً وشيخاً وعيناً، انه لما أبعدهم محمد علي الى سنار سلم قائد المركب الذي يركبونه كتابا الى حاكم تلك الجهة ، فتشاوروا فيما بينهم — وهم في الطريق — لمعرفة ما في ذلك الكتاب فان كان شرا فتكوا بجنود المركب ونجوا بأنفسهم في البرية وان كان خيرا واصلوا السير فلما أخذوا الكتاب واطلعوا عليه وجدوا ان محمدا عليا يوصي بهم خيرا و بأن يعاملوا معاملة حسنة فأعادوا الكتاب الى حامله وصرفوا مدة نفيتهم معززين مكرمين فلما عاد جيش ابراهيم الى مصر أرسل الأميرال نابيه ولده الى محمد علي يطلب أولئك المنفيين فأعادهم محمد علي من السودان وفي ابان عودتهم توفي منهم في صعيد مصر الأمير يوسف سليمان شهاب

أما الجنود السوريون في جيش محمد علي فكان المتفق عليه بين الأُميرال تشارلس نايبيه وبوغوص بك وكيل خارجية محمد علي انهم يرجعون الى بلادهم حال وصول جيش ابراهيم الى مصر فبعد مفاوضات طويلة بين القنصل الانكليزي ومحمد علي ، أمر محمد علي باعادتهم ووصل القسم الأول الى بيروت في شهر سبتمبر سنة ١٨٤٣ ووصل القسم الثاني بعد شهرين وكان عددهم جميعا نحو عشرة آلاف

خرج جيش ابراهيم من سوريا عائدا إلى مصر بعد ما أقام فيها من ٣١ أكتوبر ١٨٣١ الى ٣٠ فبراير ١٨٤٢ فاكتسح الجيش التركي في أربع معارك كبيرة ولو شاء وشاءت أقدار السياسة لدخل استامبول ولو شاء وشاءت السياسة لجعل هذا الحكم المصري من حدود النمسا الى حدود إيران فبحر الهند في آسيا ومن مصر الى الجزائر ومنها الى زنجبار فالحيط الهادي في افريقيا ولكنه غادر مصر ولاية يولي الباب العالي عليها من شاء وعاد اليها وحكم مصر مقرر بين الدول لمحمد علي ولذريته بعده الى ما شاء الله

فماذا ترك بعده في سوريا من آثار السنين العشر ؟؟ هنا وفي هذا الموضوع الذي لمسناه مراراً ابان الكلام عن البطل ابراهيم ندع الكلام للمؤرخ الفاضل سايمان بك أبو عز الدين في كتابه « ابراهيم باشا في سوريا » قال :

زالت حكومة محمد علي من سوريا بانسحاب جنوده منها أما تأثيرها فلم يزل مع ذلك الانسحاب لأنها أحدثت في نظام الأحكام انقلاباً عظيماً فأدخلت أنظمة جديدة على الادارة والقضاء والمالية والجندية وكان لذلك تأثيرات جمة في حياة البلاد الاجتماعية والأدبية والاقتصادية والادارية والسياسية منها ما كان بعيد المدى فاتصل تأثيره بوقتنا الاخير

فمن التغيرات الاجتماعية التي نشأت عن حكم محمد على اطلاق الحرية الدينية ونشر الروح الديمقراطية بالضرب على أيدي الزعماء والمتغابين ونزع الساطة من أيديهم وإنشاء العلاقة ما بين الشعب وحكامه مباشرة وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ومع حق النظر في الشؤون المحلية بعد ان كان النظر في جميع الشؤون منوطا بحكام مستبدين

وقد كان لوجود ابراهيم باشا في سوريا تأثير في بساطة المظهر بعد أن كان كبار البلاد يباهون بالملابس الفاخرة والمظاهر الخلابه وكثرة الاتباع وكانوا يقلدون في ذلك الحكام العثمانيين ، أما ابراهيم باشا فكان ميالا بفطرته إلى بساطة المظهر والتخشن في المعيشة ولعل حياته الجندية زادته استمساكا بذلك

ويروون أنه لما جاء إبراهيم باشا بجيشه إلى لبنان وحل بدير القمر أقام في منزل صغير وذهب ذات ليلة لزيارة الأمير بشير زيارة غير رسمية فلم يستصحب أحداً من حاشيته بل كان معه أحد خدمه فقضى السهرة عند الأمير وكان الأمير قبل ذلك لا يعهد في الوزراء سوى مظاهر الأبهة والترفع عن الناس فلا تتحرك ركبهم من مكان إلى مكان إلا وهم مرتدون الملابس الفاخرة محوطين بالجند والعظماء . وكان الأمير نفسه ومن دونه من الزعماء يجرون على الخطه ذاتها أما بعد أن تاقى هذه الزيارة الودية من إبراهيم باشا فلم يسعه إلا أن يحذو حذوه وبما أن إبراهيم باشا وهو ابن عزيز مصر ورأس الحكومة السورية وقائد الجيش العام قد زاره ومعه خادم واحد فحفظا للنسبة بين المقامين رد الأمير بشير الزيارة لابراهيم باشا وحده وليس معه أحد

وفي عهد إبراهيم باشا طرح الأمير بشير وأولاده العمام واستبدلوا منها الطربوش المغربي اقتداء بمحمد علي وإبراهيم ورجاهما فتبعهم في ذلك كبار البلاد وسواهم

وقبل دخول إبراهيم باشا سوريا لم يكن مباحاً للمسيحيين أن يلبسوا العمام
البيضاء أو الخضراء أو الحمراء وكانت محظورة عليهم أمور أخرى كثيرة وكانت
تولية النصارى أعمال الحكم نادرة جداً فأزالت حكومة محمد على هذه الفوارق
وأباح للمسيحيين كل ما يباح للمسلمين من لباس وركوب الخيل ومن الحقوق
الأخرى الاجتماعية والوطنية وقلدت الكثيرين من المسيحيين الوطنيين
والأفرنج الوظائف في الجيش والدولة ومنحتهم الرتب والألقاب . ويروون عن حنا
بك بحرى الذى كان يتولى منصباً عالياً فى حكومة سوريا أن زملاءه المسلمين
ما كانوا يعاملونه بالاحترام الذى يستحقه منصبه وكان محمد على قد منحه رتبة
ميرميران فشكوا إلى إبراهيم الذى دخل مرة مجلساً ضم كبار القوم وبينهم حنا
بحرى بك فنهضوا واقفين فقال إبراهيم باشا « يا بك تفضل » ولم يذكر اسمه
فتقدم موظف آخر اسمه حافظ فقال له إبراهيم أنا أريد « بحرى بك » فلما دنا
منه قرب مجلسه وأجلسه وأمر الآخرين بالجلوس فبعد هذا الحادث صاروا
يعاملون بحرى بك بالاحترام

ساوت حكومة محمد على بين الرعايا على مختلف الأديان والمذاهب ولم يكن
قبلها يساوى بين المسلم والذمى وسوت بينهم بالضرائب والحقوق ولكنها كانت
تكلف النصارى دفع الخراج مقابل تجنيد المسلمين
وكان التضييق على المسيحيين الأفرنج شديداً فلا يستطيع واحد منهم
التجول فى البلاد إذا لم يكن مرتدياً بالملابس الوطنية أو يحرسه الجند حتى أن
انكسرت عينت المستر فلرين قنصلاً لها فى دمشق فى سنة ١٨٢٩ فلم يستطيع دخول
دمشق وأقام فى بيروت إلى أن احتل إبراهيم البلاد

وقيام حكومة محمد على فى سوريا مهد السبيل لنهضة علمية أدبية لأن
تنظيماتها تطلبت اختيار المتنورين لإدارة الأحكام والقيام بالأعمال القضائية

والمالية والادارية والكتابية وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين وتجار وسواهم
فأنشأوا المدارس

وأحدث إرسال طائفة من الشبان لدرس الطب في مصر واستخدام السوريين
في حكومة محمد على صلة أدبية دائمة بين الأمتين

أدخلت حكومة محمد على روحاً علمية في البلاد فأنشأت محجراً صحياً في بيروت
والتلقيح ضد الجدري واعتنت بالصحة وحفرت المصارف في المدن لصرف المياه
الزائدة والاروساخ واستخدمت المهندسين لانشاء الطرقات وسواها ونشطت
حكومة محمد على الزراعة وغرس البساتين والكرمة والزيتون والتوت وتربية
دود الحرير وحفرت المناجم كمنجم الفحم في قرنايل وآخر في بزبدین ومنجم
الحديد في مرجنا ثم زراعة قصب السكر والنيلة والبن ونشطت التجارة بتأمين
طرق المواصلات

ومن حسنات حكومة محمد على إدخال مبادئ النظام في الحكم وتوزيع
السلطات الادارية والقضائية واختصاص كل هيئة منهما وإزالة الحكم المطلق
وتعيين العدد الكبير من أبناء البلاد في المناصب فمرنوا على طرق الحكم الجديدة
وتأليف مجالس المشورة في المدن فألفوا الشورى ومد رواق المساواة وكان حكم
محمد على أساساً « لخط كاخانة » الذي أصدره السلطان عبد المجيد بالمساواة
بين رعاياه .

كذلك العمل على إقرار الامن في نصابه فقبل حكومة محمد على كان حبل الامن
مضطرباً والاشقياء يعيشون فساداً والقبائل تغزو الحضر وكانت مكامن اللصوص
على جميع الطرقات حتى ان المسافرين كانوا يضطرون أن يسيروا جماعات وهم
شاكو السلاح للدفاع عن أنفسهم وأموالهم فألقت على عاتق رؤساء القبائل
والعساكر وشيوخ البلاد تبعة مايقع في دوائر نفوذهم

تلك بعض آثار حملة إبراهيم وحكم محمد على في سوريا والشر الوحيد الذي وقع في لبنان من آثارها تأصل العدوان بين الدروز والموارنة لأن الموارنة كانوا عوناً لإبراهيم باشا ضد الدروز فكانت العداوة الطائفية التي أفضت إلى المذابح وإلى انتهاء عهد الأُمارة في سنة ١٨٦٠ و ١٨٦٣ والاستعاضة عن الأُمارة المتوارثة في الأمراء الشهابيين بتعيين متصرف نصراني للبنان تقر الدول الست الكبرى تعيينه وينتخب الأهالي مجلس إدارة إلى جانبه ليقرر الميزانية والنفقات .

ولم ينس محمد على وإبراهيم الأمير بشير حليفهما الذي سافر إلى مالطة مع أسرته وبعد ٢١ يوماً من وصوله عينت له حكومة تلك الجزيرة قصراً فخماً على بعد ثلاثة أميال من المدينة وقبل أن يخرج من الحجر الصحي وقبل أن يستقر به المقام أرسل إليه محمد على كتاباً مع رسول رومي يقول له فيه أنا باق على محبتك وسأجعل مصلحتي كمصلحتك شفقة دلي شيخوختك وحفظاً لودك . وكانت المراقبة شديدة على الأمير فأرسل إلى الرسول الرومي كاتم سره بطرس كرامه فأعطاه صورة السكتاب ولما سأله عنه وإلى الجزيرة أطلعاه عليه ولم يستطع أن يسلم الرسول رده على ذلك السكتاب إلى محمد على

وبعد إبرام الاتفاق بين الباب العالي ومحمد على أرسل السلطان عبد المجيد فرماناً إلى الأمير بشير يخبره فيه بالاقامة في إحدى جهات السلطنة ماعدا سوريا وأرسل إليه الصدر الأعظم رؤوف باشا كتاباً رقيقاً فاختار الاقامة في استانبول حيث ظل إلى آخر حياته .

الفصل السادس عشر

الخاتمة

بعد عودة جيش ابراهيم إلى مصر وزع محمد على هذا الجيش على أنحاء الوجه البحرى للاشتغال بزراعة القطن وخفارة هذه الزراعة لأن الأهالى لم يكونوا قد ألفوها وكانوا يفضلون عليها زراعة الحبوب فكان دأبهم أن يقتلعوا ليلا البذور التى يزرعونها نهازا ، وكان ١٥٠٠ فلاح فرنساوى جاء بهم محمد على من فرنسا يعلمون الفلاحين زرع القطن وعين محمد على كل واحد من أولاده وأحفاده لرعاية مديرية ، فكان ابراهيم يرقب المنوفية ، ومحمد على ذاته اختص نفسه بالقليوبية ، وكانت لابراهيم مزارع خاصة يعنى بها كل العناية لينفق من دخلها على نفسه وبيته ، لأن محمداً علياً كان يعيش عيشة الأمراء القدماء فلا يعتمد على أموال الدولة للانفاق على نفسه حتى أجمع المؤرخون على أن نفقة قصوره ودوره لم تتجاوز فى سنة من السنين عشرين ألف جنيه ، واعتنى بعد الحروب بإنشاء مصلحة هندسة الرى وإنشاء القناطر وحفر الترع وتنظيم الصحة ومعالجة الفقراء مجاناً ، ووضع مشروع لإنشاء مساكن للفلاحين وآخر لإنشاء بنك وطنى وتجربة جميع أنواع النبات وحفر المصارف والاكتثار من المدارس وكذلك ابراهيم ولى عهده كان يميل بطبعه إلى شطف العيش و ابراهيم الذى ولد فى سنة ١٨٧٩ كان قائد القوات البرية كما كان أخوه سعيد باشا قائد الأسطول بعد أن صرف ثلاث سنين فى التمرن على أعمال البحرية وقد وصفه لنا أحد مؤرخيه من معاصريه فقال :

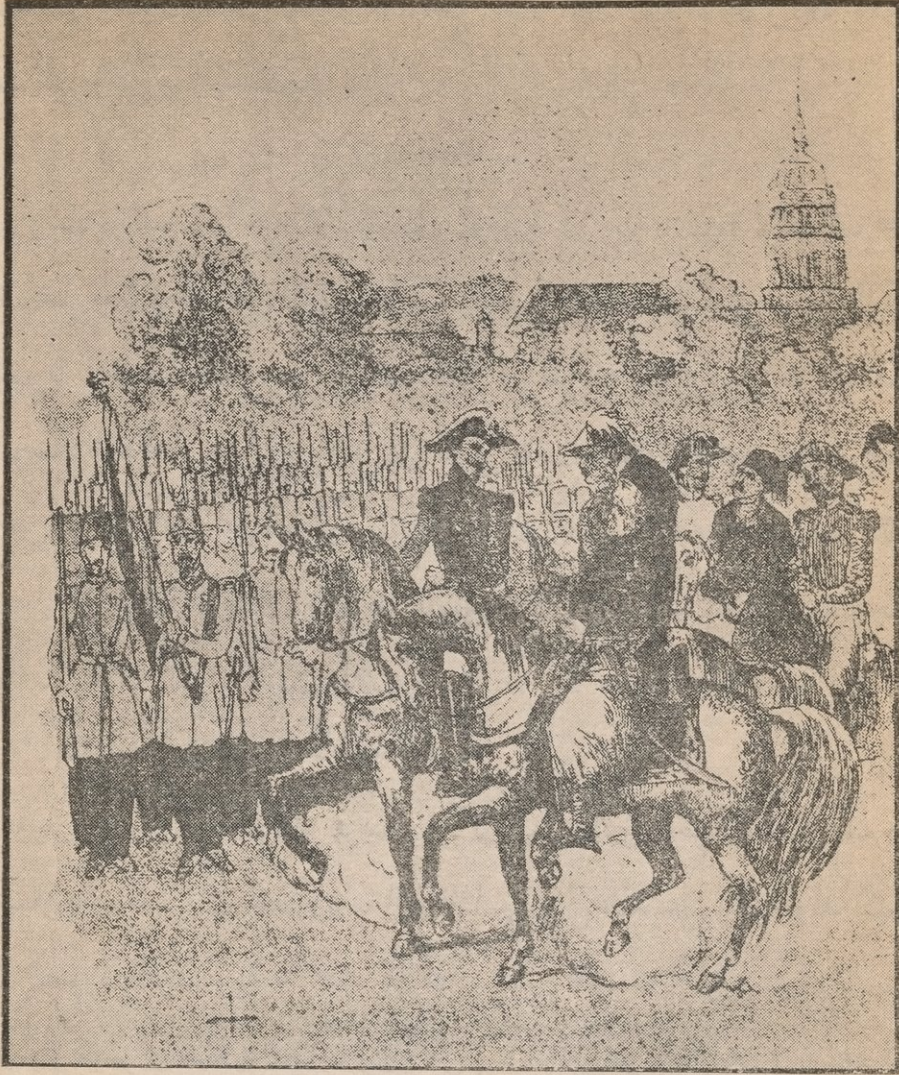
« كان ربة القامة قوى العضلات واسع الصدر عريض المنكبين واسع العينين البراقنتين رماديتي اللون مستطيل الوجه طروب إذا ضحك اهتزت أعضاء جسمه جميعا حتى يخيّل إلى الناظر أن كل عضو من أعضائه يضحك وإذا هو غضب تحول بركانا جمع البسالة والجود وما أضاع في ساعة الشدة رباطة جأشه وكل ما اشتد الأمر عليه ازداد حلما وسكونا وما رآه أحد بعد النصر تأخذه نشوة الفخر بل يتملكه التفكير الطويل لما يلي ذلك ولما يمكن أن يليه ، كان يحب الزرع والنبات والشجر والغابات إلى حد الغرام فأكثر من ذلك في سوريا ومصر وكان يكرر كلمة المملوك مراد بك « إذا طلبت في مصر الذهب فانكش وجه أرضها » . وكان يتكلم التركية والعربية والفارسية ولكنه كان فخورا بعربيته ومصريته ، نقل إلى التركية تاريخ نابوليون بعنوان « دفيني أسرار حكاي أوروبا » أي كنز أسرار حكام أوروبا . وكان واسع الاطلاع في تاريخ أمم الشرق .

ولاه والده إدارة بعض المديریات وهو في السادسة عشر من عمره فاكتسب خبرة واسعة في الشؤون الادارية والأحكام ، وكان ابراهيم ، على مجده وعزته ، كأصغر الناس في حضرة والده فإذا أقبل عليه ثم يده ولا يأخذ في المجلس مكانه إلا إذا أمره ولا يدخل في حضرته إلا إذا أباح له التدخين وكان محمد على يقابل ذلك بمثله فالألقاب التركية التي كان يلقب بها ابراهيم كأمر الحرمين الشريفين كانت تجعل له المقام الأول بين أمراء الدولة العثمانية فيقدم عليهم جميعا والمفروض على هؤلاء ، إذا أقبل عليهم أمير الحرمين الشريفين ، أن ينهضوا لإجلاله فكان محمد على ، إذا أقبل ولده ابراهيم عليه ، ينتظر دخوله واقفا تعظيما لرتبته وأذن له بالسير معه في الحفلات والتشريفات الرسمية سائرا

قبالته على صف معتدل ، وكان ابراهيم عماد الملك وقوام الأريكة وذراع محمد على الينى ورأسه المفكر .

أرسله والده مع أخيه الأكبر إلى أوروبا في سنة ١٨٤٦ لانحراف صحته فلما وصل خبر رحلته إلى الملوك والأمراء وجهوا اليه الدعوة وتلقى دعوة الملكة فيكتوريا لزيارة انكلترا وهو في توسكانا في طريقه إلى فرنسا وكان استقباله في توسكانا حافلاً جداً ولما وصل إلى باريس كانت الحفاوة به فوق حد الوصف فعرض ثلاثين ألف جندي في ميدان شان دي مارس وقالوا في وصف ذلك العرض ان فرنسا لم تشهد مثله بعد نابليون الأول وشهد العرض مع رجال الدولة ثمانية من أمراء البيت المالئ وست من الأميرات فكان يوم ٢١ مايو سنة ١٨٤٦ يوماً مشهوداً في عاصمة فرنسا .

وزار ما زار من معاهد فرنسا - كما يقول إدوار جوان - دار الضرب الفرنسية ، فضربت بحضوره مدالية فاذا بها تمثل محمد على باشا ، وقد كتب تحت الصورة بالفرنساوية « محمد على مجدد مصر » ولزمه الدوق دي مونايسيه الذي زار مصر في سنة ١٨٤٥ ، ولقي كل إكرام ابراهيم باشا أبان زيارته فرنسا ودعاه لزيارة ميدان الترينات العسكرية في سان نامور . فذهب ابراهيم باشا إلى ذلك الميدان بمركبة ملكية ومعه الدوق دي نمور والبرنس دي جوانفيل وقدم له الجواد اللازم لركوبه فاذا به الجواد الذي ركبه في معركة نصيبين وكان والده محمد على باشا قد أهداه في سنة ١٨٤١ إلى ملك فرنسا مع ٩ جياد أخرى عربية أصيلة . قال الذين وصفوا يومئذ تلك الحفاوة بابراهيم باشا انه نظر إلى الجواد فأحس الحاضرون أن أعصابه ترتعد وأن الدمعة حائرة في عينيه ولكنه وثب وثبة الأسد إلى ظهر ذلك الجواد الذي كان رفيقه في معركة نصيبين وعرض من



ابراهيم باشا في ميرانه عرض الجيش الفرنسى ببارس

مشوهى الحرب أمامه ٢٥٠٠ جندى وهم متقلدون سلاحهم وكانوا من جنود الحملة الفرنسية في مصر وأهدت إليه حكومة فرنسا يوم سفره وسام « اللجيون دونور » ولكثرة إحساناته أطلقوا عليه لقب « البطل المحسن » وعند مغادرته باريز أعطى ١٢ ألف فرنك للفقراء .

وزار ابراهيم بعد ذلك لندن عاصمة الانجليز إجابة لدعوة الملكة فكتوريا فكانت الحفاوة به كبيرة ، وكانت الجماهير تتزاحم على طريقه لرؤية بطل

نصيبين وعرض أمامه هناك قسم من الأسطول والجيش وطاف بعض بلاد أسكتلندا ولما عزم على العودة إلى مصر بعد سفر والده إلى استامبول جعل طريقه على بلاد البرتغال حيث زار الملك والملكة ولقي كل حفاوة وإكرام وأهدى إليه الملك وسام البرج والسيف ومن هناك عاد إلى مصر.

وكان سليمان باشا الفرنساوى يرافق ابراهيم باشا فى رحلته الى أوربا وسليمان باشا أو الكولونل سيف هو صاحب الكلمة المشهورة « أحببت فى حياتى ثلاثة رجال وجعلت حبنى لهم فوق كل حب : والدى ونابليون ومحمد على وقد مات الاثنان الأولان فانحصر حبنى » بمحمد على « وكان محمد على يقول » سليمان ولد من أولادى لا يخرج من مصر إلا إذا خرج منها محمد على «

وقد كان لابراهيم ثلاثة أولاد احمد بك ولد سنة ١٨٢٥ واسماعيل بك (الخديوى اسماعيل) ولد فى سنة ١٨٢٨ ومصطفى بك ولد فى سنة ١٨٣٢ وكان له ولد رابع توفى طفلا وهو فى حجر إحدى الجوارى السود برفضة جارية بيضاء كانت قد وجهتها الى الجارية السوداء التى تحمل الطفل الذى ولد بعد حرب الوهابيين فحزن عليه ابراهيم حزنا شديدا . أما إخوة ابراهيم فهم :

سعيد باشا قومندان الأسطول المصرى ولد فى سنة ١٨٢٢ وحسين بك ولد فى سنة ١٨٢٥ وحليم فى سنة ١٨٢٦ وعلى ولد فى ١٨٢٩ واسكندر ولد فى ١٨٣١ ومحمد على ولد ١٨٣٣

وفى سنة ١٨٤٨ اشتد المرض والذهول على محمد على فذهب للسياحة فى أوربا وتولى ابراهيم أمر الحكم بموافقة الباب العالى ولكنه توفى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨ فتولى الأمر عباس بن طوسون بن محمد على وتوفى محمد على فى شهر أغسطس ١٨٤٩ وهو فى الثانية والثمانين من عمره وبمحكمة محمد على وبسالة ابراهيم وذكائه وصلت مصر الى حكم نفسها وحكم السودان وانتهى عصر

الحروب والمعارك الذي بدأ في سنة ١٧٩٨ بنزول الحملة الفرنسية في مصر
وتجدد في سنة ١٨٠٧ بنزول الحملة الانكليزية ثم بالحروب مع تركيا ولولا
تألب أوروبا على مصر لكانت مصر الامبراطورية العظيمة الشأن ويقول المسيو
فرسينيه إذا كانت مصر لا تهدد بعد اتفاق ١٨٤١ توازن أوروبا ومن أجل هذا
التوازن حكم عليها ذلك الحكم القاسي بأن يعتبر الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا
كما قال رئيس وزارة انكلترا في مجلس نوابهم ولكن مصر لا تزال ولن تزال
من مشاغل الأمم والشعوب

ذلك هو البطل الفاتح إبراهيم الذي قاد جيش مصر من نصر الى نصر
ورفع علمها عاليا في كل مكان من كريد الى البلقان ومن السودان الى اليمن
ونجد والحجاز وسوريا والاضول



الوثائق السياسية الرسمية

عن حرب سوريا ١٨٣٢ - ١٨٣٣

جمع الكومندان جورج دوين وطبعت الجمعية الجغرافية تحت رعاية جلالة الملك الوثائق السياسية الرسمية عن حرب سوريا في سنة ١٨٣١ - ١٨٣٣ في ثلاثة مجلدات ضخمة ، والمجلدان الأولان - وكل واحد منهما يقع في نحو ٧٠٠ صفحة - يتضمنان الوثائق الفرنسية من تقارير القناصل والسفراء ورجال البر والبحر والبلاغات الرسمية المصرية وأقوال الصحف الرسمية وبلاغات الحكومة المصرية الخ . وما يقوله ويعمله قناصل الدول الأخرى وسفراؤها وحكومة مصر وحكومة الباب العالي

والمجلد الثالث بقلم انجلو ساماركو في الموضوع ذاته وهو يتضمن الوثائق السياسية الرسمية الطليانية وهذا المجلد هو المجلد الثامن للمؤلف ذاته عن حكم محمد علي في مصر وهو الحكم الذي يقول المؤرخ انه بدأ في شهر يوليو من سنة ١٨٠٤ والمجلد الواحد يقع في نحو ٣٠٠ صفحة

ولا مندوحة لنا عن شكر المسيو مونييه سكرتير الجمعية الذي تكرم علينا بهذه الوثائق التي استمددنا منها الكثير عند ما أخذنا باحياء ذكرى السنة المئة لفتح البطل الفاتح ابراهيم سوريا فتابعنا القراء في مراجعة تلك الذكرى مع الفخر والاعجاب وذكرى البطولة والأبطال تشجذ الهمم وتنير البصائر وتوسع الأفق لعيون الناظرين الذين يتخذون من الماضي عبرة للحاضر ومن الحاضر سراجا هاديا للمستقبل وقد أحسنت الجمعية الجغرافية كل الاحسان بعنايتها بنشر هذه

الوثائق كلها فان التاريخ المصرى بأشد حاجة اليها ولأن هذا التاريخ مجهول ولأن الموجود منه قلما يستند الى وثيقة رسمية فهو « روايات الافراد » لم تمحص أما الآن — وهذه الوثائق تنشر تباعا — فلنا الأمل أن نتوصل بعناية جلالة الملك المعظم الذى وضع العمل تحت ظله ورعايته الى أن تكون لنا مكتبة تاريخية كاملة تحتوى على الوثائق الرسمية فيستمد منها الكتاتيون والمؤرخون ويعرف منها المصريون التاريخ الصحيح لبلدهم ورجال هذا البلد

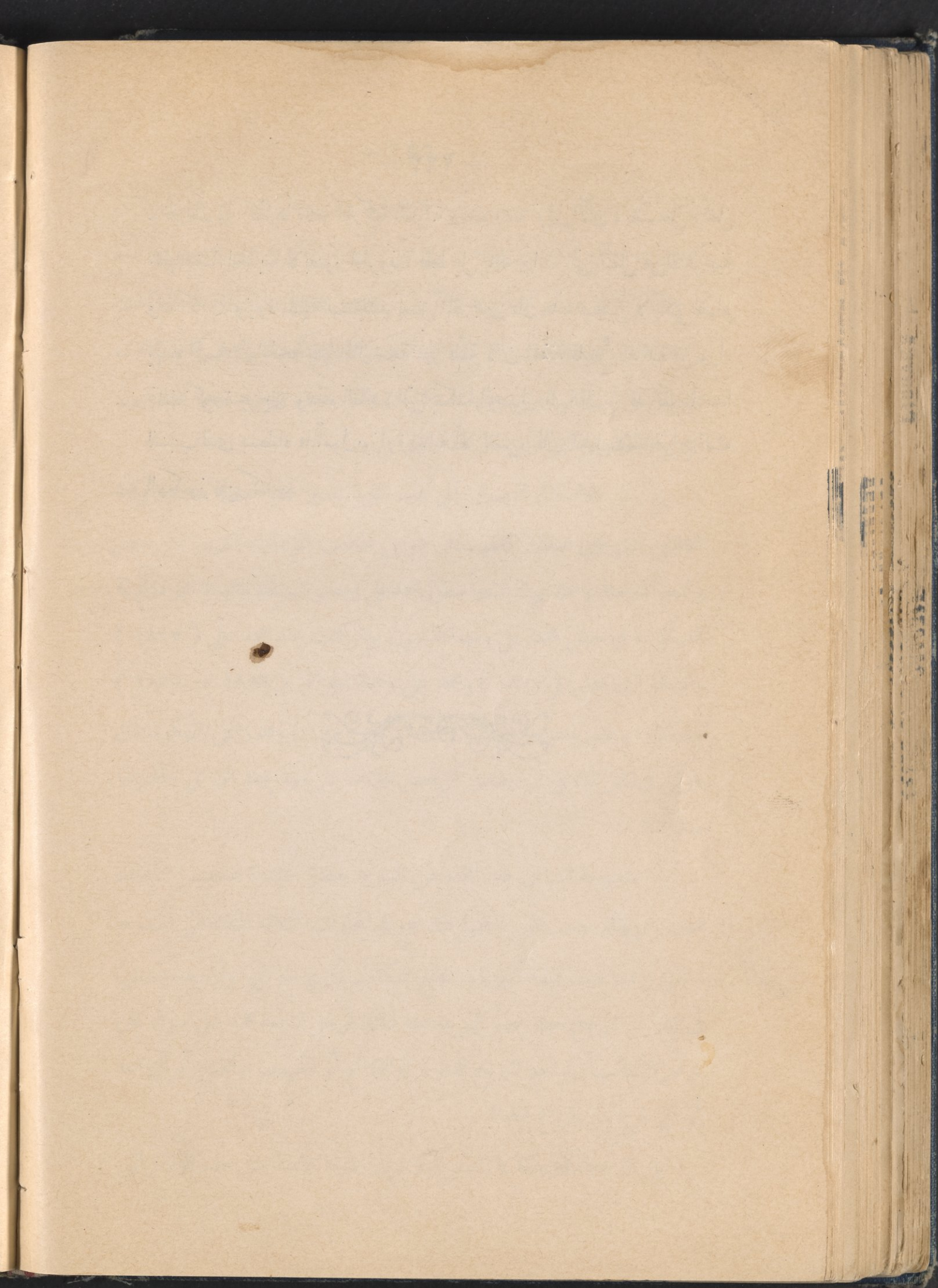
ولم يكن بالامكان الوصول الى هذه الغاية بغير عناية جلالة ملكنا وهممة المؤلفين المؤرخين العلماء كالقومندان دوين صاحب المؤلفات الشهيرة عن مصر والبحر المتوسط وحملة بونا برت وأسطول محمد على ومصر المستقلة والبعثة الفرنسية العسكرية فى جيش محمد على ومهمة البارون بواليكنت عند محمد على (١٨٣٣) وانكلترا فى مصر (١٨٠٧) ومحمد على وحملة الجزائر (١٨٢٩ — ١٨٣٠) وانكلترا ومصر وسياسة الممالك (١٨٠٣ — ١٨٠٧) وقد راعى الكومندان دوين فى نشر الوثائق أن يصدر كل فصل بخلاصة تاريخية يجعل الوثائق وفصولها سنداً لها

ولا مندوحة لنا فى هذا المقام عن التنويه بفضل حضرة صاحب السعادة أمين سامى باشا صاحب تقويم النيل فقد جمع فى المجلدات الثلاثة المتقنة التى أصدرها وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة يستطيع الكاتب أن يرجع اليها وأن يعتمد عليها فى تدوين تاريخ حياة مصر التى جدها ذلك الرجل النابغة محمد على سواء كان غرض الكاتب أن يراجع تاريخ الدارس أو الضائع أو الحروب أو الفتوح أو الزراعة أو أى فرع من فروع الحياة

على ان « الدفترخانة » المصرية لا تزال طافحة غاصة بمثل هذه الوثائق التى

لم تترجم وأكثرها باللغة التركية القديمة وهذه اللغة تزول الآن وتضمحل وتحل محلها اللغة الحديثة لا بصور الحروف فقط بل بالتعبيرات التي تنقل عن الافرنجية واذا كانت وزارة المالية تستخدم بعض المترجمين فان عددهم قليل لا يكفي للقيام بهذه المهمة . والحجة بقلة المال حجة غير قائمة لأن النفقة قليلة والفائدة من وراء ذلك كبيرة جزيلة وهذه الفائدة التي يمكننا الوصول اليها اليوم قد تفوتنا غدا للسبب الذي بسطناه فالمأمول بوزارة المالية ألا تضن بالمال القليل لاستخراج تلك الكنوز من كنانها





تعليقات

تفسر تحت هذا العنوان ما علقه بمصنفه القراء على فصول هذا الكتاب

حسب التواريخ التي وردت فيها يوم نشرها :

تصحيح تاريخي

جاء في العدد ٦٩٨١ من « الاهرام » في سياق ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ان المرحوم ابراهيم باشا قال للمرحوم رشيد باشا .
« إن السلطان محمد الفاتح ارتقى على العرش وهو في السابعة من عمره »
والحقيقة أن الذي ارتقى على العرش من سلاطين آل عثمان في السنة السابعة من عمره هو السلطان محمد الرابع بعد خلع وقتل والده السلطان ابراهيم .
أما الفاتح وهو السلطان محمد الثاني فقد جلس على العرش في المرة الأولى بعد تنازل والده السلطان مراد الثاني وعمره أربع عشرة سنة وبعد ذلك عاد والده وتسلم العرش إلى أن توفي فعاد الملك لمحمد الثاني وعمره إحدى وعشرون سنة وبعد نحو سنة من جلوسه على العرش فتح القسطنطينية وأخذ اسم ولقب الفاتح حتى أن كلمة الفاتح وحدها تعني عند الانراك محمد الثاني ابن مراد الثاني

دكتور على حلمي

مدير القسم الطبي بالسجون سابقاً

الاهرام — لم يكن من حقنا التغيير لنص الحديث فأوردناه كما هو :

البطل الفاتح ابراهيم والشعراء

عزيزي ...

بمناسبة نشر تاريخ حروب ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى وما أظهره من المقدرة الحربية والبسالة يلقبه مؤرخو رجال الحرب الانكليز بطل قونية وترب

ولدى انتصاراته العظيمة في سوريا أتدكر هذه الأبيات من قصيدة نظمها بطرس

كرامه شاعر الأمير بشير وكاتم سره يمدح بها البطل ابراهيم باشا قال :

عرج أخوا البأساء نحو بني العلا والتم ثرى أعتابهم متدلا
وابسط أكف رجاء كسرك عندهم واجر الدموع على الخدود توسلا
ودع التعجب من شجاعة من مضى من قبل واترك عنترا ومهلا
وزن الرجال فان في أفرادها من لايزان بألف ليث في الملا
لو قيل ابراهيم جاء محاربا سقطوا ولو كان الكلام تقولا
في عدله ترعى الضواري والظبا وبحلله أضحي الزمان بجلا
ومنها يصف بسالته .

لو شام حر لهيها اسكندر لا ندك محكم سده (١) وتفصلا
وفي الأخير :

من خبر الأتراك أن جيوشهم كسرت وأن حسينهم ولى إلى
هل يغلب الأسد المجرب ثعلب مهما استعان بحيلة وتحيل
ومنها يظهر للملأ تعلق السوريين بابراهيم باشا وإعجابهم بشجاعة وبسالة جنوده
المصريين . كذلك أتدكر أغنية سمعتها من بعضهم رووها عن آبائهم الذين كانوا
متجندين مع جنود ابراهيم باشا من السوريين كانوا ينشدونها أثناء سيرهم :

هيا بنا هيا بنا للحرب نلقى ضدنا
نجن السيوف الباترة نحن الأسود الكاسرة
من أرض مصر القاهرة جئنا وقد نلنا المنى
بارودنا شراره يشوى الوجوه ناره
وعز منا بتاره من العدا تمكنا

هذا ما رغبت أن أذكره لكم كأثر تاريخي مع إعجابي بما خطه قلمكم عن هذا
الفتاح العظيم والقائد العسكري الكبير

اسكندر حداد

الأهرام — إن الشعراء الذين نظموا القصائد في ابراهيم باشا وأعماله كثيرون
كذلك القصيد الذي كان ينظمه العامة

أمين الجندى

لابطرس كرامة

حضرة صاحب الأهرام

إن مانشرتموه من قلم اسكندر افندى الحداد فى عدد « أول ابريل » عن بطرس كرامة و ابراهيم باشا ، هو خلاف المقرر عندنا فان القصيدة التى مطلعها .

عرج أخا البأساء نحو بنى العلى والتم ثرى أعتابهم متدلا

هى على مانعلم من نظم الشيخ أمين الجندى الشاعر الحمصى المعروف . وهى محفوظة عند أحفاده من عهده وقد قرأتها خطا من ٤٨ سنة وهى قصيدة طويلة عرض بها الشيخ أمين الجندى بالترك تعريضا لم يلمسه قلم بطرس ابراهيم كرامة وقد قدم الشيخ أمين هذه القصيدة لابراهيم باشا على أثر كسره الجيوش العثمانية فى ميدان المشرع غربى حمص وهى واقعة فاصلة — فى سوريه — بين الجيوش التركية والجيوش المصرية . ولم يصب الشيخ أمين ضرر من جراء نظم هذه القصيدة لما تقلص ظل الدولة المصرية عن ربوع الشام ، وذلك نظرا لما للأسرة الجندى من المسكنة فى البلاد فقد كانوا يحكم البلاد ، وكان أسلافهم يقتطعونها اقطاعا كما فى عهد الاقطاع فى أوربا . لهذا السبب كان الشيخ أمين شاعر ال جندى وشاعر الحمصيين قبل ابراهيم الحوراني فى مأمن من غائلة الترك . وبهذه المناسبة أذكر ما كان أجدادنا وجداتنا يملونه علينا من السمر فى ليالى الشتاء عن المعارك التى خاض ابراهيم باشا غمارها فى تلك الربوع ، وعن أحكامه فى حمص وإنشاءاته الكبيرة التى رأيناها رأى العين ، وبعض أجدادنا شهد معاركه وخدم فى جيشه ، وقد الفنا ذلك منذ نعومة الأظفار . وكانوا يمدحون حكمه كثيرا .

مصر حنا خباز

روفايل فارحى

الملقب بالصراف

تجراً أن نلفت أنظار حضرتكم إلى ما يأتى : قد سردتم فى أحد فصول ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا التى تنشر تباعاً بالاهرام الأغر أسماء الأعضاء الذين انتخبوا لتأليف ديوان المشورة بدمشق الشام مع بيان أسمائهم وألقابهم فرداً فرداً ، وقد اكتفيت بذكر اسم الخواجه روفائيل الصراف المنتدب عن الطائفة الاسرائيلية مع أن الموما إليه هو عميد العائلة الفارحية والمعروف بالمعلم روفائيل فارحى وهو الذى كانت بعهدته آتت مالية ولاية سوريا ، وكان معيناً لأجلها من لدن حكومة ساكن الجنان السلطان محمود

خضر متلون

ذكرى البطل ابراهيم

سيدى رئيس تحرير جريدة الاهرام الغراء

بمناسبة ما جاء فى مقالكم الرابع تحت عنوان — منذ مئة سنة (البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام) — المنشور بعدد ٢٢ فبراير وتولية المغفور له السيد محمد شريف باشا والى ألوية الشام رأيت انصافاً للتاريخ أن أذكر شيئاً عنه فلقد لعب دوراً خطيراً مع البطل الفاتح المغفور له ابراهيم باشا بعد أن استتب الأمر لابراهيم باشا فى سوريا ثلاث سنوات طلب من الأمير بشير الشهابى الكبير حاكم لبنان ان يجند من دروز ولايته ألفاً وستمائة لينتظموا فى سلك الجند النظامى المصرى وكان ابراهيم باشا يظن ان التجنيد فى سوريا كالتجنيد فى مصر ولكنه أخطأ الظن لأن السوريين كانوا بعيدين عن التجنيد القانونى لأنهم استعاضوا عنه بشهود الحرب بأنفسهم عند ما يستصرخهم حكامهم

فجمع الأمير بشير زعماء الدروز وأمر ابراهيم باشا لتجنيد الشبان من ابن خمس عشرة إلى خمس وعشرين وألح عليهم بالطاعة فأبوا جميعاً فتوسط فى الأمر مع ابراهيم باشا فلم يفلح بل ألحف وقدم بعشرة آلاف جندي إلى بيت الدين

فاضطر الأمر إلى جمع ألف ومائتي شاب من الدروز وأرسلهم إلى عكا جبراً
فاتنظموا في الجيش المصري وأرسل بعضهم إلى المدارس الحربية في مصر.
فأوغر ذلك صدور الحورانيين الدروز وغيرهم وأوجسوا خيفة وتحفزوا
للمناوأة إذا طلب منهم مثل ذلك إلى أن جاءت سنة ١٨٣٥ فكتب إبراهيم باشا
إلى السيد محمد شريف باشا وإلى دمشق يأمر بتجنيد الدروز في حوران كما جنسوا
في لبنان وألح عليه

فاستقدم شريف باشا شيوخ حوران وفي مقدمتهم زعيمهم الأكبر الشيخ
يحيى حمدان وتفاوضوا بذلك في مجلس عقد لهم فأبوا فأخذ ينصحهم بالاخلاد
إلى الطاعة لأنها أفضل من العصيان . فأشار إليه الشيخ يحيى حمدان أن يستبدل
التجنيد بمال لأن الشبان يردون غارات العرب عنهم وأن يخاطب بذلك إبراهيم
باشا وأظهر حدة في الكلام فقابلته شريف باشا بصفعة على وجهه . فكظم غيظه
وأظهر الطاعة مرغماً وذهب مع رجاله وهم يرغون ويزبدون من هذه الإهانة . فلما
وصلوا الجبل وأوقفوا الشيوخ على ماجرى أجمعوا على العصيان وأعلنوا الثورة
بموافقة رئيسهم الروحي الشيخ إبراهيم الهجرى وكان شيخ نجران حسين أبو عساف
أول من جاهر بايقاد الثورة . ولذلك فاضوا عرب السلوط المخيمة عندهم لمساعدتهم
فجمعوا ألف رجل منهم ومائتين من العرب ليقاوموا التجنيد فبلغ ذلك شريف باشا
وابراهيم باشا فتأهباً لتجنيد الدروز غصبا

فأرسل إبراهيم باشا جنداً من الهوارة والصعايدة بقيادة على أغا البيصلى
أبو الرجيلي يصحبه عبد القادر أغا أبو حبيب الدمشقي متمسكاً بحوران وجبل الدروز
فجمعوا الشيوخ وطلبوا منهم تسليم الشبان للتجنيد فأبوا وخرجوا عازمين
على الحرب

ففجأاً الدروز عسكر إبراهيم باشا في محلة « التعلة » وكان نحو أربعائة فارس
وقتلهم إلا القائد فإنه نجا مع بعض الفرسان فتعقبهم إبراهيم الأطرش عم اسماعيل
جد الطرشان وشبلى أغا العريان زعيم دروز راشيا الذى قدم لذلك القصد وفندى
عاصره . والعاصريون هم بعد الطرشان في المنزلة . فقتل إبراهيم الأطرش والمتسلم
أبو حبيب في هذه المناوشة فاشتد الدروز إصراراً على المقاومة

ولما نما خبر هذا العصيان إلى ابراهيم باشا قرر محاربة الدروز . وكان الدروز قد أعدوا عدتهم للمحاربة والدفاع عن جبلهم الحصين بمعاقله الطبيعية وحفظ استقلالهم الذي كانت صخور جبال حوران تساعدتهم عليه لوعورة مسالكها ومشقة قطعها فانضم اليهم بعض اللبنانيين سكان وادي التيم وإقليم البلان الذين راسلوهم بإيقاد النيران بإشارات خاصة على عاداتهم . وهكذا كانت مقدمات الحرب التي بقيت تسعة أشهر مشتعلة الضرام قتل فيها الكثير من الفريقين وما أمكن ابراهيم باشا التغلب عليهم حتى قدم بنفسه على رأس عشرين ألفا من الأرناؤوط والأكراد والأتراك وحاصر الجبل وضيق عليهم الخناق ولكنهم لم يخافوا بل هاجموا عسكره بقيادة زعيمهم حسين درويش فشتتوا شمله واستولوا على الذخائر والمدافع والمؤن والبنادق وأسروا أربعة قواد كبار وعشرين ضابطا فصار ابراهيم باشا يعود المرة بعد الأخرى إلى نهب قراهم وتدميرها والتسكيل بهم مع المحافظة على الأطفال والنساء والشيخوخ فضايقهم كثيرا حتى ارتأوا تحويل الحرب إلى وادي التيم وما يجاوره لتفريق شمل الجيش المصري وإرهاقه . بعد أن ثار عليه شمالي سوريا واضطر لمحاربة العثمانيين فيه . فلما ضاق ذرع الدروز في حوران لا سيما بعد نفاد المؤن عزموا على تحويل الحرب إلى وادي التيم وإقليم البلان فأرسلوا شبلي العريان إليها ليلهي شريف باشا عنهم ولكن ابراهيم باشا فطن لذلك فأرسل اليهم الأمير مسعود ابن الأمير خليل الشهابي ابن الأمير بشير الكبير فأحمد ثورتهم وعاد إلى لبنان ظافرا

وفي يوم الخميس ٧ تموز تسلم ابراهيم باشا اللجاء من الدروز وأخذ ينظم شؤونهم . وفي ١١ منه عاد إلى دمشق ودخلها باحتفال عظيم .

ولما عاد السيد محمد شريف باشا إلى مصر لتولي منصب مدير المالية في عهد المغفور له محمد علي باشا — وهو أول مدير للمالية وكان ذلك في سنة ١٨٤١ — استصحب معه قرينته المرحومة فاطمة هانم العظم من آل العظم الاجداد بسوريا والتي توفيت بمصر بعد أن أسست الجامع المعروف باسم « جامع الشامية » بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية الآن

وقد توفي إلى رحمة ربه المغفور له السيد محمد شريف باشا في سنة ١٢٨٠ هجرية
وودفن بجوار مدافن العائلة المالكة بقرافة الإمام الشافعي رضي الله عنه .
هذا ما أردت ذكره انصافا للحقيقة والتاريخ .

مصر — باب البحر عطيه على شلي

الجيش المصرى فى حرب القريم

لسمو الأمير عمر طوسون

الأسكندرية فى ١٢ ابريل — لمراسل الأهرام الخاس — كان للبقالات
المتسلسلة التى نشرتها الأهرام أولا عن الثورة العراقية ثم عن البطل الفاتح ابراهيم
باشا وفتح سوريا والأناضول فائدة جلى عند جمهور من القراء ممن لم يكن يتيسر
لهم قراءة تلك الذكريات التاريخية المجيدة مجموعة منسقة بالشكل الذى أبرزها فيه
كاتبها البليغ على صفحات الأهرام .

وكان فى مقدمة المهتمين بهذه المقالات حضرة صاحب السمو الأمير الجليل
عمر طوسون وهو كما يعرف الجميع من كبار الباحثين فى تاريخ مصر الحديثة ويميل
إلى إبراز ما انطوى من ذكر المآثر المصرية فى هذا التاريخ وغيره .

وقد كتب سموه أخيراً لمناسبة الذكريات التى تنشر فى الأهرام مقالا طويلا
جزيل الفائدة عن الجيش المصرى فى حرب القريم وهو عبارة عن صفحة مجيدة
من تاريخ مصر يبرز فيها اشتراك جيش مصر البرى والبحرى فى حرب سياستوبول
بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٥ .

وهذا الاشتراك كما يقول سموه لا يحلم به فى أيامنا هذه إلا العدد القليل من
المصريين ، لذلك رأى من الخير والفائدة أن يبين بايجاز قصته ولا سيما أن ذلك
العمل الحربى المجيد كانت له نهاية مشرفة للجنود المصرية .

وسيتحف الأمير الجليل قراء الأهرام بهذا المقال الممتع بعد أن تتم مقالات
ذكرى الفاتح ابراهيم باشا

ذكرى البطل ابراهيم

جاء في تعليق الاديب عطيه على شلي على ثورة حوران التي وردت في احدي مقالات «الاهرام» الخاصة بالبطل ابراهيم باشا أن ابراهيم باشا أرسل إلى الحورانيين الدروز قوة من الهوارة والصعايدة بقيادة على اغا البصيلي او الرحيلي الخ وتصحيحاً لاسم هذا القائد اذ ذكر ان اسمه الحقيقي على اغا البصيلي نسبة الى بلدة البصيلية مركز ادفو باسوان ونذكر بهذه المناسبة ان هذا القائد كان من القواد العظام المعروفين بالشجاعة وبعد النظر وقد اكبر فيه المغفور له ابراهيم باشا هذه الصفات فاستصحبه معه في السودان وفي حروب الشام وكان يعول عليه كثيراً .

والمرحوم على اغا البصيلي هو جد حضرة صاحب السعادة هرون سليم باشا مدير الدقهلية من جهة والدته

هذا بعض ما غن لي ذكره بهذه المناسبة ارجو نشره للحقيقة والتاريخ مؤرخ

اقتراح

حضرة رئيس تحرير جريدة الاهرام الغراء
قد تتبععت باهتمام كبير مقالاتكم الافتتاحية بخصوص اعمال البطل والفاتح العظيم « ابراهيم باشا » مما جعل الجميع يعجبون ببسالته ويذكرون أعماله المجيدة الخالدة جلال .

ولي اقتراح متواضع لعله يحوز قبولا من أولى الامر وخصوصا صاحب الدولة المجدد الكبير ورجل الساعة في مصر صدق باشا

أما الاقتراح فهو تسمية الميدان الذي يوجد فيه تمثال البطل الكبير بميدان « ابراهيم باشا » وكذا تسمية شارع كامل باسمه وذلك لسببين وجيهين

١ - لان كاملا المسمى باسمه الشارع لا ذكرى له في تاريخ مصر ولا أهمية له بخلاف البطل الكبير والد المغفور له الخديوي اسماعيل باشا وجد جلالة الملك المحبوب

٢ — لأن أغلب الناس وخصوصا العامة منهم يسمون التمثال المقام للبطل العظيم بابي أصبع وذلك لجهلهم معرفة صاحبه وعندما يسمى الميدان والشارع باسمه تبطل هذه التسمية غير اللائقة بالفاتح الكبير.

ولهذا كتبت هذه الكلمة ولى الامل الكبير انكم لاهتمامكم بسيرة البطل العظيم ابراهيم باشا تحذونها وتطلبون من الحكومة تنفيذها

وانى اعبر عن رغبة كثير من شباب مصر لحبهم لشبل محمد على العظيم منشىء مصر الحديثة وجد صاحب الجلالة المليك المعظم حفظه الله ملازم اول حكيم تناغو

اشقودرة واسكدار

قرأت فى المقال العاشر من مقالات ذكرى فتح سوريا والأناضول التى تنشرها « الاهرام » تباعا مدبجة ببراعة رئيس تحريرها المفضل قول ساكن الجنان محمد على باشا لقناصل الدول عقب تدخلهم لمنع الجيش المصرى من مواصلة الزحف إلى الاستانة : « إذا ظل الباب العالى على المطل والتسويق فلا قوة تمنع ابنى من الوصول إلى اشقودرة . . » الخ فلم تمر بى حينما وقع نظرى على كلمة « اشقودرة » خلجة شك فى أن ورودها بهذا الاسم كان سهوة من سهوات القلم فى مثل هذا الموضوع الذى لم يتناوله السكاتبون بالبحث والتمحيص من قبل

فليست اشقودرة هى البلد الذى فاه محمد على باسمه فى حديثه مع اوائك القناصل لأنها من بلاد الدولة العثمانية البائدة فى غرب تركية أوربا حيث كان يتألف منها مع ولايتى قوصوة ويانيا قبل الحرب البلقانية الأخيرة بلاد البانيا والمعروف أن الطريق بين معسكر الجيش المصرى فى اطنة وبين أشقودرة يمر بالاستانة فاذا بلغها وقضى لبائته من فتحها . فما الذى يضطره الى تركها من ورائه للزحف على اشقودرة وهو مالا تدعوه اليه حاجته بعد سقوط البلاد كلها فى قبضته باستيلائه على عاصمتها يبقى اذن أن يكون اسم البلد الذى فاه به محمد على فى حديثه مع قناصل الدول هو اسكدار لا اشقودرة فان اسكدار (كرىزوبوليس القديمة) قائمة على الساحل الأسيوى من البسفور تجاه الاستانة والمرور فيها ضرورة لزام على من يبغي دخول

الاستانة ذاتها لأنها منها كالعتبة من الدار واذا خلط الكاتب بين الاسمين اسكدار واشقوردة فما هو إلا لأن البلدتين (اشقوردة القائمة على البحيرة المعروفة بهذا الاسم في البانيا واسكدار المائلة أمام الاستانة في بر آسيا) يطلق الفرنجة عليهما اسما واحدا هو Scutari بلا يميز لفظي لاحدهما عن الاخرى .

فعسى ان يلاحظ المفضل كاتب تلك الفصول الممتعة تصحيح ذلك الاسم عند طبعها في مجلد واحد

محمد مسعود

ذكرى ابراهيم باشا كلمة « الأهرام »

اليوم تحتفل الحكومة المصرية بل الامة المصرية وعلى رأسها جلالة صاحب العرش ، الملك فؤاد الأول ، أيده الله بروحه وأيد به عرشه وعرش أجداده العظام بذكرى ، السنة المئة لفتح البطل ابراهيم حصن عكا في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ . وحصن عكا هو مفتاح البلاد السورية كلها عاد عنه نابوليون بعد حصار طويل ، وامتلكه ابراهيم بعد حصار دام من ٢ نوفمبر سنة ١٨٣١ الى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وكان ابراهيم ابان الحصار يخضع المدائن والامصار وينظم الشؤون ويبسط القانون والنظام فلم يكن ابراهيم فاتحا عسكريا بل كان مصلحا اداريا ينبت العشب تحت أقدام جواده وينشق الخير من ظل يديه ويروق رواق العدل حيثما حل وحكم ، فلم يحمل من مصر الى الاقطار والامصار التي خضعت لقوته ولحكم والده سلطة الرهبة والترهيب بل حمل اليها أحدث انظمة العمران والحضارة والتعليم والتهديب والاخاء عاملا بأمر والده اليه « أنت رجل تعامل الناس حيثما حللت معاملة الرجال » اليوم وحكومة البلاد تحتفل بذكرى السنة المئة لفتح البطل المصرى عكا وعاصمة البلاد تتألب للاحتفال بذكرى هذا البطل الفاتح المصلح أمام تمثاله يتاح « للأهرام » التي تقدمت باحياء ذكرى السنة المئة لفتح سوريا والاناضول وبسطت فضله وفضائله ونبوغه وعبقريته وشجاعته وبسالته واصلاحاته أن تفخر بأنها أدت له حقه المقدس وان أعظم رجال الدولة يؤدون له اليوم هذا الحق ويخيل اليها أن

أبا مصر ومجدد شبابها محمد على ليطل على حفيده الملك فؤاد المحتفل بذكرى جده
البطل الفاتح والفتح المصلح قدير العين كاطلاله من جامع الغورية على ابنه ابراهيم
بعد فتح الدرعية عاصمة الوهابيين ودخوله العاصمة بموكب حافل من باب النصر
وعلى رأسه الطلخان السليمي وقد أرخى لحيته فدمعت عيننا ذلك الاب العظيم دمة
الفرح وسار وراء ذلك الموكب الفخم حتى القلعة وهناك تلقى هو ذاته. ولى عهده
الذى غادر مصر وهو دفترادرها ومفتش ادارة أقاليمها ورئيس مجلس شوراها فعاد
وهو والى جدة وخادم الحرمين الشريفين وفتح الدرعية وبلاد العرب حتى خليج
فارس - ولما يتم الثامنة والعشرين .

أجل فى ذلك اليوم العظيم الشأن فى تاريخ مصر دمت عينا محمد على دمتين
احدهما دمة الحزن على طوسون فاتح المدينة وقد توفاه الله فى شرح الشباب
والثانية دمة الفرح للبطل الذى أتم عمل اخيه واهتز العالمان الغربى والشرقى لعمله
ولما انتظر هذان العالمان من وراء ذلك العمل وقد وقع ما انتظراه اليوم ليضع
جلالة الملك فؤاد اكليل الغار والورد على تمثال جده البطل الفاتح تذكارا لفتح
حصن عكا فى ٢ مايو سنة ١٨٣٢ وليسكأنا هذا الاكليل يتناول ذكريات جلية
لا تقل عظمة ومجدا :

يتناول ذكرى فتح الدرعية عاصمة الوهابيين فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨١٨ وذكرى
وصوله الى القاهرة فى ٩ ديسمبر فدامت الافراح فى طول البلاد وعرضها
اسبوعا كاملا

وذكرى اكتشافه النيل الابيض الذى سمي باسمه فى سنة ١٨٢١
وذكرى استيلائه فى ١١ مايو سنة ١٨٢٥ على حصن نافرين فى بلاد الموره
وذكرى استيلائه فى ٢٣ يونيو على تريبوليزا عاصمة الموره
وذكرى استيلائه فى ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ على قلعة مسلولويغى
وذكرى فتح دمشق فى ١٦ يونيو سنة ١٨٣٢
وذكرى ١٨ يوليو بفتح حمص والانتصار على الباشاوات العشرة
وذكرى ٢٩ يوليو بفتح مضيق بيلان والانتصار على جيش السر عسكر
وذكرى معركة قونية فى ٢١ ديسمبر
بل ذكرى اكبر معركة فى حروب ذاك الزمن وهى معركة نصيبين فى ٣٠

مايو سنة ١٨٣٩

هذه الذكريات جميعا وقد بسطت « الازهر » أطوارها للقراء قد تجتمع اليوم
بذكرى فتح عكا في ٢٧ مايو

وفي فتح عكا كان ابراهيم مثله في كل فتح آخر يقرن البطولة بالرجولية والعفو
عند المقدرة فقبل أن يقرر الهجوم على الحصن أرسل إلى عبد الله باشا وإلى عكا
يدعوه للتسليم فأبى فأمر بالهجوم في صباح ذاك اليوم ولما رأى شدة دفاع الحامية
وتقهقر فريق من المهاجمين شهر سيفه وتقدمهم فتحمس الجنود وظلوا يقاتلون
ويدخلون ثغرات الحصن حتى إذا مادنا المساء تقدم إلى ابراهيم باشا وفد من
أعيان المدينة يعلن تسليمها وتلاه وفد آخر من قواد المدافع وآخر من العلماء
يطلبون العفو عن رجال الحامية فعفا ابراهيم باشا عن أرواحهم وأموالهم وأبقى
لهم سلاحهم وضمن لعبد الله باشا حياته وراحته وعند منتصف الليل وصل
عبد الله باشا إلى خيمة ابراهيم باشا مع الأمير الأي ساييم بك فقبله بالاجلال وبما
يقابل به الوزراء ثم ركب معه إلى قصر البهجة الخ . وفي ٢٩ مايو سافر عبد الله
باشا إلى مصر فأرسل محمد علي لركوبه زورقه الخاص وأمر بإطلاق المدافع تحية له
وخصص له داراً خاصة ولما جاء القاهرة أنزل في قصر بالروضة

وهكذا يعامل الأبطال الأبطال وهكذا يعيش الأحياء بموتاهم
ولما وصل خبر استيلاء ابراهيم باشا على عكا أمر محمد علي بأن تقام الأفراح
ثلاثة أيام كأيام الأعياد الكبيرة وبأن تطلق مدافع القلاع والبنادر ثلاث مرات
في كل يوم من الأيام الثلاثة وبأن يعلن ذلك لجميع أنحاء البلاد ولكل واحد من
أمراء محمد علي وبأن يعفى عن المسجونين والمنفيين في أبي قير ماعدا القاتل وقاطع
الطريق وذلك اجابة لطلب القائد العام ابراهيم باشا

في حصار عكا

كلمة لسمو الأمير عمر طوسون

الاسكندرية في ٢٦ مايو : لمراسل الازهر الخاص — لقد اشتهر من مزايا
سمو الأمير الجليل عمر طوسون أنه فخور بأجداده العظام ومآثرهم ومطلع على
جميع أعمالهم وتفاصيل تاريخهم المجيد الذي هو تاريخ مصر كلها من عهد مجددها

ساكن الجنان محمد على . وقد رأى الجمهور كثيرا من مباحث سموه الدالة على ذلك
وقد أتحفنا سموه اليوم بمناسبة عزم الحكومة على الاحتفال بذكرى ابراهيم
باشا ومرور مئة عام على فتح عكا — بكلمة عن القوات المصرية التي دخلت عكا
عند فتحها تزيد تلك الذكرى تمجيذا

ويقترح الامير الجليل أن يلبس الجنود الذين يحضرون الحفلة ملابس اسلافهم
في أيام ذلك الفتح ، واليكم كلمة سموه :

يجدر بنا وقد صحت عزيمة الحكومة المصرية على الاحتفال غدا بذكرى مرور
مائة عام على فتح عكا وذكرى فاتحها العظيم ، بطل مصر ساكن الجنان ابراهيم
باشا بميدان الأوبرا بالقاهرة أن نذكر وحدات الجيش التي حاصرت حصن عكا
العظيم ودخلته فاتحة منصوره بقيادة هذا الفاتح الأكبر الذي تفتخر به مصر اليوم
بحق وتجدد ذكره الخالدة بهذا الاحتفال الرائع
واننا نذكرها نقلا عن كدلفين وبارده وهى .

آلايات المشاة : آلاى الحرس

آلاى الحرس

الآلاى رقم (٢)

(٥) » »

(٨) » »

(١٠) » »

(١١) » »

(١٢) » »

(١٣) » »

(١٨) » »

آلايات الفرسان :

الآلاى رقم (٢)

(٣) » »

(٤) » »

(٥) » »

الآلای رقم (٦)

(٧) » »

(٨) » »

ومجموع هاتين القوتين هو ٢٤ ألف جندي تقريباً غير جنود المدفعية
وقد ضربت حصون عكا تسع سفن من الاسطول المصرى الذى كان يحاصرها
والذى كان مؤلفاً من ست عشرة سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل . وكان قائد
هذا الاسطول أمير البحر عثمان نور الدين باشا

أما التسع السفن التى ضربت هذه الحصون فكان بها ٤٨٤ مدفعا و ٣٨١٠
من الجنود البحريين
وهذه اسماءها :

اسم السفينة

الفرقاطة الجعفرية

اسم القائد

برغمه لى احمد قبودان

وكان عليها علم أمير

البحر عثمان نور الدين

باشا

» البحيرة

عبد اللطيف قبودان

وكان عليها علم الامير

الثانى لهذا الاسطول

مصطفى مطوش بك

برسك الانكليزى

السيد على قبودان

نورى قبودان

مصطفى قبودان

الجزائرى

» كفر الشيخ

» رشيد

» شير جهاد

» مفتاح جهاد

» دمياط

القرويت بمبه

» رهبر جهاد

هدايت محمد قبودان

بيجان قبودان

على رشيد قبودان

الجزائرى

ومما ينبغي ذكره ان حصار عكا دام ستة أشهر وان أول من أحرز نصر الاستيلاء على مدينة عكا والدخول فيها من الجيش المصرى المحاصر لها هو الألاى الثانى من المشاة . وقد سبقت لهذا الألاى نفسه ما ثرة أخرى فى الحرب الحجازية كان جزاؤها ان أنعم محمد على باشا على افراده عندما رجعوا الى مصر فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢٦ م بوسام فضى وأمر أن يقيم فى القاهرة ليكون حامية لها وميز جنوده بلباس خاص يوضع على رؤوسهم وهو منديل حريرى مخطط بخطوط خضراء وصفراء ترخى اطرافه على اكتافهم (كوفية) لان هذا كان غطاء رأس الشعب الذى قهره هذا الألاى (الوهابيين) وأنعم على قائده أمير الألاى محمد بك بمبلغ من المال مكافأة له ورقى وكيـله القائم مقام عابدين بك الى رتبة أمير الألاى وعينه قائدا للألاى الثانى عشر

وحيث ان الجيش المصرى الحالى سيكون له فى هذا الاحتفال الدور المهم فى تمثيل هذه الذكرى فياحبذا لو أمكن ان تلبس جنوده الملابس التى كانت تلبسها أسلافهم جنود الجيش المصرى فى تلك الايام لتكون لهذه الذكرى بعض المشخصات المرئية التى تجليها بصورتها التاريخية لاعين الناظرين

عمر طوسون

ميدان ابراهيم باشا

بمناسبة الاحتفال الرسمى الكبير الذى قررت الحكومة اقامته اليوم احياء لذكرى فتح الجيوش المصرية لمدينة عكا وعلى رأسها البطل المغوار ابراهيم باشا . اكرر القول ان تطلق الحكومة على (ميدان الاوبرا) اسم (ميدان ابراهيم باشا) تخليدا لتلك الذرى المجيدة ونفرا لجيوشنا المصرية وقائدها الفاتح العظيم . ولى كبير الامل فى أن ينال اقتراحى المتكرر هذا عناية من اولى الامر وسرعة فى التنفيذ لان فى تخليد اسم ابراهيم باشا لمفخرة لمصر وجيوشها التى سجل لها التاريخ العالمى التفوق فى الحروب والفتوحات

فؤاد الشغبى

ابراهيم باشا

على طوابع البريد

لى اقتراح بمناسبة ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا جد مليه-كنا الاعظم حفظه
الله . هو أن يعمل طابع بريد يتشرف بصورة تمثال هذا القائد ويوزع لمدة ثلاثة
أيام فقط بعد انتهاء الاحتفال بايام « أى بعد انجاز الطبع » ويكون ذلك أثراً خالداً
لهذه الذكرى المباركة النادرة ، ويكون للطابع بعد ذلك مكانته لدى الهواة فى جميع
أنحاء العالم .

محمد عبد الرؤوف
الخطاط بسكرتارية محكمة
النقض والابرار

فى ذكرى فتح عكا

الاهرام و ذكرى ابراهيم

قصيدة لحضرة الأديب صاحب الأمضاء

عصر بابراهيم عز وطالا	باهى العصور مهابة وجلالا
شادت له «الاهرام» ذكرا خالدا	يفنى الزمان ولا يزول زوالا
صفحاتها نشرت لنا آثاره	فى شامنا وما آثرا وفعالا
حييت ياداود كم أطلقت ما	بين الطروس يراعى السبلا
فأعدت للشرق الأغر فخاره	فسمت معالمه سنى وكالا
جددت ذكرى الفاتح البطل الذى	فى ساحة الهيحاء صال وجلالا
يا فاتحاً عكا بصارم عزمة	علوية تفرى بها الاهوالا

شيدت للعدل المنيف صروحه	لما شهدت صروحه أطلالا
فاضت بها نعامك الجلى كما	ملا السهول نداك والاجبالا
الحلم فيك سجية وإذا طغى	سيل العداة فلا تهاب نزالا

الغرب يفخر بالرجال أما درى كم أنجب الشرق العظيم رجالا
شادوا له صرحاً يظل مجدداً فى الشرق ما امتد الزمان وطالا
هذا سليل المجد ابراهيم قد ابقى له الآساد والاشبالا
يهدى لابراهيم اكليلا غدا رمزا للمجد خالد ومشالا
يحي فؤاد فيه ذكر فوارس خاضوا الوغى واستبسوا استبالا
فلتحي مصر عزيزة بفؤادها وليحي شعب يكرم الابطالا
الاسكندرية « فريد حداد »

ذكرى الفاتح العظيم

قدم حضرة الناظم هذه الأبيات إلى العتبات الملكية مكتوبة بخط حميل وهى :
يا فاتح الأقطار منك بجرأة وبحكمة عزت على الأبطال
قم واستمع آى الخلود جميلة من ألسن التاريخ والأجيال
ما زلت فى صدر الزمان ولم تنزل رغم المنية فى المقام العالى
أنجبت اسماعيل من أحيا الحمى بجليل اصلاح وحسن فعال
وكفى باسماعيل ان مليكنا السامى ابنه ، وفؤاد مصر الغالى
يامصر تهنى إذ غدوت بعصره تزهين بالاسعاد والاجلال
هذا فؤادك فانعمى فى ظله وتمتعى بعظائم الاعمال
نجيب هو اوينى

الجيش وذكرى ابراهيم

سر للحقائق ان تسر بحسام ودع الخيال لهذه الاقلام
واذا الصوارم واليراع تناظرا فرقت بين الحق والأوهام
من للغزاة اذا رموك بصاحب لجب ، ومن للبصر المتعامى
الكتب أضعف ما تكون وانما تقوى اذا حملت على الصمصام
واذا امرؤ هز الجسام فقد صحا من نومه بمعبر الاحلام

أى الشعوب حى حماه بكتبه أو نال بالأقلام أى مرام
أقسمت ما حفظ البلاد لأهلها شىء كجيش للبلاد لهام
بالجيش تمتنع البلاد وهل ترى من غاية عزت بلا ضرغام
لو أن للآرام نابا أصبحت وكناسها أجم من الآجام
قووا لنا جيش البلاد وأمسكوا عنا الكلام ، فلات حين كلام
قووا لنا جيش البلاد فانه سر الحياة يدب فى الاجسام
محمد الاسمر

مجد السيف وفضل القلم

عز الوطن فى يمين سيد الوطن

انما المجد ما بنى والد الصدق واحيا فعاله المولود

لم تبخل مصر يوما أن تطيع حاكمها وحاكم الجد فيها يلقي منها الجد له ، تمده
وتنصره وتواليه وتواتيه حتى لو خاض البحار لخاضتها أو رام السماء لبلغتها عن
همة وخلوص نية . وجهد واستنفاد جهد ، وصدق ، وقلب صدق ، وعمل صدق
قال عمر بن الخطاب للحطيئة يوماً كيف كنتم فى حربكم ؟ قال كنا ألف فارس
حازم . قال وكيف يكون ذلك ؟ قال كان قيس بن زهير فىنا وكان حازماً فكنا
لانعصيه ، وكان فارسنا عنقرة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا احجم . وكان فىنا
الربيع بن زياد وكان ذا رأى وكنا نستشير به ولا نخالفه ، وكان فىنا عروة بن الورد
فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك . قال عمر صدقت اه

هكذا . ما أقرأ هذا الخبر حتى أتصور مصر إذا بعث الله لها ملكاً صالحاً
وقائداً حكيماً وذاداً مخلصين — ومصر لها من دون الأمم تاريخها إنما هو تاريخ
ملوك ، من عظم منهم عظمت به ومن خف منهم خفت به . وهذه الرقعة من
وسط الدنيا القديمة دامت دار مصر . إن عزت حوطت مداها على طول الأفق .
أو هانت أرز مجدها اليها حتى ما يكاد يهدأ فى حاضرتها وربما طار حيناً من تاريخها

وهذا السر في مصر قد وقف عليه العباقره الأحرار من ملوكها فاستعملوه لها ولهم وبسطوا ملكهم به مؤطر الزواحي بمجدهم الباقية آثاره على هذا المدى . وغاب هذا السر عن كل خوان مأفون ، فقبر به تارة أو قبر به أبناء الوادي ، والتاريخ شاهد مزكى على صدق هذه النظرية في أطواره كلها وأطوار مصر معه . فلما بعث الله محمد على ملكا على الوادي كان من صفاء الروح وشحد الهمة وقوة العبقرية بحيث عرف السر واستخرجه فانتفع به ونفع أصحابه فعاتد مصر في أيامه أمبراطورية واسعة الأطراف من منابع النيل في الجنوب إلى منابع الفرات في الشمال وقد ضم بيديه طرفي آسيا وأفريقيا في مضيق عدن فعدا البحر الأحمر بحيرة مصرية ضفتها من آسيا جزيرة العرب إلى بحر فارس ومن أفريقيا شطرها الشمالي الشرقي ملك بناه رأى هذا الماجد وسيف ابنه ذاك العظيم ابراهيم الذي يهز مصر اليوم من تمثاله النحاسي هزة بعثتها فيها منذ مائة سنة إحدى انتصاراته اللاتي لو عدت مع أيام السنة لكفتها واللاتي يبدأ الحفل بها اليوم فاذا بدأ كرت على مصر ذكريات متلاحقة فما أن تفيق من نصر إلا إلى نصر ويوشك أن تعود مصر سيرتها الأولى وقد جاءها عبقرى جديد يحدد لها حياتها جدة العصامي العظامي والمجد عصامي عظامي ، فهو إذ يقف اليوم أمام تمثال الفاتح ابراهيم باشا فليست كوقفه الذين يقف التاريخ أمامهم هم . بل وقفه الذين يقف التاريخ له كما وقف من قبله أمام آبائه وأجداده إنما المجد مابني والد الصدق وأحيا فعاله المولود

أنا مصري من الذين تهزهم شعائر الوطن ، وددت اليوم لو حشد المصريون ليروا ساعات الحفل في ميدان ابراهيم وقد وقف حفيده تحت قاعدة التمثال ومن حوله عصيته وأهل دولته وقادة جيشه والصفوة من جنوده ومن ورائهم أفراد الرعية حافين بالعرش وحملته زخرت بهم الشوارع وملئت بهم النوافذ ورئيس الحكومة بين يدي مولاه يشدو بما أثر أسرته ، والعسكر يمتطون الجياد شاهري السيوف شاكي السلاح كاملي العدة أبواقهم تضرب نوبة المساء مثل بوق الأسلاف في أسوار عكا واقتحام حصونها . منظر عجيب كفيل بالروح والاحساس وبمثله تغذى أرواح الشعوب والامم ومنظر يهز المصري من عطفه النصر وعطف الفخر بالنصر إذ كانت فعلات أجدادهم بكرة لم يطمئنها من رامها قبله فان سيد الحرب

في الغرب رام أن يفتح عكا فعزت عليه عكا فتركها على مضض ، أما سيد الحرب في الشرق فانه رام ونال المرام . وينتشر في العين منظر يغشى جند الميدان بطابع رأيته على قيد خطوات في الاوبرا أمام الميدان إذ تمثل فيها رواية عائدة المصرية فيرى الرءاون جنود أسلافهم وقد جاءوا بالنهاب والسبايا ، ولا نخر ، فالولد سر أبيه .

وتصفحت الوجوه لأرى الكاتب الذي نشر (ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا) وأرى فيه روح النصر للقلم وقد خدم السيف باحياء رب السيف فاذا بأحياء السلف يستجيون للكاتب قياماً على فضل القلم . تنظرت الوجوه لأرى داود بركات وهو أولى من حقه أن يرى حفل اليوم فلم أجده وقيل إنه في الفراش كان مدد قوته في تذكر أمته نقد به الوجد عن طاقة الاستعداد ، فهو يستجم لعود المداد وهكذا رجال الضحية من حملة السيف وحملة القلم إنما يعيشون بالذكرى أكثر مما يعيشون بالأعصاب .

وكان مما رأيت عمائم مجنحة فوق طيالس منشرة ذكرتني برواية الكاتب عن سحر محمد علي إذ نفث في القوم حتى هب شيوخ القوم يعتقلون السمهرى بدل العكاز ويستلمون بالمغفر عن العمامة ، ويدرعون الزرد من دون الفراريج ، فعدلنا أسماء من شيوخ الأزهر وأبناء شيوخه تطوعوا في جده وطوعوا غيرهم تحتهم فرقاهم الباشا في صفوف العسكرية إلى رتب القائمقام والأميرالاي واللواء وقرأنا حديثه عن الشيوخ المتأخرين كما نقرأ حديث السلف الصالح عن شيوخ الصحابة وجلة أهل العلم وكانوا يعلمون ويعملون ، ويعظون ويجاهدون ويسلكون دروب الحياة كلها مقتدين بالسيد الأعظم الذي قال وقوله الحق (وجعل رزقي في ظلال رحي)

وخاتمة المقال بتكرير آية المجد ارتداء ابراهيم بنى مصر وهو عائد من حروب الشام وقد جعل جيشه ثلاث شعب فنجت الثلاث الشعب على عيون الأعداء وسهر الكمباء مثلها ارتد خالد بن الوليد بالمسلمين في غزوة مؤتة من مكان قريب

مما ارتد ابراهيم فاستحق بحركته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبه الخالد في الاسلام (خالد سيف الله) وكذلك شهد للعظيم ابراهيم كل عظيم في زمنه بحركته

لم يطو لمصر علم ولا هزم جيش مصر — ولها قائد — في موقعة . ولم يترك ابراهيم بلاد الشام التي فتحها بسيف المصريين أمام دولة واحدة ولا دولتين ولا ثلاث دول ، ولكن تجمع عليه أولو القوة من بنى الدنيا جميعاً . إنجلترا ، وبروسيا والروسيا ، والنمسا ، وإيطاليا ، وتركيا ، وثور الشام . فخلص من هذه الجهات الست خلوص العزة حين قضت عليه السياسة أن يترك ما بيديه ، فلم يتركه القاء المضيم ولكن تركه في عزة المستطيع ولين القوى — فالיום يستطيع كل مصرى أن يرى عزته عن كذب ، وأن يرى كيف ينال العز بالشرف ، وهو إذ يتمثل نصر العز عمتلى الحياة بفيض العز يقول مع رئيس الحكومة إنه لا ينبغي حرباً وإنما يطلب حياة تليق بصاحب هذا التاريخ .

ولله در الشماخ . لو أنه يرى اليوم « فؤاداً » في حشده تحت تمثال جده وقد استظل بيده الممدودة تقول (إلى الأمام) اذن لا تُشده بيته الخالد إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها فؤاد باليمين
مصريايم

ملاحظة — كاتب هذا المقال هو صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان نائب محكمة مصر الشرعية .

الاحتفال بذكرى فتح عكا

جلالة الملك عند تمثال البطل الفاتح

خطاب رئيس الوزارة — مظاهرات الطلبة والعمال والأهالى للملك لأول مرة في تاريخ مصر الحديثة تحتفل بذكرى مجيدة من ذرياتها العسكرية المجيدة ذكرى نسر ونفخر بأن (الاهرام) كانت أول من عمل على احيائها واهياء اسم بطلها العظيم في سلسلة المقالات التي كتبها رئيس تحرير هذه الجريدة .

والتي أثارت في الناس تقدير ذلك الماضي القريب المجيد وحركت الرغبة في احياائه
في احتفال وطني كبير

وقد اشترك في الاحتفال الجيش المصرى ممثلا في جميع القوات المرابطة بالقاهرة
وهي أربع أورط من المشاة وأورطتان من الفرسان وبطارتان من المدفعية
بأساطينهما . وقد اصطفت جميعها حول ميدان الاوبرا الذي اختير لإقامة
الاحتفال عند تمثال البطل ابراهيم . واصطف معها تلاميذ المدرسة الحربية ومدرسة
البوليس والإدارة

وتجمع وراءها طلاب المدارس والأزهر الشريف وهيئات العمال المختلفة
وعشرات الألوف من الأهالى الذين تجمعوا على الافاريز وغصت الشرفات في
الدور المحيطة بالميدان بالناس

وأقام قسم الأشغال بوزارة الحربية سرادقا جميلا على شكل كشك مرتفع
إلى يمين التمثال وفرشت الأرض أمام الكشك وأمام التمثال بالسجاجيد

واصطفت قوات من البوليس عند منافذ الشوارع المخصصة للبرور وحول
الجيش لحفظ النظام وعدم السماح لأحد من غير حاملى تذاكر الدعوة بالاقتراب
من محل الاحتفال

وكان يشرف على نظام البوليس بيكر بك حاكم دار البوليس بالنيابة ويشرف على
النظام عامة صاحباً العزة احمد كامل بك مدير الامن العام وبدوى خليفة بك وكيله ،
ويشرف على نظام الجيش ضباطه وكانوا جميعا بملابس الميدان

ومنذ الساعة الرابعة أخذ المدعوون يفدون وبلغوا عدة مئات ووقفوا ينتظرون
تشریف جلالة الملك وفي مقدمتهم الامير ابراهيم حليم والامير محمد على حسن والنبلاء
اسماعيل داود وسعيد وطوسون وعمر و ابراهيم ومنصور داود وسليمان داود .
ورئيس الوزارة ورئيسا مجلسى الشيوخ والنواب وعدلى يكن باشا والوزراء جميعا .
ومن رجال القصر الملكى سعيد ذوالفقار باشا كبير الامناء ومحمد زكى الابراشى باشا
ناظر الخاصة ومراد محسن باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة ومحمود شوقى باشا السكرتير
الخاص لجلالة الملك واحمد محمد حسنين بك الأمين الأول ومحمد حسين بك الأمين الثانى
وفيروتشى بك باشمهندس السرايات الملكية وعبد الوهاب طلعت بك مدير الادارة
العربية وغيرهم من الامناء والتشريفيات والياوران

وفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ونيافة الانبا يؤانس بطريرك الكرازة
المرقسية وسيادة الحاخام باشى مفتى الديار المصرية والاستاذ السيد محمد الغنيمى
التفتازانى وكثيرون من كبار العلماء ورجال الاديان

ورئيس محكمة النقض ورئيس محكمة الاستئناف الاهلية وجميع وكلاء الوزارات
ومحمد مفتى الجزائرلى بك وزير مصر المفوض بطهران والمحافظون واكثر مديرى
المديريات ومستشارو محاكم النقض والاستئناف الاهلية والمستشارون الملكيون
وكبار رجال القضاء الشرعى والاستاذ محمود منصور بك رئيس نيابة مصر واساتذة
الجامعة المصرية وعلى رأسهم مدير الجامعة بالنيابة وعميدو الكليات

وقواد الجيش المصرى وكبار موظفى وزارة الحربية ومدير المدرسة الحربية
ومدير مدرسة البوليس وأساتذة المدرستين

وعدد كبير من الوجوه والاعيان وفى مقدمتهم مدحت يكن باشا وعبد الخالق
مدكور باشا وسمعان صيدناوى بك ويوسف موصيرى بك وحامد العلاليلى بك
ومحمود ثابت بك وعبد الحميد الشواربى بك والاستاذ احمد رشدى المحامى وحسين
عاصم بك وغيرهم كثيرون لم تسع الذاكرة اسماءهم

وعند الساعة الخامسة تماما وصلت السيارات الملكية قادمة من سراى القبة
العامة وكانت الجماهير تقدر بعشرات الالوف على طول الطريق وصفقت هاتفة
بحياة جلالة الملك وبلغت الحماسة أشدها فى ميدان الاوبرا لكثرة من تجمعوا حوله
ولما نزل جلالة الملك من السيارة قدمت قوات الجيش التحية العسكرية وصدحت
الموسيقى بالسلام الملكى وتفقد جلالته قره قول الشرف الذى وقف تجاه الكشك
الملكى الذى رفع عليه علم جلالة الملك ولما انتهى جلالته من عرض القره قول
صعد إلى الكشك محييا المنتظرين رافعا يده مبتسما ابتسامة رقيقة وصعد خلف
جلالته الأمراء والوزراء ورئيسا الشيوخ والنواب وعدلى يكن باشا ورؤساء
الاديان الثلاثة ورئيسا محكمى النقض والاستئناف الاهلية ورئيس المحكمة العليا
الشرعية ونقيب الأشراف وسماحة السيد عبد الحميد البكرى فتفضل جلالته وصاحفهم
جميعا ثم نزل ووقف عند قاعدة تمثال البطل ابراهيم باشا وأحاط بجلالته الأمراء
والنبلاء ووقف الى يمينه الوزراء والكبراء وأمامه بقية المدعوين ووقف بين يديه
صاحب الدولة صدقى باشا رئيس الوزراء فلقى الكلمة الآتية :

خطبة رئيس مجلس الوزراء

مولاي صاحب الجلالة

تحرص الامم الراقية والشعوب الناهضة على احياء ذكرى مفاخرها وما آثرها والاشادة بها على مر السنين لأنها بذلك تجمع بين تمجيد المحسنين وتسجيل الاعتراف بالجميل لرجالها النابهين ، وبين تنشيط النفوس وانعاشها وبث روح الثقة والتجديد فيها ، ونشر ألوية الغبطة والفخار في كل مكان

لهذه الاعتبارات الحيوية الجليلة ، ننتهز هذه الفرصة السعيدة يامولاي : فرصة مرور مائة عام على فتح عكا على يد جدكم العظيم ، المغفور له ابراهيم باشا ، لنتحفل بهذه الذكرى المجيدة في ظلال تمثاله ، وبين يديكم الكريمتين

ففي مثل هذه الساعة ، وفي مثل هذا اليوم من عام ١٨٣٢ ، استولى البطل ابراهيم على حصون عزت على غيره من الغزاة الفاتحين ، وسجل لمصر بفعاله وبسالته جنده نصرا عظيما في صفحة الخلود

ونحن بتمجيدنا هذا اليوم ، إنما نمجد اسرتكم وجيشكم ، ولا يحدونا في هذا التمجيد إلا عاطفتان اثنتان : عاطفة الاخلاص والولاء من ناحية ، وعاطفة الاعجاب والفخار من ناحية أخرى

فاما اسرتكم الكريمة ، فان مصر بأسرها لتذكر بالحمد والثناء أياديها البيضاء عليها ، فهي التي وطدت في البلاد دعائم المدنية ، وشيدت فوق الدعائم خير المنشآت وأما جيشكم المائل أمام جلالكم ، فهو — يامولاي — سليل تلك الجيوش الفاتحة ، من حيث روحها واستعدادها ومن حيث نظامها وولائها للوطن العزيز ، وعرشكم المفدى

نعلن ذلك في غبطة وفخار ، ونحن أبعد ما نكون عن الاشادة بالحرب وما إليها ، وحسبنا أن العالم بأسره يعرف ميلنا للسلام ، إذ السلام شعاركم وشعار أمتكم والناس على دين ملوكهم

أدامكم الله يامولاي ذخر البلاد وحصنها المنيع ، وإن جيشكم الباسل ليقترز هذه الفرصة ليقدم فروض الولاء والاجلال لقائده الاعلى ، وإن شعبكم المحيد

ليتهز هذه الفرصة كذلك ليظهر فيها حبه والتفافه حول مليكه العظيم ،
ولما انتهت الخطبة صفق الحاضرون لها طويلا ودوى بورى الجيش ثم نادى
الضباط : « تحية عسكرية » فوضع الجنود أسلحتهم الوضع العسكرى الذى يؤدى
معنى التحية ، وأدى الضباط « سلام الملك » فصدحت الموسيقى بالسلام الملكى .
وهتفت قوات الجيش كلها « يعيش فؤاد ملك مصر » ثلاثا ثم صدحت الموسيقى
بالسلام الملكى . وبعد ذلك اتجه جلالته نحو السيارة مودعا كبار المحيطين به وصافح
دولة صدق باشا معربا عن سروره وإعجابه وسار فى عاصفة من الهتاف بحياته
اشتركت فيها الجماهير العديدة

وبعد ذلك تقدم حضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا وزير الحربية
ووضع عند قاعدة التمثال إكليلا جميلا من زهور القرنفل البيضاء على شكل دائرتين
فى أرضية من أوراق الزهر الخضراء . وفى وسط الاكليل شريط طرز عليه بواسطة
مصنع الكسوة الشريفة العبارة التالية بخط فارسى جميل

« إلى البطل الفاتح العظيم ابراهيم باشا من الجيش المصرى تمجيذا للذكرى
المئوية لفتح - عكا ٢٧ مايو سنة ١٩٣٢ »

وبعد ذلك قدمت مواكب مظاهرات كبرى يقدر من اشتر كوا فيها بعدة ألوف
ومع كل فريق علمه وقد تيسر لنا أن نتبين منها أعلام نقابة الموظفين ورابطة العمال
المتحدة واتحاد نقابات العمال العام الذى يرأسه حضرة الاستاذ ادجار جلاد والأزهر
الشريف ومدارس عديدة وكانت جميعها تهتف بحياة جلالة الملك وبحياة الوزارة
وظل الزحام فى الميدان إلى ما بعد الاحتفال بأكثر من ساعتين

وزينت قاعدة التمثال بورق الاشجار الاخضر والازهار زينة بسيطة جميلة
وزين الميدان بالاعلام وزين اصحاب الدور والمتاجر المحيطة به أما كنههم زينات
بديعة وفى المساء بدا الميدان فى حلة باهرة من الانوار المتألقة المتلألئة وصدحت
موسيقى الجيش إلى ساعة متأخرة من الليل

ولم يدع الوزراء المفوضون ولا أحد من الاجانب لان الاحتفال مصرى وطنى
بحث بذكرى مصرية وهذه هى العادة المتبعة فى الاحتفال بذكرى الحروب والفتوحات

ذكرى ابراهيم باشا ما اقترحه بعض أعضاء البلدية منذ أربع سنوات

الاسكندرية في ٢٧ مايو — لمراسل الاهرام الخاص — لمناسبة الاحتفال الذى يقام اليوم فى القاهرة لذكرى ابراهيم باشا ومرور مئة عام على فتح عكا . ذكرنا أحد حضرات نواب الاسكندرية فى البلدية باقتراح قدمه إلى الهيئة البلدية فى سنة ١٩٢٨ اثنان من اعضائها فى تلك السنة — هما الاستاذ سعيد طليمات بك الذى كان رئيسا للمأمورية ووكيلا للقوانين والمسيو فيليكس جرين يراد منه اقامة « قوس نصر » فى ميدان قصر رأس التين فى هذه المدينة تذكرا للبطل الفاتح ابراهيم باشا وأن ينقش على هذا الاثر التاريخى الثابت خلاصة تاريخ ذلك البطل وفتوحاته وما أثره البارزة . وكانت المأمورية قد درست هذه المسألة ووافقت على الاقتراح مبدئيا ووضعت لقوس النصر المقترح اقامتها رسوم مختلفة كان أحصاها رسم يماثل أثران هذا الطراز مقاما فى باريس لذكرى بعض ابطال فرنسا

ولكن الحالة المالية لم تكن إذ ذاك تسمح بتنفيذ هذا المشروع فأرجىء إلى الوقت المناسب وطوى الاقتراح حتى الآن

وفى نية أحد الأعضاء كما فهمنا أن يحدد ذكرى هذا المقترح التاريخى لمناسبة الاحتفال بذكرى ابراهيم باشا وفتح عكا منذ مئة عام ومناسبة ما نشرته الاهرام من المقالات القيمة عن سيرة ابراهيم باشا التى ذكرت الحكومة والأمة بفتوحاته المجيدة وأدت إلى إقامة هذا الاحتفال

على أن الحالة المالية التى كانت تحول فى سنة ١٩٢٨ دون إقامة الأثر المقترح تحولت فى هاتين السنتين إلى أزمة شديدة وربما كان ذلك مما يوجب ارجاء هذا المشروع إلى وقت آخر . على أنه جدير بالتنفيذ .

ولهذه المناسبة نذكر أن الاسكندريين يعجبون لتسمية الميدان الذى فيه تمثال ابراهيم باشا فى القاهرة « ميدان الأوبرا » مع وجود ذلك الأثر الخطير فيه . وكان يجب أن يسمى « ميدان ابراهيم باشا » كما سمي الميدان الذى فيه تمثال محمد على باشا فى الاسكندرية ميدان محمد على من زمن طويل

نادرة لطيفة

عن ابراهيم باشا في الشام

احتفلت البلاد أمس بذكرى مرور مائة عام لوفاة المغفور له ابراهيم باشا الرجل الباسل الفاتح الشهير ونعم ما فعلت تكريماً لرجالها العظام الذين يستحقون كل إكرام قدوة بسائر البلاد المتمدنة وبهذه المناسبة أذكر للقراء حادثة طريفة تبين سطوة هذا الرجل العظيم في البلدان التي فتحها وهيبته وكرمه .

روى أحد أصدقائي نقلاً عن والده من أعيان دمشق وثقاتها الاسرائيليين أنه لما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام كان يوماً راكباً جواده متكرراً في ضواحي الشام فقابل رجلاً سائراً على الأقدام واسمه « يوسف الرايق » هذا الرجل كان من الباعة الذين يسرحون بأقمشة على أكتافهم يطوفون القرى المجاورة يبيعونها للفلاحين أو يستبدلونها بدجاج أو بيض أو بما أشبه ذلك وكان يومئذ ذاهباً إلى قرية جويرة وهي تبعد عن الشام نحو نصف ساعة ، ولما مر به ابراهيم باشا نزل عن جواده وسأله عن مهمته أو سبيله ثم قال له ألا تخاف يا رجل أن تذهب وحدك في البرية ألا تخشى من اللصوص وقطاع الطريق وأنت بلا سلاح فأجابه على الفور ولم يكن يعرف من الذي كان يخاطبه « لا يا أفندي كيف أخاف وأبو خليل موجود في البلاد » وافترقا كل في سبيله . وبعد نصف ساعة اعترض فارس آخر يوسف في الطريق وأوقفه عن السير فخاف هذا وهو يظنه من قطاع الطريق ولسكنه بالعكس كان رسول خير وييده عشرة جنهات هدية له من « أبو خليل »

عاد يوسف مسروراً إلى منزله بغنيمة عوضاً عن الدجاج والبيض وهو يثنى على كرم المهدي ويردد قوله « الله يطول عمر ك يا أبو خليل »
الدكتور هلال فارحي

ماذا أعدت الأمة والحكومة

لمكافأة محي ذكرى ابراهيم باشا

بيننا رجل هو من أفاضل كتابنا ومن أمثال حملة القلم فينا ، ومن مفاخر صحافينا ، له في المشا كل السياسية رأى ناضج وفي المعضلات الوطنية قول صادق لم تصب الأمة بأزمة أيأ كان خطرها إلا وتراه قد طلع على الناس بالقول الصائب والرأى الفاضل والبرهان المنير . تسهر عيناه في البحث والتنقيب وانتزاع الحجج والبرهانات تأييداً لحق الأمة فيما يعرض من أمر وما يتاح من شأن بينما غيره في سكرة من متع الحياة . ينظر في الآفاق ويرقب الاحداث حتى إذا لاح له نجم مشرق يتلألاً بذكرى يوم من أيام الأمة المشهودة ، بادر إلى تخليده وتذكير الناس بوجوب تمجيده فتهتز له القلوب وتصغى إليه الأسماع وتميل نحوه الأعناق فيعود كل امرئ إلى نفسه يرميها بالقصور ويتهمها بالاهمال ثم يلتفت إلى ذلك الرجل العامل المجد . فماذا يكون نصيبه من الالتفات ؟ لم نر له من حظ ولا نصيب على ما قدم لهذه الأمة إلا ابتسامة الاستحسان أو نظرة الإعجاب ، ثم لا يلبث أن يتلاشى ذلك الاستحسان وينسى ذلك الإعجاب بين الضحى والعشى ، وذلكم الرجل هو الكاتب الباحث المنقب الكبير شيخ الصحافة وإمام الكتاب : الأستاذ داود بركات ، وهذا هو جظه من هذه الأمة وليس هو بالحظ الذي يدل على الكمال والنضوج أو يشير إلى حسن القياس والتقدير . لأن الأمة الكاملة الناضجة لا يفوتها أن تقدر العاملين المخلصين ولا تنسيها الاحداث والغير مكافأة المجدين الصالحين .

لنترك مواقف داود البارعة في صفوف العاملين طوال زمن الاحتلال ولنطو الآن صفحة مكافئته خصوم البلاد ، فريدة الأهرام حافلة من آثاره الخالدة بكل شريف وكريم . ولنلق نظرة سريعة على مشاهده الباهرة منذ قيام هذه الحركة الأخيرة ، لتبين منها آثار هذه النفس المتوثبة وهذه الروح الكبيرة وهذا العقل ، الناضج وهذا القلب النابض بالغيرة والاخلاص وهذا القلم المعجز الفياض ، وما لتلك الآثار من الفضل الكبير على هذه الأمة الغافلة

قامت الحركة الأخيرة منذ اثنتى عشر سنة وحضر إلى مصر مستر شيرويل مستطلعا طلع الأمر فيها محاولا تصوير الحالة في الصورة التي يراها في مصلحة أمته فصمد له داود وأخذ يناقشه مناقشة العالم بأسرار السياسة البريطانية واتجاهاتها وأخذ يناظره مناظرة الكاتب الوطنى الغيور ، وما زال ينجد معه ويهتم ويقف به على أسباب الداء ويرشده إلى حقيقة الدواء بالحجة القاطعة والبرهان المبين ، وهل من دواء إلا أن يترك الانجليز البلاد لأهلها وأن تستقل بنفسها لنفسها ؟ ! هكذا كان اتجاه داود ومطلبه ؟ فماذا صنعت له الأمة وبماذا كافأته ؟ !

قامت مسألة السودان وجرى البحث في حقوق مصر فيه ، وكبرت دعاوى الانجليز بشأنه ، وأخذ الكتاب في المناقشة والمباحثة وتناولوا الأمر فيما بينهم جذبا ودفعاً وخفضاً ورفعاً ، وبيناهم في أمر من شأنه مريج طلع داود على الأمة بكتابه الفذ القيم « السودان المصرى والانجليزى » فقطع قول كل خطيب وأثار السيل وعبد الطريق وأوضح المسالك وبين ما مصر في السودان من الحقوق الثابتة التي أيدها الدماء المهرقة في صحاريه والأموال السائلة في بواديه . وقد عرف كل مصرى أن السودان له دون غيره من سائر خلق الله ، وذلك بفضل داود وبفضل داود وبقلم داود ، فماذا صنعت الأمة لداود وبماذا كافأته ؟ !

تحدث الناس في شأن الحركة العرابية وكتب الكتاب فيها ، وذهبوا في أسبابها ونتائجها مذاهب شتى ، وتناولها الباحثون بمختلف الفكر والا راء فطلع عليهم داود بمقالاته المحققة ورسائله الممحصنة فجلا بهما غواشى الظلم المتراكبة . وأظهر الأسرار وبين المعالم وأعطى من كل ناحية نواحيها حقها من البيان والايضاح ، وحقق الأسباب وصحح المقدمات وخرج بالنتيجة التي لا ترد وبالغاية التي لا تدفع فماذا صنعت الأمة لداود وبماذا كافأته ؟ !

درجت الأمة ومضت السنون والناس لا يعرفون من أمر ابراهيم باشا شيئا وقد أنكروه حتى أنهم كانوا يسمون تمثاله بالحصان ويعتدون القرب منه سبة عار ولكن داود لا يحب أن تجهل هذه الأمة تاريخها إلى هذا الحد ولا يستريح إلى أن تستهين بأبطالها إلى هذا المقدار ، فاستثار كوامن نفسه ونبه المخزن من حافظته وأرسل نظره في بطون الدفائن من الاوراق والمستندات والدفاتر ثم أرسل قلبه البليغ يتوغل في شعاب البحث والدرس والاستقراء فجلا للأمة بل للأمم كافة

حقيقة البطل المصرى العظيم ابراهيم باشا . وعرض عليهم موافقه الهائلة فى الزيادة عن كيان الامة ، ومشاهده العظيمة فى العمل على توسيع رقعتها وامتداد سلطاتها ، كما قرأ على الناس صفحة خالدة من انصع صفحات الجيش المصرى المجيد . فنبه الامة الى تمجيد هذا البطل الكريم وإلى الاعتزاز به والافتخار بأعماله . كما أيقظ الحكومة من سباتها فقامت تحتفل بذكره عن إحدى وقائعه الكبرى وفتوحاته الجليلة ، وكان يوم ٢٧ مايو من مفاخر الايام فى هذه الامة . فاذا صنعت الامة لداود وبماذا كافأته ؟ وماذا صنعت له الحكومة وبماذا كافأته ؟ !

أرى أنه يجب على الامة إزاء هذه الاعمال العظيمة التى قام بها داود بركات وهذه الخدمات الكبرى التى قدمها اليها حسبة لوجه الله وقياماً بحقوق هذا الوطن العزيز أن تظهر له شعورها الفياض فتقيم له حفلة تكريم وتقدم له فيها ذكراً ثميناً يتفق مع عزتها وكرامتها لتثبت أنها أمة حية صالحة للبقاء وأنها تقدر العاملين وتعرف أقدار المخلصين .

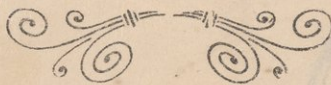
وأما الحكومة فمن واجبها أولاً أن تمنح هذا الكاتب العظيم لقباً من ألقاب الشرف التى يحملها السنى والدنى ، ثانياً أن تقوم الجامعة بمنحه لقب الدكتوراه الفخرى فهو من أحق الناس بحمله وأجدرهم بالتلقب به . أليس قد قدم للامة سفراً ضخماً عن ابراهيم باشا وفتوحاته تندق الأعناق وتتحطم الاصلاب دون كتابة مثله ؟ ثالثاً تدفع اليه الحكومة مقداراً مرضياً من المال مكافأة له عما عانى فى هذا البحث وما بذل فى سبيله من النفس والنفيس ، رابعاً تأمر بطبع هذا التاريخ ونشره بين الناس وتقريره فى مدارسها الكبرى وفى مكاتب المدارس على الاطلاق على نفقتها بطريق التراضى معه على ذلك .

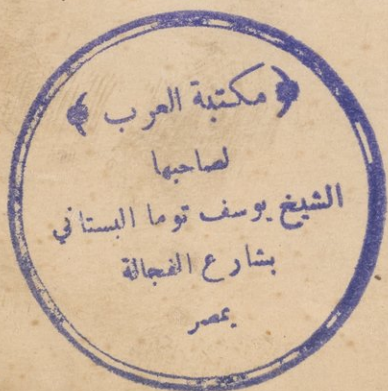
هذه كلمة صراحة وإخلاص أنشرها خدمة لسمعة أمتى وقياماً بحق هذا الكاتب الجليل الذى طوق أعناقنا جميعاً بمننه التى لا تنسى ، فهل من سميع ؟ !

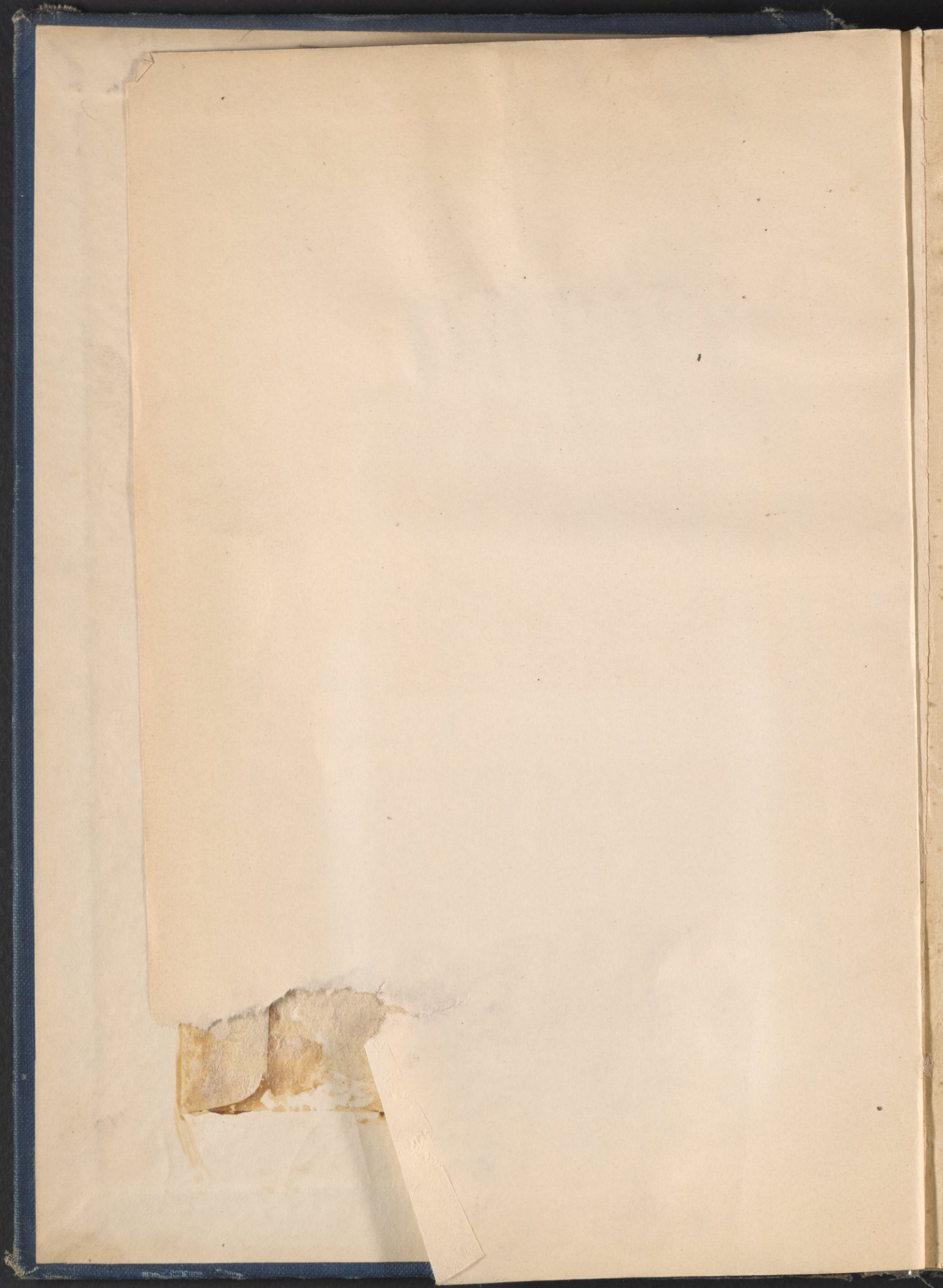
حسن السندوبى

بعض مراجع الكتاب

الوقائع المصرية
مذكرات كلوت بك
مذكرات الدكتور غالياردو
الوثائق الرسمية التي طبعتها الجمعية الجغرافية
تاريخ مشاقه
مذكرات نوفل
تاريخ الاعيان لطنوس الشدياق
تاريخ جوين
مذكرات دوين
تقويم النيل لامين سامى باشا
الجبرتي وميخائيل شاروويم
البحر الزاخر لمحمود فهمى باشا
الرسائل الشرقية
سليمان بك أبو عز الدين
المسألة المصرية الفرنسية
مذكرات سليمان باشا الفرنساوى
وذلك ماعدا الوثائق الخطية التي وصلت إلى المؤلف ومما ترجم له من الدفترخانه
ومؤلفات بريه ولوران وبوجولات وموريز







b12680242

i14140147

Date Due



1 0 0 0 0 0 7 7 0 2 0

1974

JUN

JAN 17 1987

AUC - LIBRARY



DATE DUE

~~28 JUN 1987~~

[illegible]

